

في محراب فن الرواية
في رحاب الحياة

فتحي إمبابي

كما يقال " trop poivre " ⁽¹⁾
وقارب الحب تحطم على صخرة الحياة...
أجريت حساباً مع الدنيا...
ولا فائدة من تعداد
الألام المتبادلة...
المصائب...
والإهانات!
أتمنى لكم السعادة في البقاء.
فلاديمير ماياكوفسكي
12 نيسان 1930

⁽¹⁾ trop poivr : فلفل حار جداً.

مقدمة:

أروي تجربتي الشيقة الممتعة مع فن الرواية،
والتي شكّلت الأقدار جانباً منها، وكيف طوّر هذا
الفن الإنساني النبيل أفكارى ومعتقداتى، وأنا أشق
طريقي بكل جدية ومعاناة وكبد في رحاب
الحياة!...

كيف ومتى.. ولماذا قررت أن أكون روائياً؟

ملهاتي مع مؤسسات النشر، وكوميديا
مؤسسات الجوائز، الدور غير المعلن للمؤسسة
الثقافية في العزل عن النشاط الثقافي العام داخل
وخارج البلاد، تحويل الحياة إلى رحلة شاقة، تفتقد
مظاهر الجمال والمتعة، إلا فيما اقتنص اقتناصاً،
وفرضته الوقائع على خشبة مسرح مُخرجه جاهل،
فاسد، نفعي، هذا بغض النظر عما يدور في ردهات
الحياة الخلفية لما وراء الكواليس والأضواء!

لذا، أود القول بأن هذه ليست سردية عن الظلم،
بل في كيفية مواجهته، والقدرة على البقاء مرفوع
الرأس، خاصة عندما نعي أن الحياة ليست مصممة
من أجل الراحة، وإنما من أجل وضعنا دائماً موضع
الاختبار!

* * * *

منهج الحكاية:

تلمّستُ عالم كتابة الرواية في مدينة بنغازي في ليبيا في النصف الثاني من عام 1975، وكان النشر الأول في القاهرة عام 1980، ولكن بسبب أن الزمن لعب دوراً رئيساً في علاقتي مع هذا الفن النبيل، وأن كل مرحلة من مراحل الحياة بدأت من عالم الطفولة المبكر وحتى اللحظة الراهنة، كان لها تأثير يصعب تجاهله، ما يجعلني أأخذ منحى آخر.

رأيت أن أتناول الحكاية مُقسّمة إلى العقود الزمنية التي عشتها، بدءاً من خمسينيات القرن الماضي وحتى العقد الثالث من القرن الواحد والعشرين، عقداً تلو عقد.

قسّمتُ السردية إلى كتابين يضمنان سبعة أجزاء:
الكتاب الأول: من خمسينيات القرن الماضي وحتى نهايته،
ويضم أربعة أجزاء:

الجزء الأول: خمسينيات وستينات القرن العشرين.

الجزء الثاني: سبعينيات القرن العشرين.

الجزء الثالث: ثمانينيات القرن العشرين.

الجزء الرابع: تسعينيات القرن العشرين.

الكتاب الثاني: ويضم الثلاثة عقود الأولى من القرن الواحد والعشرين:

الجزء الخامس: العقد الأول من القرن الواحد والعشرين.

الجزء السادس: العقد الثاني من القرن الواحد والعشرين.

الجزء السابع: العقد الثالث من القرن الواحد والعشرين.

أتمنى قراءة ممتعة.

فتحي إمبابي

25 ديسمبر 2025

* * * *

الكتاب الأول

من خمسينيات القرن العشرين

إلى نهاية العقد الأول من القرن الواحد والعشرين
الجزء الأول: خمسينيات وستينات القرن
العشرين.
الجزء الثاني: سبعينيات القرن العشرين.
الجزء الثالث: ثمانينيات القرن العشرين.
الجزء الرابع: تسعينيات القرن العشرين.

هي تراجميا مأساوية، وقصة ابتلاء!

مزيج فائن من المكابدة والعناء والألم... والوعي والمعرفة والمتعة.

الجزء الأول
سنوات الطفولة والصبا
خمسنيات وستينيات القرن الماضي

الفصل الأول

السيد (ظلم) ونديمته السيدة (الم)

(1 / 1)

بدايات مبكرة

ولدتُ في القاهرة بحي الجمالية، وسرعان ما غادرناها بلا ذكريات وعمري سنتان، وانتقلنا إلى حي أرض شريف بشبرا، وكان يتميز بالهدوء والرقى، كان أبي يصحبنا إلى سينما التحرير الصيفيّة ولا يقبل بأن نشاهد الأفلام من درجة الصالّة، وإنما من "البلكون" وإلاّ العودة إلى المنزل، وكان لأبي وأمي علاقات أسريّة وطيدة بأهالي الحي، أذكر العمّة زينات، وابنيها أمين وممدوح، والعمّة إيلين، وزوجها العم رشدي، وكانوا من أقرب الناس إلى أبي وأمي، والعم المداوي من "كمشوش"، والعمّة لواحظ من "كفر صقر"... كنا نذهب يوم الجمعة من كل أسبوع، حيث تجتمع الأسر والعائلات لقضاء يوم العطلة في المنتزه الذي أُقيم حديثاً على النيل في نهاية شارع شبرا، يلعب الرجال كرة القدم، والنساء كرة المضرب والطائرة، ونجلس جميعاً لتناول الغداء.

أذكر يوم أصيب عمي بليغ، وهو أصغر أعمامي،
بالكرة في عينيه بقوة، وكيف انحنت عليه امرأة
عمي "نعيمته"، وأخذته في صدرها تنفخ في العين
المصابة بحنان وحب، وهو مستسلم، مثل طفل
لعشقه، جميعهم ظلت علاقتنا وثيقة بهم حتى بعد
وفاة أبي!

تولّى أبي باهتمام صارم متابعة فروضي المدرسية
طوال السنوات الأربع الأولى من دراستي في المرحلة
الابتدائية والتي سبقت رحيله عن الحياة، وكنت
أجأ إلى الهرب منه بادعاء النوم، ونادرًا ما كنت أفلج.

عام 55:

وهناك جميلة ثالثة، وهي خالتي فاطمة، وزوجها
صاحب الذوق الرفيع والمتمسك بصرامة الحياة؛
الخال أحمد علام، بسلاح الطيران، يقيم في حي
مصر الجديدة، في أطراف ميدان تريومف، حيث
الهدوء المطلق، وأبنيت الكنائس ذات الواجهات
المعمارية الرائعة، وحيث يطيب لنا أن نستأجر

الدراجات، ونطلق في الطرقات بحرية وطمأنينة لا يشوبها الخوف.

حرب 56:

النوافذ مطلية باللون الأزرق، وأزيز الطائرات المعادية وصوت طلقات المدافع المضادة للطائرات تطاردها في السماء، والجميلة أُمي تأخذني بينطالي القصير وقميص نصف كم، بانتظام إلى مستوصف كائن في شارع مسرّة، لأخذ حقن اللقاح... ضد ماذا؟ ضد أي مرض؟... لا أذكر، وإنما أذكر أنها كانت تنظر إليّ بفخر، إذ كنتُ وبعد كل حقنة لا أبكي، ولا تنهمر مني الدموع، ولكنني خذلتها في المرة الأخيرة، فقد بكيت، آه أيتها الجميلة! كم أحبك، كم أنا مشتاق إليك!

أبي والحرب الدائرة على خط القنال:

كنا نتناول طعام الغداء على مائدة السفرة الضخمة، والأناشيد الوطنية الحماسية تنبعث من المذياع الكهربائي ذي العين البلورية بلون الفيروز، والحديث يدور حول التدريب على حمل السلاح، والتطوع في صفوف المقاومة الشعبية التي تقاوم

العدو في بورسعيد والسويس، عَن لي أن أسأل أبي متى ينوي التطوع للقتال، وإذا ما كان يرغب في حمل السلاح!... كان وجهه مُتجهماً، فزاد تجهُّماً، وأجاب بصوت بارد أنه لن يفعل! مثل ذلك، بالنسبة لي كانت إجابة قاسية، ولم يكن هناك مجال لمعرفة مبرراته، ورحل أبي دون أن أسأله، أو أعرف الإجابة، وحتى الآن لا يزال السؤال عالقاً برأسي؛ لماذا رفض أبي المشاركة في التدريب على حمل السلاح!؟

* * * *

في الثامنة من عمري، انقلبت حياتنا رأساً على عقب، عندما داهمتنا كالصاعقة وفاة والدي المبكرة، أعقبه انتقالنا الدرامي من حياتنا المستقرة في المدينة، إلى قريتنا الواقعة جنوب الدلتا، مما كان له أثر بالغ على مجمل حياتي الخاصة والعامة.

بعد فترة من الحياة في الدوّار الضخم لأعمامي الأثرياء، والذي كان مكتظاً بأبناء وبنات العمومة، فضلاً عن المزارعين والخدم، والملحق به حظيرة

ضخمة تطل على (النشع⁽²⁾) وأشجار السنط وخيرات الله الكثيرة، كان لدى الجميلة أمة رغبة في حياة مستقلة لنا ولبناتها على الأخص، وكان لدى جدي لأبي (الذي توفاه الله ولم يسبق لي رؤيته)، وكان قبل وفاته يتولى شياخة الناحية)، داران كبيرتان، كلتاهما في ناحية "العلامية"، اجتمع الإخوة السبعة، والجميلة الثانية عمتي لبيبة، التي كان لها ولرأيها شأن يستمع له الجميع، وتباحثوا في الأمر، وكانت النتيجة تخلي ثلاثة من أعمامي عن ميراثهم في الدارين، وتقسيمهما بين الأربعة من البقية المقيمين في القاهرة، بينما كانت إحدى الدارين تكاد تكون مهذمة، اختص نصيبنا بالدار التي كانت أكثر ملاءمة للحياة، مناصفة مع عمي عبد العز، مع إضافة ميزة تخلصنا، بسبب تخلي عمتي لبيبة عن ميراثها لنا نحن، والسبب واضح، أن أعمامي المقيمين في القاهرة لم يكونوا في حاجة ماسة إلى تلك الدور .

(2) النشع: مستنقع يفيض بالمياه والبعوض في أثناء فيضان الصيف، ويجف في الشتاء.

ضم نصيبنا "بئر السلم" ودورة المياه، وقاعة شتوية بها فرن لخبيز أنواع العيش؛ "القمح" و"القلط" و"البتاؤ"، وكعك العيد، وقرص الخروج إلى القرافة (المقابر)، لتوزيعها رحمةً على أرواح الراحلين، وتدميس الفول، وطواجن الأرز المعمر، والبامية المعتقة، والتدفئة في أثناء برد الشتاء القارص، والأهم.. قام "المعلم قسطندي" صديق العائلة وصاحب ماكينة الطحين بدقّ طلمبة للمياه الجوفية في نصيبنا، في زمن لم تتوافر في القرى لا شبكات مياه، ولا صرف، ولا كهرباء، كان الريف بكرًا، على طبيعته التي كان عليها منذ مئات السنين!

جری ذلك عن مسؤولية ومحبة، ولم أشهد طيلة حياتهم المديدة أن نزاعًا ما نشب لأي سبب بين الإخوة الأثقاء!

انتقلنا إلى الإقامة في النصيب الذي ورثناه من دار جدي لأبي، واستقرينا بها، وكانت كبيرة واسعة الأرجاء، لها باب عملاق، واجهه بحريه يهب عليها النسيم العليل صيفًا وشتاءً، كانت فسيحة ضخمة، تضم "مندرّتين" مبنيتين من الطوب الأحمر، وجدرانها مغطاة بالملاط، وقاعة مبنية بالطوب اللبن بها فرن

للخبيز، وكان صحن الدار كبيراً واسعاً يتسع للمعب كرة الطائرة، بينما في الجانب القبلي من الدار امتد مبنى كبير من الطوب اللبن، ينقسم الى ثلاثة أجزاء؛ الأكبر حظيرة مواشي متهدّمة، في المنتصف مطبخ به عدد من "الكوانين" التي يتم الطهي عليها باستخدام أعواد الحطب أو عيدان القطن، والثالث (مَدَابَن) لم يُستخدم قط.

ورغم ذلك، أستطيع أن أجزم بأن الشعور بالظلم البين الذي لعبه القدر في حياتي، ظل ملتصقاً بي طوال العمر، وكأنه لعنة حلّت بي قبل مولدي، وإن كان بأشكال وأنواع وأنماط متعددة، حتى بدا وكأن القدر قد هيأ لي عقداً مفتوح الأجل مع السيد (ظلم)، ونديمته الفاتنة السيدة (ألم)!

فهل يمكن للقدر أن يظلم إنساناً ما؟! ربما... ولعلني أستطيع الاعتراف أن للسيد (ظلم) ونديمته السيدة (ألم) فضلاً يصعب إنكاره، فيما جعل مني مُحباً للفنون؛ للشعر، للموسيقى، عاشقاً لفن الرواية والسينما، ومن ثم روائياً، ومن قبل مهندساً ومثقفاً يساريًا شغوفاً بالمعرفة، باحثاً عن الحقيقة، عاشقاً للحريّة والعدالة والكرامة والوطن.

* * * *

(2/ 1)

عوامل بدائية

على حين غرة، ألقى القدر بعائلتنا الصغيرة أسرى ذلك الحجّاب المظلم الناجم عن التناقض العصيب لأسرة "مدينيّة" لا تعرف الزراعة، ولا تربية البهائم وليس لديها حظيرة تغص بالجاموس والبقر، ولا قواديس تفيض باللبن الطازج أو قدور تمتلئ بالسمن وحصائر تكتظ بالجبنة القريش، وليس لدينا قن لتربية الدواجن، نجمع منه البيض، ولا صوامع تفيض بالغلّال، ولا سقف ينوء بكيزان الذرة وحزم الحطب، في وقت كانت الحياة الاقتصادية وأسلوب الشراء والبيع السائد، والتعاملات المادية في الأسواق تعتمد على تبادل السلع، وليس النقود. ورغم أن أبي كان يمتلك فدانين ورُبعا من الأراضي الزراعية الخصبة، فلم يكن لدينا أي قدرة على زراعتها بأنفسنا، وخاصة أن الجميلة أمي قاهرية المولد بامتياز.

في دار جدي الرحبة، استقبلتنا قبائل البراغيث وجحافل الناموس، وغيرها من مصاصي الدماء،

وانقضت على أجسادنا الناعمة الطرية تمتص
دماءنا بتلذذ وسادية لا تعرف الشفقة، وبين حين
وأخر كان يطل من بين عروق السقف الخشبي ثعبان
مارق، أو برص متشبث بموقعه على الجدران، وهو
ينظر إلينا بغضب، يتساءل؛ من أنتم؟ ومن أين جئتم؟
أو سحلية تتخج من بين شقوق الطوب وجميعها لا
تلقى بالألبكاء صبية وصبايا من الرعب لأطفال
عائلة قاهرية، ألقاها القدر دونما اختيار، ودموع لا
تتوقف عن الانهمار، إذ كيف يمكن لنا التعامل مع
هذه الأوضاع القاسية!

* * * *

(3 / 1)

أسئلة وجودية... سماوات مفتوحة

إبان الطفولة المبكرة، وفي تلك الكوة المظلمة من
الأسئلة المؤلمة المعقدة التي لن تجد لها إجابات سهلة،
أينعت سماوات وترع وبسط من سندس أخضر
لحقول القمح والقطن والبرسيم وأنواع الخضراوات،
وعرائش العنب المزهرة، وبساتين الموالح وجناين
الموز والجوافة، تفيض بها القرية جمالاً وامتعة، تمتد
في عيون طفل "مديني" لتلتقي بأفق سماوي. ينبع من

بحار ومحيطات خاض غمارها (كابتن آهاب) بطل
رواية (موبي ديك).

وسط المنغصات المتعلقة بتباين الحياة المادية
والسلوكية بين عالمي المدينة والريف، وبيئة
القرية المنعمة بحياة تفيض بطبيعة خلّابة، وزمن
يمر ببطء وعلى مهل، وتلك الأسئلة الوجودية
المتعلقة باليتم، جميعها كانت حزمة من العوامل التي
كانت دافعاً إلى الانغماس المبكر في القراءة على
المصطبة العريضة الواقعة على الواجهة البحرية
لدار، وفوق سطحها، حيث الفضاء المشبع بالعطر،
جسور الترع، ورؤوس الحقول، وأمام القُفّ التي
تحمل داخلها العيش البتّاء، وصحون "المش"
والجن الحادق بدوده، وأكواب الشاي ذي المذاق
المُرّ كالعلقم، وسط خوار الجاموس ونهيق الحمير،
ونعي السواقي، قصة الفلاح الفصيح، والقراءة
الليلية على أضواء مصابيح الجاز، والسهر بالنظر إلى
سماوات تُغطّي ربوع العالم وصحراء صفراء من
كُثبان الرمال، وأخرى بيضاء جليدية، وأنهار ووديان
خضراء يعيش على ضفافها أقوام وبشر ينتمون
لثقافات وحضارات شتى، وشموس تُشرق على عالم

من جمال الطبيعة والوجود الإنساني المطلق... هكذا
كانت طفولتي!

كنتُ قادمًا من زمن مُكلَّل بالظلم الشديد، كنتُ
أشعر بأن السيد (ظلم) وخيلته السيدة (ألم)، قد
أحالا حياتي إلى جحيم، من قلة الإمكانيات والوحدة،
كانت أُمي تفعل المستحيل من أجلنا، كانت سيدة
عظيمة بكل المقاييس، وكانت العائلة؛ نساؤها،
رجالها وبناتها ينظرون إليها باحترام وإكبار شديدين
وتقدير بالغ إلى حد القداسة.

في تلك الفترة، كان تفوّقي الدراسي الحاسم والذي
كان الفضل الأول فيه لأبي، وكذلك البنية
العصامية للعائلة التي أنتمي إليها،
ومشاركتي (كطفل قادم من المدينة) في شتى
مجالات الأنشطة المدرسية، من قيادة طابور الصباح
المدرسي، المشاركة تحت إشراف المدرس مرقص،
والزميلة ماجدة في تزيين جدران المدرسة بصور
زعماء مصر الوطنيين بدءًا من أحمد عرابي
ومصطفى كامل، ولم أفهم لماذا تجاهلنا سعد
زغلول؟!... وقيادة طوابير احتفالات الأعياد الوطنية،
ومنها عيد النصر، تلف طرقات القرية، وغناء

الأناشيد الوطنية، وبطولة المسرحيات المدرسية،
والمسؤولية التي أوكلت لي عن إدارة مكاتب جميع
فصول المدرسة، ومن ثم تقدير كبار وجهاء القرية
الخاص لي.

* * * *

(4 / 1)

الصمود والصلابة

تفوقى الدراسي

وتقديرًا للسيد ظلم (معلمي الأول) ينبغي الاعتراف أنه لولا تفوقى الدراسي الذي صاحبنى منذ الطفولة، لولا الحب الغامر والتقدير الجارف الذي أحاطني به عماتي وخالاتي وجميع رجال ونساء عائلتي وأهل قريتي، والذي لم يعد متوافرًا لأبنائنا من الأجيال التالية، لما تمكنت من الصمود!

الطبيعة العصامية للعائلة

من الصعب تجاهل العمود الصلب الذي استندت عليه لعبور زمن الطفولة المضطرب، كان جدي لأبي؛ شيخ الناحية.. ورث المنصب وأورثه لإخوته، ورث أبناؤه عنه دارين وثمانية عشر قيراطاً لكل واحد منهم، وكانوا سبعة أبناء وبنتين، للعائلة طابع عصامي، كان للغالبية رغبة في الهجرة إلى القاهرة والاستقرار بها، وأنشؤوا أعمالاً تجارية، أو شغلوا مناصب حكومية أو بالقطاع الخاص... الذين بقوا

في القرية كانوا يتاجرون في البهائم والغلال، ويهتمون بشراء الأراضي الزراعية والأطيان، كانوا صورة نموذجية لشخصية العصامي الناجح، وكانوا يجتنبون الخوض في المشاكل، وعلى رأسها السياسة، وقد عرض على أحدهم المشيخة فرفض، من قبيل الابتعاد عن التورط فيما لا ينبغي التورط فيه، وكان أقرب أصدقائهم ونديم كوب الشاي (المعلم قسطندي، صاحب ماكينة الطحين بالقرية)... وعندما استقرت في القرية بسبب موت أبي، كان بعض أعمامي من كبار أثريائها، والذين انتقلوا إلى القاهرة، ومنهم أبي، وكان بعضهم من الملاك، والبعض من صغار البرجوازيين والطبقة المتوسطة، لقد شربت تلك السمات العصامية للعائلة، وكان هذا دافعاً آخر للصمود!

الجميلة العظيمة أمي

لأمي جمال يضاهاى الفنانة مديحة يسري، وفي بهاء ليلي مراد، قبل وفاة أبي لم تكن ترتدي حجاباً، كانت سافرة، تعيش حياة عصرية. وهي لم تفعل إلا بعد زيارتها لبيت الله الحرام.

لولا العزيمة والإصرار اللذان تحلّت بهما أمي في الدفاع عن انتماء أسرتنا الصغيرة للمدينة، وفعل المستحيل كي تعود بنا إلى بيئتنا التي شهدت ميلادنا، التي رأينا فيها أشعة شمس الحياة الأولى، أو القرارات المتعلقة بمجانية التعليم، وفتح المزيد من المدارس على امتداد الوطن، واجتماع أهالي القرية على جمع الأموال لبناء أول وثاني وثالث فصل كانت الأساس لأول مدرسة إعدادية مشتركة بالقرية، لولا هذا فلا يستطيع المرء التنبؤ بأي شكل كانت ستكون عليه النهايات، ربما مكسيم جوركي آخر! لا أظن، هذه مجرد مزحة.

* * * *

(5 / 1)

إجازات صيفية لا تُنسى

أذكر ولا يمكن لي أن أنسى رحلاتي إلى القاهرة
إبان الإجازات الصيفية، كنت في التاسعة من عمري،
لا أنسى كيف كانت أُمِّي تعد لي حقيبة السفر، وأنا
في طريقي وحيداً إلى القاهرة، لا أنسى مشهد
محطة قطار "كمشوش" بطابعها الإنجليزي
الكلاسيكي القديم، وأنا أنتظر القطار البخاري
الذي يأتي دومًا في مواعده دون تأخير، عندما أصل إلى
محطة مصر في ميدان باب الحديد كان عليّ التوجُّه
إلى حي الدقي، حيث يقيم عمي عبد الحكيم، لقضاء
إجازة ممتعة مع أبناء العم؛ محيي، وفائي، وليد، عزة،
آمال، كنت أقضي معهم وقتًا رائعًا! وكانت عمتي
فاطمة، وهي ابنة عم أبي تستقبلني بمحبة غامرة،
بوجهها البشوش الضاحك، لا أنسى كيف كانت
تأخذنا لنمضي سهراتنا في الحديقة المواجهة
للمتحف الزراعي بحي الدقي، وهي تحمل في جعبتها
عشاء يفيض بعشرات الساندوتشات من الجبنة
البيضاء والرومي، واللحوم الباردة، وكان ثلاثتنا؛ أنا

ومحيي ووفائي نمضي الوقت لاهين عن كل شيء،
كان محيي منذ طفولته "جان" و"دون جوان" العائلة،
تعشقه الفتيات دون تردد، بينما وفائي الأذكي،
المتفوق دراسياً، الفتى شديد الشقاوة في العائلة،
كان لديه طاقة هائلة.. يا الله على هذا الجمال! ويا
الله على تلك الحكايات الصغيرة التي مررت بها في
منزل عمي في حي الدقي!

أول قُبلة على غرار عبد الحليم حافظ وعمر الشريف

تحت ظلال شجرة الجميز العملاقة الواقعة قرب
مدخل المتحف الزراعي بالدقي، وقد خيم المساء على
الأنحاء، وقف ثلاثتنا وأمامنا الأختان، لا أذكر مَنْ
الذي اقترح أن نتبادل معهما القُبلة، ومن الذي بدأ
القُبلة الأولى؛ من السهل التخمين، والمؤكد أنني كنت
الأخير... هل أعطاني هذا فسحة من التجهيز؟ نعم،
فبعد أن انتهى إخوتي أو أبناء العم من دورهم، كنت
قد استعدت في مخيلتي الطريقة التي يتبادل بها
نجوم السينما قُبلاتهم الحارة، أمسكت بالفتاة من
خاصرتها وضممتها برفق، ومن ثم كانت القُبلات
الأولى؛ ناعمة، حارة، لا تُنسى.

في تلك الفترات كنت أقتطع من الإجازة زمنًا لقضاء وقت في منزل جدي عند خالي جابر، وعمي بليغ في منزله في حي بركة الرطل، تلك كانت من أجمل أيام الطفولة.

* * * *

(6 / 1)

حوريات من ألف ليلة وليلة!

أذكر ولا أنسى من ذاكرة طفل لحظات السعادة ظهيرة ذاك اليوم من أيام الشتاء الدافئة، بعد انتهاء اليوم الدراسي وفي أثناء خروجي عائداً إلى دارنا الجديدة، وكنت أسير بجوار الترعَة البحرية، وقبل خطوات من التقاطع الذي أُقيمت عنده قنطرة العبور إلى ناحية "المخالفة" و"العَلَامِيَّة"، على الجانب الغربي من الطريق كان ينتصب دوار شاهق يحيط به الخموض، ذو أسوار عالية من الطوب اللبني، وبوابة كبيرة، كان الدوار لعائلة الشقنقيري، وقبل خطوات قليلة من بلوغ القنطرة فتحت فجأة البوابة الضخمة وبزغ منها ثلاث حوريات شقراوات وربما أربع، من أساطير الشرق وليالي ألف ليلة وليلة، يرتدين أثواباً من الحرير الفضفاض، استوقنني لسؤالي عن أسباب عدم إعطاء أختهن الصغرى

(إلهام)، والطالبة في الصف الخامس والمسؤولة عن مكتبة فصلها الدراسي، ما يخصها من الكتب الموجودة في عهدي، وقفت مشلولاً أناجي إله السماء... يا الله! إن ما تروييه الكتب من أساطير هو موجود فعلاً على الأرض، هنا في قرية سدود جنوب الدلتا... لم أنبس ببنت شفة، كنت مشدوهاً بهذا الجمال! بصعوبة قلتُ إنني سوف أفعل، ومن ذلك يملك إلا أن يفعل!!

ومن لحظات البهجة، في أثناء عودتي من المدرسة الواقعة في الناحية البحرية، إلى دارنا الجديدة في "العلمية"، ومروري أمام دوار العمدة لعائلة "العيادية"، دعاني ذلك الوجه البشوش الضاحك، صاحب العينين النافذتين؛ الحاج أعلى عياد شيخ بلد الناحية البحرية وعمدة القرية بالإنابة، كي يطلب مني إنشاد إحدى الأغاني الوطنية، كان يستمع سعيداً، وكان هذا تمهيداً لمنحي "قرش صاغ"، وربما "تعريفة"؛ تقديراً لموهبتي، ليس في الغناء، وإنما في كل شيء!

* * * *

(7 / 1)

خطأ لم يتكرر

ذكرتُ سابقاً أن الحياة في الريف كانت تعتمد على التبادل السلعي، وكنت طفلاً يشتهي أن يشارك أقرانه تناول وجبة من السردين على الغداء، صعدت سطح دار أعمامي، وأخذت كوزاً من الذرة، وتوجّهت إلى حانوت عبد الفتاح شعلان، بالناحية البحرية، واستبدلته بعدد من سمك السردين.

في طريق العودة لا أنسى نظرات الاستنكار من ابنة العم، وكانت تكبرني بعام، تخترقني كشفرات سكين حادة. هنا فقط عرفت أنني ارتكبت خطأ جسيماً، وأني أخذت ما ليس لي!

لا أعلم إذا ما كانت ابنة العم قد وشت بي، أم لم تفعل! لكن أحداً لم يفاتحني في الأمر بأي صورة من الصور، كما أنني أيضاً لم أفعله مرة ثانية، فقد كفتني نظراتها شر العقاب، ومعرفة الصواب.

* * * *

الفصل الثاني

القراءة.. الطريق الذهبي إلى محراب الكتابة

{كي تكتب ينبغي أن تكون شغوفًا ونهمًا للقراءة}

(1 / 2)

عولم بلا حدود

القراءة والشغف والاستغراق في الفضاء والبحار والمحيطات والغابات والمروج والحقول والتلال والجبال.. كل ذلك هو المدخل الضروري الذي لا غنى عنه لدخول عالم الكتابة، وغير ذلك يضعنا في عالم آخر، يتعلق بحكمة وفصاحة الشفاهية لدى القليل من عامة الناس والبسطاء.

القراءة هي المدخل الرئيس الأساسي والضروري كي يمتلك غلام أو مراهق القدرة على اكتشاف ما لديه من موهبة تُمكنه من أن يصير كاتباً مميزاً، وهكذا شرعتُ في القراءة منذ سنوات طفولتي الأولى، البدايات كانت مع مجلات "سمير" و"ميكى" و"السندباد"، وجميعها كانت تفيض بروعة المغامرة، وتفتح آفاق الخيال. بعد وفاة والدي وانتقالنا للحياة في الريف توقّف هذا النبع من الجمال وتغذية مخيلتي الطفولة المبكرة، لتحل أنواع أخرى من عولم القراءة.

* * * *

2 / 2)

بقايا من أبي!

أذكر أن أمي قد احتفظت بصندوق متوسط الحجم، يضم مجلدًا ضخماً يحتوي الأعداد السنوية لإحدى المجلات، لا أتذكر اسم المجلة، ربما "الرياضي"، كان المجلد يضم أعداداً كثيرة وقد عكفت على قراءة الموضوعات التي تتناثر داخل صفحاتها، وبالطبع كان اهتمامي ينصب بصورة فطرية على القصص القصيرة، والتي أعتقد أن كثيراً منها كان يخص واحداً من أهم رواد القصة القصيرة؛ "محمد كامل حسن المحامي"، وكان ثمة صور تصحب القصص، أذكر منها صورة لفلأحة شابة جميلة ترتدي وشاحاً خفيفاً.

* * * *

أساطير من الشرق!

احتوى الصندوق على كنز ثمين للغاية، وهو مجلد من القطع الكبير صادر عن دار الشعب، وعنوانه: "أساطير من الشرق"، عكفت على القراءة بنهم، وكانت تروي قصص الخلق في مصر القديمة، وبلاد الرافدين، وفارس، والهند، والصين، واليابان،

وعلاقتة الإنسان الأول بالآلهة والطبيعة، ومكائد النساء.. وأذكر في أسطورة ما، أن آلهة اليابان كي ثفر²²ق بين الذكر والأنثى، أخذت قطعة من جسد الأنثى وأضافتها للذكر، يصير (قضيبيًا) عليه أن يعيده لموضعها، وكان هذا من العجائب. فتحت تلك الأساطير نافذة من المعرفة عن علاقتة الإنسان الأول بالموت والوجود، الآلهة وطبائعهم الخرابية، المعنى العميق للفضيلة والشرف، والقيم المتعلقة بالخير والشرف.. بعد ذلك بسنوات، قرأت وبشغف عن نفس الدار، كتابها الثاني "أساطير من الغرب".

* * * *

(3 / 2)

القراءة في قرية جنوب الدلتا

في قريتنا الواقعة جنوب دلتا نهر النيل، كان هناك شخصية مميزة تكبرني في العمر، كان صديقاً حميماً لأبناء العمومة، يقيم في الناحية البحرية، يُدعى "جابر محمد"، ينتمي إلى عائلة تعمل في تجارة الغلال، كان مداوماً على شراء عدد من السلاسل الخاصة بالرواية، ومنها سلسلة روايات -على ما تسعفني به الذاكرة- أرسين لوبين- اللص الظريف وسجائره المصرية، وسلسلة روايات المحقق شرلوك هولمز وقدرته الفذة على حل كافة الجرائم والتنكر والتخفي، وروايات أجاثا كريستي البوليسية، فضلاً عن سلسلة "كتابي" لحلمي مراد، وكانت تلك السلاسل تنزل القرية من مدينة منوف كل يوم سبت، فضلاً عن أهرام الجمعة الأسبوعي، مع العم حسن بائع الجرائد، وكان أسمر البشرة، طويل القامة، ينزل القرية على دراجته، وخلفه (خُرج) يضم الجرائد والمجلات وسلاسل القصص

والروايات، وكنت أتابع مندهشًا ساقية الرفيعة الصلبتين كقضبان الحديد، أتساءل عن قدرته على حمل هذا القدر الهائل من الجرائد والكتب، والتي يجوب بها القرى التابعة لمركز منوف! وكان هناك على ما أعتقد شخصان آخران يهتمان بشراء تلك السلاسل، ثم كان هناك مصدر آخر، أظن أنه من أطلّ بي على عالم الرواية، وهو سلسلة روايات عالمية، التي تابعتها مع مطلع ستينيات القرن الماضي، وكانت تُباع بثلاثة قروش، وأذكر منها عددًا من الروايات الفاتنة، والتي كانت خليطًا من عالم إنساني؛ المغامرات والبطولة، مثل الرواية الأشهر "الكونت دي مونت كريستو"، و"الذئب"، و"الفرسان الثلاثة"، وغيرها الكثير والكثير، ولا أنسى أحد تلك الأحداث التي تركت لديّ دهشة عارمة، وهو لأحد المحققين السريين الذين يعملون في حل الجرائم، التقى فتاتين أختين وكانتا "تؤءمًا"، ولم يكن يستطيع التفرقة بينهما لفرط تشابههما، إلا عندما مارس الجنس معهما وهو يعتقد أنهما نفس الفتاة، حيث تبين له أن لإحدهما (شامة) على الفخذ، وأذكر أنه في أثناء تلك الأيام، قرأت رواية "ثمن الحرية" لأحمد علي باكثير، وكانت من الحجم الكبير، وكان ثمت

رهان بين أبناء العمومة حول نهمي الشديد للقراءة،
وأني سوف أمضي الليل، ولن أنام إلا بعد أن أنتهي
من قراءتها، وقد فعلتُ.

والشعر أيضاً

كان للشعر حظٌ كبير في قراءات الطفولة، وإن لم
يكن بعمق وحجم قراءاتي اللاحقة، أذكر أن مُعلّمي
اللغة العربية في المرحلة الإعدادية كان يطيب لهم
دعوتي إلى قراءة الشعر أمام الطلاب، في ذلك الوقت
كان الطالب "حسن البقلي" صاحب صوت جهوري
ينافسني في قراءة الشعر، وقد استعرت اسمه في
رواية "نهر السماء" ليمثل شخصية "تاجر منوف
الكبير"، الذي تزوّج من "بدرية" التي كانت تخطط
للزواج من أبيها الشيخ السنهوري (دون أن تعلم أنها
ابنته من السفاح)!

وأساطير وحكايات ليلية!

شخصيتان تركتا أثراً عميقاً في طفولتي، وأنا في
التاسعة والعاشرة من العمر، وكان الملمح الذي أشعر
به الآن، ربما أن كليهما شعرا بفطرتهما بما حلّ بي

من قِبَل السيد (ظلم)، ونديمته السيدة (ألم)، وبما أوقعه القدر بحياة أسرتنا من تغيرات لا طاقة لنا بها، لا أعرف! وكيف لي أن أعرف؟! لماذا تخيرتنا قصصًا وحكايات استوطنت وجداني طوال السنين، وتركت شعورًا بأن هناك بقعة من الضوء تبرز في كهف الظلمة، فسحت من الأمل تنير الطريق إلى مستقبل مجهول، هاتان الشخصيتان هما: الجدة مبروكتة، أخت جدي (عالم) وهو جدي لأمي، وكانت متزوجة في عائلة "الخطايبة"، وكان يحلو لها أن تروي لي قصصًا عن أشخاص أسطوريين وقفوا في مواجهة القدر، وأن هناك في هذا العالم من يدافع عن جمال الحياة!

في إحدى ليالي الشتاء القارص، وعلى ظهر قنطرة فرن بقاعة خلفية أغلقت رزانتها العلوية بقرص (جلت)، كي تحتفظ بالحرارة المنبعثة من فرن لم تخب نيرانه بعد، وكانت النسوة قد انتهين لتوهن من تسويه الخبز، وطواجن الأرز وقدور الفول المدمس، روت الجدة العجوز حكاية لا أستطيع نسيانها، وهو أن أمير أولياء الله الصالحين والقطب الغوث سيدي إبراهيم الدسوقي بعدما اخترق صاعدًا السماوات العُلا السبعة، وهبط إلى طبقات الأرض السفلى،

وشاهد العُصاة من بني البشر يتلَوون من العذاب في
سعير الجحيم، أصابته حالة من الشفقة على أولئك
الذين يعانون العذاب في دورة لا نهائية من الزمان،
رفع رأسه بخشوع نحو السماء مناجياً ربه، وقال:
"يا رب، إنك أنت الغفور الرحيم، وسعت رحمتك
الكون بأجمعه"، ومدَّ يده فأطاح بميزان العدل، وقام
بوضع يده في الجحيم، فتحول إلى صحراء ثلجية،
فعل ذلك رأفةً بالذين أوقع بهم الله عقابه.

علقت حكاية الولي الذي وضع يده في نار جهنم
فحوّلها إلى ثلج بارد في ذهني سنوات طويلة، كانت
رواية أسطورية مبهرة ومثيرة للخيال، لقد بدا لي أن
حكاية الجدة مبروكة عمّا فعله سيدي إبراهيم
الدسوقي تتجاوز في فتنها وأخلاقياتها ما جاء في
ميثولوجيا الأساطير اليونانية عن مغامرات هرقل في
العالم السفلي، فبينما كانت مهمة "هرقل" إنقاذ
زوجته "ديانيرا" من الموت بعد تعرضها للتسمم،
ورؤية مأساتها قبل أن يعقد صفقة مع "هاديس" إله
العالم السفلي وعالم الموتى، لإعادتها إلى عالم الأحياء،
كان سيدي إبراهيم الدسوقي يؤسس لقيمة
الغفران والرحمة لبشر تُعساء تعذبوا بما فيه
الكفاية!

روت الجدة أسطورتها دونما أن تطلع على كتاب أساطير من الغرب ولا الشرق، وجُهِها المجد وبشرتها المتغضنة التي حرقته السنوات تقول إنها لم تقرأ كتاباً، وربما (والله أعلم) اكتفت بحفظ القرآن الكريم، أو آيات بيّنات منه، فمن أين استمدت أسطورتها؟ حسناً، من الثقافة الشعبية وحكمة القدماء في التعامل مع تاريخ البؤس الإنساني لجماعة الفلاحين المصريين.

سؤال ظل يراودني وبقي حبيس الذهن دون أن يخرج إلى العلن؛ إذ كيف لفالأحة ما تحفظ عن شيخ ما -بغض النظر عن كونه ينتمي لعشائر أولياء الله الصالحين أو كيفما كان- أن يقف أمام "الجلالة"، ويطيح بميزان العدالة الإلهية ويستبدله بالشفقة والرحمة والمغفرة، ويحيل الجحيم إلى ثلج؛ رأفتاً بالعصاة والمخطئين، ممن يتلؤون في السعير! لم أفكر في البحث عن إجابة لهذا السؤال الميتافيزيقي، إذ إنه كان يسحرني أن شخصاً ما في زمن ما وقف بشجاعة نادرة في مواجهة القدر.

الشخصية الثانية كانت للخال "محمد أبو خطاب"، وهو رجل أُمي، لا يعرف القراءة

والكتابة، كان يأتي لزيارتنا هو والسيدة زوجته التي كانت على درجة ما من التعليم، وبينما تثرثر النساء ، كنا نأخذ رُكنًا قريبًا من الجلوس، نصنع الشاي فوق الموقد الفخاري، حيث يشرع دونما ملل في حكاياته المأخوذة من ألف ليلة وليلة، وكان يحفظها عن ظهر قلب، أو هكذا كنت أظن.. عن الصبي الذي طردته زوجته أبيه إلى العراء وأخذه الساحر الشرير إلى جُب عميق كي يحضر له المصباح السحري، وهو ينوي أن يتركه داخل البئر بعد أن يحصل على بغيته، لكن الغلام فطن إلى الخدعة، وتحولت الأحوال وتغيرت، إذ أصبح يمتلك الدنيا وما عليها، ولا شك أنه في النهاية تزوج من الأميرة الجميلة ابنة السلطان.

ومن حكاياته؛ الصبي ابن الصياد، الذي وشت به زوجته أبيه، فطرده من الدار إلى العراء، وبينما كان يصطاد علقت بسنارته سمكة جميلة، طلبت منه أن يتركها ويعيدها إلى أطفالها، ورغم جوعه فعل، فعادت وأهدته خاتمًا من الزمرد، وحمورية من البحر.

لكن الحكاية التي حُفرت في وجداني، هي لذلك الرجل الذي اجتمع أهل قريته على طرده بتهمة ظالمة، فخرج يبحث عن مكان يُؤويه، حتى دخل مدينة أهلها مجتمعون أمام قصر السلطان وقد حلّ بهم الصمت، ثم شاهد طيراً يحلّق في الفضاء، يدور دورات واسعة قبل أن يحط على رأس الغريب، لحظتها تنفجر الجموع بالهتاف وتلتف حول هذا الغريب الذي اختاره الطير، كي يكون سلطاناً عليهم.

* * * *

الموالد وحلقات الذكر

مع أذان الفجر، تَبْرُزُ أبواب الدور الضخمة، ويخترق الصمت خوار البقر والجاموس، التي يقودها الفلاحون في طريقهم إلى الحقول، لتبدأ رحلة من الشقاء، طوال يوم من العمل المتواصل حتى تأفل الشمس في المغيّب، وتحل العتمة، يشق فضاء القرية أذان المغرب لتبدأ قافلة الصباح في العودة إلى الدور والزرائب مرة ثانية.. هكذا تبدأ مواسم الزراعة وتنتهي عندما يحين أوان الحصاد أو جني القطن، أو تخليع عيدان الذرة وجمعها في الطرقات

والدروب، حتى تجف ويقل وزنها (وهذا موسم رقصات جحافل البعوض الكبير)، قبل نقلها إلى الأسطح.

واحترامًا وتقديرًا للأرض والتربة الطينية التي ينبغي أن تأخذ حقها من الراحة بعدما وهبت الفلاحين ثمارها، تمر مدة تتراوح بين ثلاثة أو أربعة أسابيع قبل أن يبدأ العمل في زراعة محصول جديد.

في أثناء تلك الأسابيع، تبدأ رحله خاطفة من السعادة، من المتعة، تدور وتمضي وسط تقاليد وطقوس خاصة بالفلاحين، هذا ما تعلمته في طفولتي، لعلني كنت الروائي الوحيد الذي هاجر من المدينة إلى الريف، على عكس العادة التي جرت بهجرة المبدعين من شعراء وروائيين من الريف إلى المدينة، وكذا حبابي السيد (ظلم) ونديمته السيدة (ألم) بعالم خاص، إذ أطلعت عيناى وعقلي، وتنفس وجداني حياة الريف، وهي لا تزال بكرًا، لم تلمسها يد المدنية، يستخدم الفلاحون في أعمالهم الفأس في العزيق، والمنقرة" و"المنجل" في إزالة الحشائش الضارة، والسواقي، والطنبور في ري التربة، والمحراث في قلبها، والنوارج والمناجل في الحصاد، عالمهم

المضاء بمصاييح و"كلوبات" الجاز، قبل دخول عصر الكهرباء، بما تحيط به من الثقافة الشعبية التي تعود إلى القطاع الأعظم والأكبر من الشعب، والمؤثر في حياة الغالبية العظمى من المصريين.

في تلك المدة البسيطة التي لا تتجاوز أسابيع محدودة التي تحتاج إليها الأرض للراحة من عناء الزراعة، يأخذ الفلاحون أيضاً راحتهم لتبدأ مواسم زواج الأبناء وستر البنات، زيارة مقامات أولياء الله الصالحين، الموالد الشعبية، الاستماع إلى المنشدين بذكر الله، ومديح سيدنا النبي عليه الصلاة والسلام، الأضحية، صناديق النذور طلباً لزواج البنات وخلفه الصبيان، وعودة رجل هجر زوجته في الفراش، رقص الغوازي، والنظر إلى العالم من خلال صندوق الدنيا، السير على الحبال وزئير الأسود وألعاب الحواة وسحرة السيرك، موكب الاحتفال بالمولد النبوي الشريف يدور في شارع "داير الناحية"، ختمة القرآن الكريم في شهر رمضان المبارك، طقوس الاحتفال بالأعياد والتي يجتمع خلالها عقب صلاة العيد أعيان وشباب النواحي لتبدأ رحلتها، يدورون من خلالها على النواحي الأخرى للتهنئة بالعيد؛ في طابور يحترم فيه الصغار الكبار، عيد

الفطر، عيد الأضحى، عيد القيامة المجيد، الجميع موجود بلا استثناء؛ النواحي الأربعة، مسلمون، مسيحيون، ولو كان هناك بالقرية طائفة من اليهود لشاركوا، لفرط "السماحية".

الاحتفال والطقس السنوي الأجل على الإطلاق، حيث الرحيل على ظهور الجمال إلى مقامات أولياء الله الصالحين، طنطا مولد السيد البدوي، دسوق مولد سيدي إبراهيم الدسوقي، والقائمة تطول ولا تنتهي.

* * * *

والجلوس في حضرة شاعر الرّبابية

الطقس المثير للفرح والبهجة والذي لا ينسى، وقد حضرته مرارًا وتكرارًا، وأنا طفل وأنا شاب، هو جلوس جماعات الرجال والشباب، الكبار والصغار يفترشون الأرض على الحصر حول المناقد الموقدة بالنيران، يرتشفون أكواب الشاي المر العلقم، وينهمكون في تدخين (الجوزة) المطعمّة (غالبًا) بالحشيش، بينما النساء والفتيات يفترشن الأسطح المحيطة، مشهد اجتماعي يجتمع فيه أبناء القرية

يستمعون إلى شاعر الرّبابة الأعظم فتحي سليمان
الشاعر، وهو يروي مواويل الحب والعشق وقصص
البطولة لأبي زيد الهلالي، والملك سرحان والأميرة
شامة، وذات الهمة، ولا بأس من مشاجرة تجري هنا
وهناك بين شباب النواحي بالشوم والعصي، ربما
يتمثلون بطولته لم يحظوا بها طوال حياتهم
التعيسة!

هي لحظات يجتمع فيها الفلاحون، يتنفسون
مشاعر السعادة بعد مواسم من شقاء يعيشونها
منذ الميلاد حتى الموت، أما زيارة ضريح السيد
الحسين والسيدة زينب رئيسة الديوان، فمن أجل
الشكاية لها عن مظالم الدنيا وعناء لا ينتهي، لعلها
تستجيب لهم وترفع مظالمهم إلى جدها النبي، كي
يكون شافعاً لهم يوم الحساب، يوم الوقوف أمام
الجلالة.

* * * *

بين الأيديولوجيا والثقافة الشعبية

وهبتني الحياة في القرية القُدرة على إدراك عالم يصعب على أبناء المدينة فهمه، وربما يصعب على أبناء القرية رؤيته لطبيعته نشأتهم داخله، ولهذا ينخرطون في تبني مفاهيم وقيم المدارس الفكرية الغربية، والوقوع في فخ، مثل مصطلحات الحداثة وما بعد الحداثة، وهي صحيحة في مجملها، في عالم تحوّل إلى قرية كونية، وإن كان يجب الحذر عندما يوضع في الحسبان ثقافة الكتلة الضخمة من الجماعة المصرية، من الفلاحين، والتي تهيمن على اللاوعي الجمعي، والوجدان العام، وتسيطر على الوعي السائد، وأنه ينبغي عدم تجاهل البنية الفوقية للوعي الذي ينتمي إلى ثقافتهم الشعبية.

بسبب ذلك الارتباط المبكر بالريف، وتلك السنوات الأربع التي عشتها في مطلع طفولتي في قريتي، وما تلاها من ارتباط وثيق، تأثرت نظرتي إلى العالم، وعندما وضعت في خيار بين الأيديولوجيا والثقافة الشعبية للفلاحين، اخترت الأخيرة عن

قناعة فرضها الواقع المعيشي، والحقائق الموضوعية للحياة، كان هذا سبباً رئيسياً فيما انعكس على أفكاره، على كتاباته، على مراجعته ميولي الفكرية والأيدولوجية وتراجعها باحترام أمام الثقافة الشعبية لجماعة الفلاحين.

كان هذا جوهر الأمر عندما شرعت بعد عقد في الكتابة.

* * * *

هل حان أوان العودة؟!!

قبل رحيلنا عائدين إلى القاهرة بيوم أخذتني أمي من يدي، وتوجَّهنا إلى العزبة التي يمتلكها عمي والواقعة على ترعة النعناعية، حيث جلس على المصطبة الواقعة على مدخلها عمي الذي كان بيده الوصاية علينا، وكنت أحترمه كثيرًا، (كنت أحترم وأحب كل أعمامي وعماتي وأخوالي وخالاتي)، كان غاضبًا مستاءً، يعلم المهمة التي جاءت أمي بصدها، ودون أن تجلس، ودون أن تتحدث بصيغة الرجاء أو التوسُّل، أو بطلب الإذن، أبلغته وهي تقبض على كفي الصغيرة عزمها على اصطحاب أولادها غدًا، والعودة بهم إلى القاهرة.

لا أذكر ماذا قال، وهو لم يُبدِ موافقته، كما لم يُبدِ ممانعة. ربما قال بغضب ما فحواه أن تفعل ما تشاء، وخاصة أنه كان يعلم أننا سوف ننتقل للإقامة في منزل يملكه والدها؛ جدي (عالم).

في اليوم التالي، حان أوان العودة إلى القاهرة، في ذلك الصباح الصيفي الناعم استأجرت أمي سيارة

نقل ضخمة، وحملناها بأثاث منزلنا الذي سبق
وجئنا به معنا من القاهرة، وضعتني أمي في الكابينة
الأمامية بجوار السائق، وطلبت مني الانتباه إلى
الطريق، في حين اجتمعت الأسرة في سيارة أجرة
حملتهم إلى القاهرة.

هكذا في الثالثة عشرة من عمري، غادرتُ والأسرة
قربنًا، عائدين من مسقط رأس العائلة الريفي إلى
القاهرة؛ موطن ميلادنا.

ظلت علاقتي بقريتي وأهلها قوية للغاية ولم
تنقطع يوماً، وقد كان لتلك السنوات الأربع تأثير
جوهري على رؤيتي الثقافية والسياسية، ومن ثم
الفنية والروائية، وكان من أهم هذه التأثيرات
التفريق بين جماعة الفلاحين المصريين باعتبارهم
الجوهر والأصل الثقافي والحضاري للجماعة
المصرية، بينما أهل المدينة انعكاس وامتدادا لهم.
هكذا تمكنت من كتابة رواية "نهر السماء"
و"مراعي القتل" و"شرف الله"، وكتاب "شرائع البحر
الأبيض المتوسط القديم"، ولا شك أن هذا التأثير ظل
باقياً، ربما في غالبية أعماله.

* * * *

انتقالي إلى قريتنا وإقامتي بها تركت داخلي بجانب
السيدة (ألم) قوة نفسية وعقلية وروحية هائلة
شكّلت الجانب الأكبر من شخصيتي في مواجهة
العالم والمستقبل!

* * * *

الفصل الثالث

القاهرة من جديد..

إلى جنة المعرفة والسلام

- دار الكتب بحي شبرا.
- سور الأزبكية.
- سينما الستينيات.

(1 / 3)

شقة في عمارة جَدِّي لأمي

في الثالثة عشرة من عمري وأنا مُسلِّحٌ بذلك المخزون الهائل الذي تخلفه تلك المصادر الفنية والمعرفية من الأدب المتاح للصبيّة والمراهقين. غادرت والأسرة قريتي عائدين إلى القاهرة لنقيم في منزل من أربعة طوابق بحي شبرا، لجدي لأمي والذي كان يعمل موظفًا بالسكك الحديدية، وكان قد توفاه الله، كان هناك شقتان متاحتان للسكن، إحداهما رديئة بالطابق الأرضي، والثانية في الطابق الأخير، وكانت أوسع وأفضل بما لا يمكن مقارنته بالأولى، وقد تدخل السيد (ظلم) كعادته وفرض علينا الإقامة في الأولى، (وكان هذا متاح والممكن).

* * * *

(2 / 3)

القاهرة 1963

مثل دؤامة تدور في حلقات لامتناهية بدأت حياتي
من أرض شريف بالقاهرة إلى عالم قريتنا، مصحوبًا
بطفولت اليتيم، ومن قريتنا عدنا إلى منزل جدي
بالقاهرة.

في القاهرة استغرقني العالم الجديد وأمسك
بتلابيب عقلي، وتوغلت في وجداني القيم والمفاهيم
الإنسانية، وقادني إلى جنة المعرفة والسلام، ثلاثة
ينابيع نهلت من مصادرها فن الرواية.

المنهل الأول كان أحد فروع المكتبات الحكومية
العامة، ودار الكتب بحي (شبرا- خلوصي)، المنهل
الثاني كان سور الأزيكية، المنهل الثالث، سينما
الستينيات العالمية وأيضًا المحلية.

* * * *

(3 / 3)

المكتبة العامة بحي شُبرا

المنهل الأول الذي أمسك بقلبي وعقلي للعبور من عالم الظلم الذي توطن في وجداني وعشيقته السيدة (ألم)، كان أحد فروع دار الكتب، والذي يقع في شارع خلوصي بحي شُبرا، وكان يتكوّن من طابق أرضي لفيلا أثرية قديمة واسعة الأرجاء، كانت المسافة بين منزلنا الواقع قرب جامع "خماروية" حوالي ثلاثة كيلومترات، كنت أقطعها بشغف، وكأني في الطريق للقاء المحبوب، كان من دلّني عليها جار طيّب يكبرني بسنوات قليلة، وقد وضع بين يدي لأول مرة رواية يوسف السباعي الأشهر (رُدّ قلبي)، وكانت له أخت طويلة مشوقة القوام واسعة العيون، كان يحلو لها متابعتي بعينيها اللوزتين مصحوبة بابتسامة واسعة، بعد أيام قليلة طلب جاري أن أعيد له الرواية كي يعيدها إلى المكتبة العامة بعد استنفاد زمن الاستعارة، والذي لا يتجاوز خمسة عشر يوماً، ذهبت معه إلى الدار للمرة الأولى، حيث استخرجت بطاقة استعارة

خاصة بي، وهكذا عرفت طريقي إلى جنتي الأولى؛
دار الكتب.

كانت جدران قاعات الفيلاً مكسوّة بكاملها
بمكتبة من أرفف خشبية صنّعت بعناية، وقد
اكتظّت رفوفها بكافة صنوف الكتب التي تحوي بين
ضفتيها كل أنواع المعرفة وخاصة العلوم الإنسانية،
كنت أشق طريقي مباشرة إلى القاعة التي تخص
رفوفها بفن الرواية، منذ ذلك الوقت شرعت أحاجي
السيد (ظلم) ونديمته السيدة (ألم).

انصبّ اهتمامي بشكل تام على الرواية العالمية.
ولكونه عقد الستينيات أذكر أن دور السينما
كانت تغص بأفلام الكاوبوي ورعاة البقر وهم يغزون
الغرب الأمريكي، ربما لهذا السبب كانت البدايات مع
روايات الغرب الأمريكي، وأغلفتها التي تحوي رسوم
عربات تجرها الجياد، وتحمل داخلها المهاجرين
الأوائل ينتقلون من شرق قارة أمريكا الشمالية إلى
سهوب وجبال الغرب.

سرعان ما تلاشى الغبار الذي تخلفه حوافر
الخيول التي تركض في براري وسهوب الغرب

الأمريكي أمام ذلك الفن الروائي الرفيع العظيم للكاتب الروسي "ليو تولستوي"، و"تورجنيف"، "جوجل"، "دوستويفسكي"، فضلاً عن كوكبة من الروائيين الفرنسيين العظام؛ "بلزاك"، "إستندال"، "جوستاف فلوبير"، و"هوجو"، وتلك السلسلة من الروايات التي صدرت غالبيتها عن دار الهلال التي تحوي شراباً من علقم يضم مزيجاً من الظلم والألم يظلل بخيلاء وفضاضة مناجم وحقول فرنسا وقاعات الرقص بالقصور، وحانات باريس للكاتب الفرنسي "إميل زولا"، القائمة تطول ولا تنتهي، هناك عناقيد الغضب لتشاينيك، والصغيرة دوريت وقصة مدينتين لتشارلز ديكنز، موبن ديك لهيرمان ميلفيل وحتى سهوب قوزاق جوجل العظيم، وأزقة مدينة (جيفرسون بولاية ميسيسبي) الواقعة في الجنوب الأمريكي، والتي تروي سقوط وانهيار عائلة كومبسون وانتحار الشاب (كوينتن) المغرم بأخته (كاتي/ كانديس) في رواية الصخب والعنف لوليم فوكنر، وانتحار "أنا كارنينا" التي تفيض شغفاً بالعشق أمام عجالات القطار، ورقصات "الكان كان" في مالاهاي باريس، ومدام بوفاري لجوستاف فلوبير، ونساء بلزاك المتيمات بالعشق، ليستقر العالم على

الروايتين الأهم اللتين لعبتا دورًا محوريًا وحاسمًا في حياتي، الأولى حيث جبال شبه جزيرة أيبيريا 1937 إبّان الحرب الأهلية الإسبانية والشباب الأمريكي (روبرت جوردون) يودّع حبيبته ماريا، ويستعد للموت أمام الكوبري الذي سيقوم على تفجيره لمنع عبور القوات الفاشية في رواية هيمنجواي الرائعة المهمة (من تُقرع الأجراس).. والثانية رواية (الأم) لكسيم غوركي التي غيرت من نظرتي لدور أمي العظيم في حياتنا.

كان العالم من أقاصي الصحاري الجليدية في الشمال وحتى المحيط الهادي في الجنوب الذي استسلم لمغامرة كابتن آهاب (موين ديك) وثورة على السفينة بونتي، ومن أقاصي الغرب حتى تخوم الشرق الساحر ينضو عن ذاته، ويكشف عن جسد الإنسانية العاري عري أبينا آدم وأمنا الأولى حواء في جنة الرب الزاهرة بالتين وأنهار العسل والعقاب والموت، لذلك المراهق الصغير الذي يعيش في شقته بالطابق الأرضي بحي شبرا في شارع تفيض فيه مياه المجاري، ويتنقل فيه الأطفال والنساء والكبار على قطع من الطوب والأحجار لتفادي التلوث بمياه الصرف الصحي التي تفيض بها أحياء القاهرة، ورغم

ذلك ينبغي الامتنان لجدي لأمي، فلولا تلك الشقة
لوقعت عائلتنا أسيرة الكهف المظلم الناجم عن
التناقض الصعب لأسرة مدينية وجدت نفسها فجأة
تعيش عالم القرية المغاير.

في ذاك الخضم الهائل من شخصيات أسطورية
تخوض صراعات بشرية جمعت بين جمال الخير
وقبح الشر، وتلك البراري والسهول والتلال
والسهوب، والجبال التي تكلها الثلوج، وتلك المدن
التي تغص بالحب والعشق، والبغض والكراهية،
والرحمة والقسوة، وبين العشيقات وبائعات الهوى
الفرنسيات، وراقصات "الكان كان"، التي تغص بهن
ملاهي باريس، وبين فتيات الجيشا اليابانيات،
وتجارة الأفيون على امتداد النهر الأصفر، ورجال
العصابات الصينيين لبريل بيك، وراقصات معابد بوذا
الهندية، واجتياح قبائل المغول للعالم، وخيالة القوزاق
تركض فوق بيادر القمح في سهوب آسيا الوسطى،
في صراع ضارٍ مع قبائل التتر، وخسارة تراس بولبا
لابنيه، معاً، يشاهد الأكبر وهو يموت على منصة
الإعدام بطلاً على حُطى أبيه، والأصغر يخون قومه
بعد تذوقه عصير الحب مع أميرة بولندية، كذا

تشكّلت داخلي بصورة غير مدركتة، ودون وعي ولا قصد شخصية تُشبهه دُرّة الأدب العالمي لسرفانتس؛ (دون كيشوت) صغير، أخذ على عاتقه أن يحارب طواحين الهواء مع فارق يبدو مثل خط الشفق، إذ خاض "دون ألسو كيخنو" حربته من أجل حبيبته "دولسينيا ديل توبوسو"، بينما خضت حروبي من أجل آخرين، وكانت حروبه وحروبي تنتهي بالهزيمة، وسط سخرية وشماتة الكثيرين ممن ظننا أننا نضحى من أجلهم!

دعوني أعترف أن من قادني إلى فخ "دون كيشوت" ذاك غير المنظور كان توقُّفي أمام الرواية التي حددت مصير حياتي وإلى الأبد؛ (لن تُقرع الأجراس)، للروائي الأمريكي "أرنست هيمنجواي".

وكنت قد بلغت الرابعة عشرة من عمري، وقد تغَيَّر العالم كلياً، وتبلورت في ذاتي ووجداني وترسّخت المفاهيم والقيم الإنسانية واحدة تلو الأخرى؛ الخير والشر، الحرية والعدالة الاجتماعية، الحب والعشق والجنس، الشجاعة والجبن، الشرف حتى الموت، الخيانة والاستحلال، والعالم يتسع بلا حدود، عبر جغرافيا القارات الخمس وتاريخ الأمم

والشعوب، تاريخ الصراعات العالمية، والصراع المتواصل بين الحق والزيغ، بين الصدق والكذب، كفاح لا ينتهي يخوضه رجال ونساء من طراز رفيع، من أجل الدفاع عن الشرف، عن الحب، عن الحرية والعدالة، عن حق الفقراء في حياة كريمة، عن حق الشعوب في الحرية والديمقراطية ومقاومة الاستعمار والاستبداد والرفاة، وكافة القيم الإنسانية وكل ما هو يتعلق بالخير في مواجهة الشر!

روايات أربع قرأتها للكاتب الأمريكي العظيم، وهي على ما أذكر، على التوالي: رواية "لن تُقرع الأجراس"، حيث يقرر البطل القتال في صفوف الجبهة الشعبية ضد الفاشية في الحرب الأهلية الإسبانية عام 1937، وتقبل الموت ليس دفاعاً عن مغمم أو مصلحة أو منافع شخصية، وإنما من أجل الانتصار لقيم الحرية والإنسانية، يمارس الحب مع حبيبته وسط الطبيعة الفاتنة فتدور بهما الأرض، لقد تعلمت أنه لا توجد فوارق بين البشر، بغض النظر عن العرق أو الجنس أو اللون أو الدين أو الطائفة، وأن الاختيارات التي يتخذها الإنسان على عاتقه وتحدّد مصيره إنما تخص القيم الأخلاقية

والإنسانية السامية والشرف الرفيع، ثم قرأت رواية "وداعاً للسلاح" والتي يقرر فيها البطل الانسحاب وحبيبته من جبهة القتال، والهروب من حرب لا تخصه، من دائرة الصراع المشتعلة بين قوى الإمبريالية العالمية، ثم قرأت روايته الحزينة "الشمس تشرق أيضاً" لبطل يشهد حبيبته تضاجع مُصارع ثيران يحب ر عن الصراع بين الذكورة في مواجهة هزيمة عاشق رومانسي.. وأخيراً "العجوز والبحر"، وهي تروي كفاح الإنسان من أجل لقمة العيش وخسارته أمام قسوة الطبيعة.

عندما انتهيت من قراءة رواية "لن تُقرع الأجراس" انتهى الأمر بعد أن اتضح لوعيي كل شيء، وتحددت خياراتي، ومن ثم ومنذ تلك اللحظة تحدد مصيري، وهو أن أعتنق مبدأ الحرية والجمال والعشق والطبيعة الخالصة والوقوف بصف الفقراء والمحتاجين، اعتناق مبادئ الشرف والقيم الإنسانية.

أن أصيرَ روائياً

في البداية وفي النهاية قرّرت بشغف وعزيمة لا
تنضب أن أصيرَ روائياً، ليس فقط من أجل المتعة التي
يحملها كل نص روائي للكاتب والقارئ، ولا من أجل
اللذة والإشباع اللذين يعقبان قراءة إحدى الروايات
التي كتبها أحد الروائيين العظام، ولكن الأهم أن فن
الرواية سيكون السلاح الذي أحمله في معركة
الدفاع عن الحرية والإنسانية، عن الشرف، عن
الوطن بكل ما تعنيه الكلمة من معانٍ سامية، عن
الضعفاء والفقراء، عن الحب والعشق، آلام وأحزان
الناس، آمال وأحلام الشعب.

* * * *

(4 / 3)

المنهل الثاني.. سور الأزيكية

في المرحلة الثانوية تعرّفت على سور الأزيكية، وكان المعين الذي لا ينضب للتعرف على الإبداع العالمي، وكان سعر الكتاب المستعمل الذي سبق لآخرين شراؤه وقراءته، وهو جديد وإعادة بيعه، ليعرض على سور الأزيكية لا يتجاوز القرش والقرشين.

"تورجنيف"، "جوجل"، "دويستفسكي"، "يرمنتوف"، وتلك الملحمتان اللتان نالتا الخلود؛ "الإلياذة والأوديسة" لهيمروس، و"عوليس" للكاتب الأيرلندي جيمس جويس، "السخ" و"أمريكا أمريكا"، و"السيد (ك)" بعض روايات الأعظم كافكا، وتحفة الأدب العالمي (دون كيشوت) لسرفانتس.

في المرحلة الثانوية تعرّفت أيضاً على سلسلة المسرح العالمي؛ شكسبير، تنسي ويليامز، برخت، سوفوكليس، إسخليوس، هنريك أبسن، إلخ... والعديد من السلاسل التي كانت تُباع بسعر لا

يتجاوز ثلاثة قروش، لم نكن في حاجة كي نرحل للبحث عن الكتب في دور النشر ومكتبات وسط البلد كما هو الحال الآن، فهي متوفرة طوال الوقت وبأسعار زهيدة عند باعة الجرائد على نواصي كافة شوارع العاصمة الرئيسية.

في المرحلة الثانوية اتسعت عوالم القراءة، ولم تعد تقتصر على الرواية، كنت شديد الشغف بقراءة علم النفس، وأذكر واحدًا من أهم الكتب التي أعطاها لي ابن العم؛ عبد العظيم إمبابي، وهو طالب بالجامعة وأنا في السنة الأولى من المرحلة الثانوية، وهو كتاب (الحياة الجنسية للمرأة)، لماري بونابرت، عكفت باستمتاع شديد على قراءة غالبية كتب "فرويد"، ومن بعده "كارل يونج" الذي أكد لي قراءته مفهوم الوعي واللاوعي الجمعي لدى جماعة بشرية ما، وغيرهم لا أذكر أسماءهم، وإن كنت أتذكر كتابًا ضخمًا للدكتور مصطفى زيور، وكان يضم تعريفًا بكافة الأمراض النفسية؛ فصام، ذهان، سيكوباتك، هذيان، سادية، مازوشية، وبقية الأمراض النفسية، وكان بالنسبة لي أيضًا أحد الكنوز الثمينة التي حصلت عليها مبكرًا.

بجانِب علم النفس انهمكت في القراءة والاطلاع
على العلوم الإنسانيّة؛ الفلسفة، وخاصة الفلسفة
الوجودية، وقدر من الاقتصاد، وكثير من السياسة،
وكنت قد أخذت محاضرات قليلة عن الاشتراكية
في منظمة الشباب، والفروق الخمسة بين
الاشتراكية العربية والماركسية، أمضيت المرحلة
الأولى ولم أجز للمراحل التالية، وكانت ثلاثاً.

في بدايات المرحلة الثانوية كنت قد تجاوزت
الإيمان بالناصرية، وأصبحت الوجودية المذهب الذي
أميل إليه، وعندما فاجأتنا هزيمة يونيو 1967 التي
هبطت على رؤوسنا كالصاعقة، وهشمت رؤوسنا
بالمطرقة، تبنيت مع كثيرين من أبناء جيلي الفكر
الماركسي، لماذا أذكر ذلك؟... كي أوضح طبيعته
الأفكار والعقائد التي كنت أؤمن بها والتي انعكست
على حياتي إبان ذلك الزمان، وكتاباتي فيما بعد.

* * * *

(5 / 3)

المنهل الثالث.. سينما الستينيات

من نافلتا القول، أن قراءة الأدب والشغف الشديد به مبكرًا هو الطريق الذهبي لمن يرغب أن يكون روائيًا، وأظن أنه لن يكون من الإجحاف القول بأن عشق السينما أيضًا من المنابع الرئيسية، وربما الأساسية التي تُساهم في صنع الروائي، واتساع قدراته الفنية، وخاصة أنه ينهل من ذلك البُعد الذي لا غنى عنه للروائيين العظام، والذي يرفعهم إلى المراتب العليا، وهو المتعلق بالقدرة على امتلاك المخيلة الإبداعية الفنية.

أخص بالذكر سينما الستينيات، وأيضًا السبعينيات، حيث كان الموضوع الرئيسي للسينما هو العالم الإنساني، كانت هناك أفلام عن الرُعب، مثل "دراكولا"، "فرانكشتاين"، عن أولئك العلماء المهووسين بالإبقاء على أحبائهم الموتى أحياءً بطرق علمية تعبر عن جنون مطبق، أفلام تروي دخول صحفي مشفى أمراض نفسية، كي يُجري تحقيقات

سريته، وهو لا يعاني من شيء فيقع في الشَّرْك، ولم يغادر المشفى قط.

سينما نظيفة

خالية من لحم الجرابيع والصراصير

لم تخضع سينما الستينيات والسبعينيات إلى السينما الهوليوودية، وإنما كان هناك السينما الفرنسية والإنجليزية، كان هناك السينما الإيطالية والسينما السويدية، وكان هناك أيضًا السينما السوفيتية، وأيضًا السينما المصرية، كان هناك سينما من شتى أنحاء العالم، يعمل بها فنانون ومخرجون وممثلون عظام، كانت صناعة السينما إبَّان ذلك الوقت صناعة نظيفة.

البداية مع سينما غزو الغرب الأمريكي الهوليوودية وأبطالها من رعاة البقر الكابوي، وأذكر أن الخصم دائمًا كان ذلك المحارب العاري من قبائل الهنود الحُمْر، الذي يغطِّي عورته ورأسه بمعرفة من الريش، البارع في اجتثاث فروة رأس الرجل الأبيض بمُدَيْتته الحادة، ويرفعها على أسنَّة الرماح وهو يولول

معلنًا عن شهوة القتل، أمامه ذلك الكاوبوي الأبيض أو الأشقر الوسيم، القادم من أوروبا يتدلّى مسدسان (طراز الساقية) من جانبيه، يستخدمهما في القتل بمهارة، يغوص في قلب الطبيعة ويحتل أراضي جديدة، يستوطنها هو وحبيبته الفاتنة، وعائلات المهاجرين، فضلاً عن الركض بالخيول، والسياط تلهب ظهور قطعان البقر، ومبارزة المسدسات، وبائعات الهوى، وكانت سينما هوليوود تفيض بهن.

لم أحمل كراهية تجاه الهنود الحمر، كما لم أشعر بالشفقة ولا السعادة تجاه عمليات الإبادة التي قام بها فرق خيالة الرجل الأبيض لقبائل الهنود المصنّفة بين أشرار وأخيار وعملاء لفرق الخيالة الأمريكية، مع الوقت تغيّرت أفكارى، حتى استقرت قناعاتي بعدما شاهدت الفيلم الذي قامت ببطولته كاندس برجن؛ (العسكري الأزرق).

مع أفلام الكاوبوي كانت هناك أفلام الإمبراطورية الرومانية. ومعاركها التي لا تتوقف عن التوسع في محيط البحر المتوسط وشمال أوروبا.

وكما تلاشت روايات الغرب الأمريكي لم يمض وقت طويل حتى تلاشت أفلام الكاوبوي، لتحل

سينما الإنسان العميقة، وحتى لا أطيل في الحديث، سوف أكتفي بذكر هؤلاء الممثلين العظام؛ مارلون براندو، أرسون ويلز، فينسيا ريجريف، إليزابث تايلور، أنطوني كوين، بيتر أوتل، جريجوري بك، أودري هيبورن، كاثرين هيبورن، آلان ديلون، بريجريت باردو، جان بول بولندو، كاترين دونيف، صوفيا لورين، سيمون سونريه، جان جابان، روبرت ريد فورد في مطلع مشواره الفني، والقائمة تطول ولا تنتهي، فعدراً، فأنا هنا لا أقوم بمهمة التوثيق، وإنما أتحدث من ذاكرة تأكلت!

ومخرجون من طراز رفيع...

على الجانب الآخر، تميز عقد الستينيات بأنه أبدع عددًا من أفضل الأفلام التي قدّمتها السينما في ستينيات القرن الماضي، وهاك بعضًا منها:

سبارتاكوس لستانلي كوبريك (ملحمة الكفاح ضد العبودية الرومانية)، وعندما توالى وقوف الجميع معلنين المقولة الشهيرة: "أنا سبارتاكوس!" كانوا يتوقعون تلك النهاية المرّعة التي تنتظرهم،

حيث تتدلى من أعواد المشانق أجسادهم على طول الطريق المؤدية إلى روما.

حطمت قيودي، بطولتة الأعظم سيدني بواتيه وتوني كيرتس، وهو تحفة فنية، عن الأبيض والأسود.

مقتل طائر غرد، بطولتة غريغوري بيك.

في لهيب الليل، بطولتة (رود ستايجر) في دور قائد قسم شرطة أبيض متعصب، و(سيدني بواتيه) في دور ضابط أسود يتمتع بذكاء حاد وكفاءة متقنة.

فيلم " امرأتان" إخراج (فيتوريو دي سيكا)، عن رواية بنفس الاسم للروائي الإيطالي (ألبرتو مورافيا) بطولتة صوفيا لورين، حيث تهرب أم وابنتها من روما التي مزقتها الحرب، وقد قاربت الحرب على نهايتها بانتصار الحلفاء، تقع الأم وابنتها ضحية قيام كتيبة بأكملها من الجنود الأفارقة، تابعة لجيوش الحلفاء باغتصابهما، والذين من المفترض تحرير الشعب الإيطالي من الفاشية.

"طفولتہ ایفان" فیلم سینمائی من الشعر الخالص
لـ (أندريه تاركوفسكي) يدور حول حياة طفل
روسي على خلفية مروّعة للحرب العالمية الثانية.

"انتظر حتى يحل الظلام" فيلم للممثلة الرائعة
(أودري هيبورن)، والتي قامت بدور سيدة منزل
ضريرة، يهاجمها ثلث من الأشرار، لكنها تتمكن
بفضل ذكائها من الانتصار عليهم.

"راعي بقر منتصف الليل" فيلم يروي مغامرة راعي
بقر مراهق من الريف الأمريكي ينزل نيويورك، ولديه
شعور طاغٍ بذكوريته، بحثاً عن تحقيق الحلم
الأمريكي ليجد نفسه في قاع النظام، حيث
تستخدمه النساء ويتبادلنه من أجل تلبية متعهن
الجنسية، نظير أجر ما.

"انفجار *Blow-Up*": لمايكل أنجلو أنطونيوني، فيلم
تلقتة القاهرة بصخب وانبهار، شاهدته في سينما
"مترو"، وكان الرقيب مصطفى درويش قد افتتح

مقدمة الفيلم بالتنبيه على أن الفيلم يعرض كاملاً ودون تدخل من مقص الرقيب، وأنه ينبغي تقبُّل مشاهد العري بصورة فنية، وكان المشهد للممثلة العظيمة "فينسيا ريجريف" التي تعطفت علينا بعرض نهديتها العامرين، وكانت المرة الأولى التي أشاهد فيها صدر امرأة عارياً في السينما، ورغم ذلك توارى المشهد وتلاشى تماماً أمام مشهد لمباراة تنس يلعبها ممثلون صامتون دون كرة، وهذا يحيل العقل لسلسلة من التساؤلات الفلسفية حول الوجود... لماذا؟ ومن؟ وكيف؟ والأسئلة الثلاثة كانت أهم من نهدِي "فينسيا ريجريف".

"لورنس العرب": أحد الأفلام التي فُتِنَ بها المشاهدون، وخاصة أنه يضم كلاً من "عمر الشريف" و"بيتر أوتول"، لكن الفيلم يُعد علامة أيضاً على ضعف الذاكرة لدى مجتمعاتنا العربية، والتي تفضل الكسل الذهني على مواجهة الحقائق التي يؤسس لها الفيلم عن الخداع الذي لا تمل الإمبراطوريات الغربية عن إيقاعنا في حباله.

"2001 أوديسا الفضاء": للمخرج الأسطوري ستانلي كوبريك، هو من بين أعظم الأفلام على الإطلاق، ها هو الفيلم الذي يرتقي بالوعي الإنساني العام، ها هو الفيلم المكوّن من بنى الخيال العلمي ليُعطي المشاهد مسحة عميقة من المعرفة الكلية بالوجود، وهو بعبقريته فذة يقطع الزمن الإنساني ويعبر عشرات الآلاف من السنين بمشاهد عبقرية خالدة لا تتجاوز دقائق قليلة.

د. زيفاجو: بطولته عمر الشريف وجيرالدين شابلن، عن الرواية الأهم بنفس الاسم للروائي الروسي العظيم بورييس باسترنك، والتي نالت غضب الستناليينية واستحسان الغرب، وقد نال عنها جائزة نوبل.

"هاملت"... "ماكبت"... "الملك لير": ثلاثة أفلام من طراز رفيع للعبقري الملهم "وليم شكسبير"، شاهدها في سينما "كابيتول" الواقعة في شارع عماد الدين.

والقائمة تطول...

القليل النادر من سينما السبعينيات.

عند الحديث عن السينما يصعب تجاهل فيلمين
من أعظم الأفلام، وكلاهما من إخراج المخرج
الإيطالي العظيم "برتولوتشي"، وكنت قد شاهدتهما
في سينما "طلعية" في مدينة كمبردج بإنجلترا..

الأول: "التانجو الأخير في باريس" لمارلون براندو،
والثاني: "1900"، وهو يروي صعود الحزب الشيوعي
الإيطالي والفاشية، وسقوط الرأسمالية الإيطالية
في قبضة الفاشية.

* * * *

الفصل الرابع

يونيو 67

(1 / 4)

الديكتاتور يخور في "زريبة" أوهامه!

في 22 مايو 1967 أفاق الزعيم المحبوب من شعبه، من غفوته، وقرّر من تلقاء نفسه في سبيل التخلص من كيد خصومه، مما كان يطلق عليهم مصطلح (الرجعية العربية)، وقرر كديكتاتور ينصب العالم في ذاته الإلهية أن يهدي أبناءه ما ظن أنه الهدية الكبرى التي طال انتظارها، وأعلن إغلاق خليج العقبة، لم يبحث الأمر مع رفاقه القدامى من مجلس قيادة الثورة المنتهية صلاحيتها، لم يراجع مراكز أبحاثه التي لم تكن موجودة، وإن وجدت فلم تكن مؤهلة للمهمة بغرض التعرف على رد فعل أعدائه وحلفائهم، أو مدى استعداداتهم العسكرية والاقتصادية، بينما جهر مخابراته غارق في التحرش بنجمات السينما، وهو من أعلن الحرب عليهم بالخطب والشعارات والأغاني الحماسية طوال خمسة عشر عاماً، صباحاً ومساءً، وفي الضحى والعشيّة، وعرض على حليفهم الأكبر ابتلاع

مياه البحر الأبيض وإن لم يكفه، فليده البحر الأحمر!

السيد الزعيم الديكتاتور لم يعقد اجتماعات مغلقة مع كبار قادته العسكريين (وهو مدرس علم الإستراتيجية في الكلية الحربية)، بينما وزير دفاعه غارق حتى الثمالة بين شلته في سهرات حمراء مزدانة بالمخدرات والعشيقات من نجومات إغراء السينما.

السيد الديكتاتور لم يُطهر جيشه قبل إعلانه الحرب من القادة محدودي القدرات، والذين يحتلون مناصبهم بمنطق الثقة وليس الكفاءة، غالبيتهم جهلة، منافقون، ورغم أنه يعلم لم يفكر أن يستعيد ذوي الكفاءات العسكرية الذين سبق له ولوزير حربيته التخلُّص منهم.

السيد الزعيم المحبوب من شعبه لم يعقد اجتماعات سرية مع قادته العسكريين ليعرض عليهم الأمر، وي طرح بعض الأسئلة المصيرية من نوع:

هل نحن مستعدون لدخول حرب؟

- هل أجرينا عمليات تعبئة عسكرية للقوات العاملة؟
- هل سبق وأجرينا تعبئة عسكرية لقوات الاحتياط؟
- الإجابة ستكون (لا).
- هل أجرينا مناورات عسكرية على مستوى الفرق؟ الإجابة ستكون (لا).
- هل أجرينا مناورات عسكرية على مستوى الألوية؟ الإجابة ستكون (لا).
- على مستوى الكتائب؟ الإجابة، قطعاً ستكون (لا)، لم يحدث يا ريس!
- على مستوى السرايا؟ "سريّة، اتنين!"
- "دي سهله... ولا تشغل بالك، نعملها يا ريس، أعطنا أسبوعين وكل شيء سيكون تمام".
- "طيب على مستوى الجيش؟"
- "لا يا ريس، دي محتاجة حسبه، هو فيه إيه يا ريس؟ بالك مشغول في إيه!"
- هناك احتمال أن ندخل حرباً مع إسرائيل!
- "إحنا وراك يا ريس.. ولا يهملك يا ريس.. الشعب كله وراك يا ريس".

- هل فكّر الديكتاتور المحبوب أنه يقامر بمصير شعبه؟
- هل فكّر أن المقامرة بلعبة "الروليت" بمسدسات من نوع الساقية يصوبها ضباط قيصر الموسكوب نحورؤوسهم وهم يترنحون على شرفته لأحد قصور بطرسبرج، وقد شربوا الخمر حتى الثمالة، أقل مخاطرة من إغلاق المضيق... كيف له أن يعلم وهو الذي لم يقرأ رواية الحرب والسلام للعظيم "ليو تولستوي"... لم يجرؤ أحد أن يسأله التراجع، وهم منافقون وأشدّ جهلاً منه، رجل الخمر والحشيش والنساء قال:
- "برقبتني يا ريس".

اللعنة!...

... لم يلمّ أحد على ضرورة نقل فرق وألوية الجيش إلى سيناء واحتلال المرات وغزة... لم يصفعه أحد لعدم إحضار القوات المصرية من اليمن قبل الإعلان عن اتخاذ مثل هذا القرار... لم يخبره أحد أنه لا بد من إجراء عمليات تعبئة للقوات، "مرّة واثنين

وثلاثتها"، ربما توقعوا أن الإجابة ستكون: "ليه كل ده؟" .. "يالاً بيتك بيتك... مش محتاجين".

أصدقائي! أنتم تسمعون خيالات روائي "ليس له في الثور ولا في الطحين"، واطمئنوا ليس هناك حرب "ولا يحزنون"!

هكذا، وبعد أن اكتفى الديكتاتور بالاستماع إلى ذاته المقدسة، اتخذ قرار إغلاق خليج العقبة في وجه الملاحاة الإسرائيلية.

* * * *

(2 / 4)

الكُلِّ يِ القِدرَة

انتبه ولا تنس.. تلك كانت ولا تزال

عقلية الخصم

في الخامس من يونيو، هاجم سلاح الطيران الإسرائيلي المطارات المصرية وسحق الطائرات الحربية المصرية على الممرات والمهابط، وفرض السيد الزعيم على جيشه حرباً في فوضى عارمة ربما لم يشهدها جيش يستعد طوال عقد ونيف للحرب من قبل.

ومنذ الخامس من يونيو 1967 ولا تزال الهزيمة تأكل مجتمعنا، وتحيله إلى قطعة من لحم مفروم فاسد مطحون بلحم فئران وحشرات حية، والمشهد الحاضر يعلن بجلاء عن عمق الهزيمة!

من ضمن القيم التي احتفظت بها الأنظمة المتعاقبة تبجيل الكذب وتفضيل معدومي الموهبة، وإيقاع الظلم البين بالكفاءات ووضعهم في عُرف سرية في بئر السلم مع الفئران والجربيع.

المجد للمنافقين وأنصاف ومعدومي المواهب
والمحتالين وأتباعهم!

في ظهيرة الخامس من يونيو 1967 خرجتُ إلى
الشارع أنظر إلى السماء، أبحث عن عشرات
الطائرات التي أسقطها إعلام النظام الناصري، والتي
تجاوزت 80 طائرة، بدءًا من صباح اليوم أو كما علمنا
التاسعة صباحًا، وصوت (أحمد سعيد) يجلجل
بأهازيج نصر مبین، بينما صوت المدافع المضادة
للطائرات يئن في السماء.

* * * *

(3 / 4)

براعة الأناشيد..

دُمرنا في طاحونة أوهام اللغّة!

كُنَّا قد رضعنا منذ نعومتنا أظفارنا أن الانتصار
على الكيان الإسرائيلي الاستيطاني قادم لا ريب،
وأنا سوف نُلقى باليهود في البحر، وكانت أغنية

فيروز؛ الغضب الساطع آتٍ، تهز الصدور والأفئدة،
توالى الأغاني تبشّر بتحرير فلسطين.

غنت أم كلثوم: "راجعين بقوة السلاح راجعين
نحر الحمى/ راجعين كما رجح الصباح من بعد ليلة
مظلمة/ جيش العروبة يا بطل، الله معك/ مأساة
فلسطين تدفعك نحو الحدود/ حول لها الألام بارود
في مدفعك".

وغنى محرم فؤاد: "العودة العودة على دي العودة يا
صهيونية وقعتكوا سودة".

كما غنت شادية: "عدينا يا معداوي ما كفايت
الوقفه سنين/ دي كلمته واحدة منك ونعدي
لفلسطين بالملايين".

وغنى محمد رشدي: "يا بو خالد يا حبيب، بُكرا
هتدخل تل أبيب/ تفرح يافا وتقول حيفا: نصر من الله
وفتح قريب".

وغنى محرم فؤاد: "مضيق تيران مليون حيتان
متسلحين للمركبة/ وعالحدود جنود أسود بالحق
نار مهلكة/ فوقهم نسور طالعة تدور بالنفاثات
الفاكتة/ يوم الخلاص قرب خلاص".

وصفت الأناشيد الحماسية أن المعركة محسومة
لا محالة:

"في البحر هندفنكم بمشيئة الله/ ده اليوم اللي
احنا بنتمناه وبنستناه/ وميعادنا قريب في تل أبيب".

"طيريا صاروخ في العالي طير/ دمر تل أبيب تدمير/
أنت القاهر وأنت الظافر وإحنا الأبطال المغاوير/ هدّ
الدنيا عليهم خلّي دمارهم بالقناطير".

كارثة فرار الانسحاب الفوضوي!

في اليوم التالي أصدر المشير عبد الحكيم عامر
أمرًا فوضويًا للقوات المصرية بالانسحاب، يستحق
عليه الإعدام شنقًا، وكذا ترامت الأنباء من الإذاعات
الأجنبية بانسحاب الجيش المصري من سيناء، أذكر
في ذلك اليوم أن مدرس اللغة الإنجليزية الأستاذ
(محمد ندا) ذا الميول الليبرالية، والذي كان يتولى
الدروس الخصوصية في اللغة الإنجليزية للأسرة،
وكان يكره عبد الناصر، قال في حنكة شديدة، إن
الجيش المصري ينسحب من سيناء؛ لأن عبد الناصر
أعدّ كمينًا سوف يسحق فيه القوات الإسرائيلية،
وأنه سوف يتركها تتوغل في سيناء حتى يكتمل

وجودها، ثم يقوم بالقضاء عليها قضاءً مبرماً بضربها
بقنبلة نووية! فتحتُ فمي من عبقرية الفكرة،
وخاصةً أن أحلام النصر الساحق التام والذي سوف
يتحقق قطعاً ويتوج بدخول تل أبيب، وتحرير
فلسطين السليبة أمر لا ريب فيه، أحلام رضعناها
منذ الطفولة والصبا وسنوات المراهقة، وافقنا على
ما كنا نظنه المستحيل.

أذكر في أثناء طريقي، أنا وصديقي وزميلي في
مدرسة روض الفرج الثانوية "محسن لبيب" إلى
سينما "مترو" وكنا نعبّر نفق شبرا، علمنا نبأ تنحّي
الزعيم عن الحكم، والاعتراف بالهزيمة. هتفتُ
بمنتهى الغضب:

"كيف لابن (.....) أن يرحل ويتركنا في هذا المصير؟!"

* * * *

(4 / 4)

قطعان العبيد تتوسل وتبتهل إلى السيد بالعودة

من المعروف أنه في الأيام التالية، خرجت جماهير مصر والأمة العربية - ونحن معهم - تطالبه بالتراجع عن قرار التنحي، والعودة إلى قيادة المرحلة القادمة، التي سوف نعبر بها الهزيمة.

غصت شوارع القاهرة والعواصم العربية بالملايين من الجماهير التي تطالب قائد القطيع بالعودة عن قرار التنحي، والإمسك بموقع القيادة، كُنَّا أَعْنَامًا فِي قَطِيعٍ يَبْحَثُ عَنِ (كَبِش) يَمْسِكُ بِمَقُودِهِ، وَتَتَبِعُهُ بِأَبْلا تَرْدَدُ، وَهُوَ يَأْخُذُهُمْ إِلَى الْهَآوِيَةِ، كُنَّا شَعْبًا مِنَ الْعَبِيدِ، اسْتَقَرَّ فِي وَجْدَانِهِ وَرُوحِهِ وَفِي وَعْيِهِ الْحَاضِرِ وَالْبَاطِنِ ثِقَافَةِ الْعَبُودِيَةِ، وَلَمَّا كَانَتْ طَبِيعَةُ أَيِّ نِظَامٍ دِيكْتَاتُورِي تَدْمِيرُ الْحَيَاةَ السِّيَاسِيَّةَ، وَالْقَضَاءَ عَلَى كُلِّ قُوَى الْمَعَارِضَةِ مِنْ كَافَّةِ الْمَلَلِ وَالنَّحْلِ، وَالْإِبْقَاءَ فَقَطْ عَلَى أَتْبَاعِهِ مِنَ الْمُنَافِقِينَ وَالْفَاسِدِينَ وَالْجَهْلَةِ، لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ بَدِيلٌ، لِذَا خَرَجَ الْعَبِيدُ

يطلبون -وعيونهم تنزف دمًا- عودة السيد الزعيم
الديكتاتور!

ومع ظهور الحقائق تراجع النهج الذي يستند على
اليقين بالنصر، بالبحث عن الذرائع... غنّت أم كلثوم
"سقط النقاب عن الوجوه الغادرة وحقيقة الشيطان
بانة سافرة/ فلنضربن بكل كف قادرة/ ولنرمين بكل
روح هادرة/ إنّ فداييون/ نفى ولا نهون إنّا لمنتصرون".

توجهتُ من فوري للالتحاق بالسلاح الذي سحقه
جيش الدفاع الإسرائيلي في الساعات الأولى من
الحرب، قدّمت أوراقى إلى كلية الطيران التي فتحت
أبوابها، بحثًا عن طيارين، وكانت الاختبارات تتم في
مستشفى الطيران بالعباسية (واعذروني إذا كنت
مخطئًا)، نجحت في كافة الاختبارات، ولكنني
رسبت بسبب عمى الألوان، حُوّلت أوراقى بصورة
اعتيادية إلى الكلية الحربية، لكن لم يكن هذا
هدفي، ومن ثم التحقت بكلية الهندسة.

* * * *

(5 / 4)

مصراع "أرنستو تشي جيفارا"!

في مساء أحد الأيام من عام 1968، شاع من الإذاعة المصرية نبأ مصراع المناضل الثوري الأممي "أرنستو تشي جيفارا" في أحرارث بوليفيا، لقد صك المناضل أسطورتة، وغنى الشيخ إمام من أشعار أحمد نجم مرثيته الشهيرة التي غنىها في أروقة الجامعات المصرية، وكان كتابه "حرب العصابات" يُباع على النواصي عند باعة الجرائد بخمسة قروش، وانتشر مشهد جثمانه ونصفه عارٍ، وقد غطّي كفه التي قُطعت إبهامها.

يا الله! سبحانك!... ها هو الشاب "روبرت جوردون" بطل الروائي "أرنست هيمنجواي" في روايته الإنسانية الرائعة (من تُقرع الأجراس) يغادر صفحات الورق ليصبح حقيقة واقعية!

تحول جيفارا إلى أسطورة معاصرة تلهم كل شباب العالم، ومن النوادر المضحكات المبكيات والتي تروي فرط حماقتي، أنني في أثناء لقائي مع فتاة لندنية لم

تتخطى العشرين، في إحدى حانات ضاحية
"ريتشموند" في العاصمة اللندنية، وكانت تضع
على الجانب الأيسر من صدرها أيقونة تضم صورة
لجيفارا، وبدلاً من دعوتها للرقص، عن لي أن أطرح
عليها سؤالاً بريئاً:

Are you a communist ?

حلت بوجهها معالم الصدمة، كشرت عن أنيابها،
وهي تنظر إلي شذراً، وبدلاً من أن تلقي بكأس النبيذ
في وجهي، اكتفت بالوقوف وغادرت المكان من فورها.

غبي... كنت غبياً، أليس كذلك؟

* * * *

الجزء الثاني

سبعينيات القرن العشرين

سنوات الكفاح الطلابي

إلى بلاد النفط وأوروبا

حذفه: وا

حذفه: لسفر

حذفه: <#> سبعينيات القرن العشرين

¶

.A سنوات الكفاح الطلابي

الفصل الخامس

كلية الهندسة- جامعة عين شمس

(1 / 5)

أستاذ رياضيات مُهذَّب وعبقري

في البداية، أودُّ الإشارة إلى الدور الرائع الذي لعبه ابن عمي وأستاذ الرياضيات في حصولي على الدرجات النهائية في مادة الرياضيات في الثانوية العامة، كان الغالبية العظمى من جموع الطلاب (لأسباب لست في محل تناولها)، يعتمدون على الدروس الخصوصية، كنت أفعل الأمر ذاته في حيز ضيقٍ جدًّا، إذ اكتفيت بمادة اللغة الإنجليزية، مع الأستاذ محمد ندا، الذي داوم على إعطاء دروس الإنجليزية لبقية الأسرة.

من تلقاء نفسه

كنتُ أذاكر مادة الرياضيات من خلال كتب خارجية، تضم شروحاتٍ مُفصَّلة يعقبها عشرات الأمثلة، والأسئلة المتدرجة في الصعوبة مع أجوبتها في نهاية الكتاب، وكنتُ كلُّما انتهيتُ من حل فصل بعد آخر، أكتب عبارة: (تم بحمد الله).

طريقة عقيمة، وغير مجدية تستنزف الوقت، فلم يحدث أن تمكنت من بلوغ نهايات المنهج. ومن ثم

الإلمام التام الوثائق من كافة فروع علم الرياضيات،
كان هذا ينطبق على مادتي الفيزياء والكيمياء.

دون سابق حديث، ولا إشارة من أحد، ظهر من
تلقاء نفسه شاب مهذب وسيم، طويل القامة شديد
الأناقة، يرتدي نظارات من أرقى الماركات العالمية،
كان منذ نعومة أظفاره صاحب شخصية قوية بين
أقرانه، كان ينال احترام وتقدير الجميع بلا استثناء،
وخاصة أبناء العمومة، ذلك الشخص كان ابن عمي،
أستاذ الرياضيات، أحمد عبد المعز منصور إمبابي،
ودون أن يسأل، ودون أن أحاول فهم ما ينتوي فعله،
جلس وأخرج أوراقه وأقلامه الملونة وشرع في
إعطائي شروحا تفصيلية تتسم بالدقة والشمول،
تصحبها رسومات توضيحية بلا التباسات، مرتبة
ترتيباً منطقياً، مع إيضاحات حول التباينات الدقيقة،
تضم تعبيراً مفصلاً عما سوف يأتي به الامتحان.

كان يأتي دوماً من تلقاء نفسه في مواعيد
منتظمه، وكان يمتلك موهبة التدريس، تمكنتُ
بفضلها من الحصول على الدرجات النهائية في
امتحان الثانوية العامة، وكان هذا أحد الأسباب

الرئيسية التي مكنتني من الالتحاق بكلية
الهندسة.

لعب ابن عمي، الذي اعتبرته دومًا صديقي وأخي
الأكبر، دورًا مماثلًا للدور الذي لعبه أبي إبان
الطفولة المبكرة، وأنا بعد في السنوات الأولى من
المرحلة الابتدائية عندما اهتمَّ -بصرامة- بمتابعتي
دراستي، وإنجاز الفروض المدرسية، بذا تمكّنت من
مواصلة السير على درب الحياة الشاق وحيدًا!

لأبي وابن عمي، لكليهما امتنان ومحبة بلا حدود!

* * * *

عقب التحاقه بكلية الهندسة، اتسعت حدود قراءته إلى كافة العلوم الإنسانية، وخاصة علم النفس الاجتماع الفلسفة النقد الأدبي التاريخ، السياسة بالإضافة إلى قدر واسع من الاقتصاد، فأل عن متابعة أهرام الجمعة الأسبوعي، ومجلات الطليعة و"الكاتب"، وغيرها، واستمتعت بل وقُتنت بقراءة علم الأنثروبولوجيا، ومن نافلة القول؛ دون أن يتوقف ذلك النهمة والشغف الحار بقراءة الأدب، وقد بدأ أدب أمريكا اللاتينية يأخذ حيزاً واسعاً من الاهتمام الذي يستحقه، سواء أكان شعراً أم رواية، وكانت البداية مع أشعار "بابلو نيرودا"، وكانت رواية "ليس لدى الكولونيل من يكاتبه" القصيرة، للروائي اللاتيني الكولبي الأعظم "غابرييل غارثيا ماركيز"، قد استقبلت بحفاوة بالغة. رغم أن النسخ المباعة لم تكن أصلية، بل جرى تصويرها من الأصل اللبناني (على ما أعتقد)، وحظيت في الوسط الثقافي

حذفه: والآداب و

حذفه: و

حذفه: و

حذفه: و

حذفه: ص

حذفه: العميق

حذفه: ن

حذفه: (رغم كونها رواية صغيرة)،

حذفه: نسخ

المصري، وخاصة اليسار، بصدى هائل لم تُحظَ به رواية من قبل، اتسع الأمر ليشمل قراءة كتب ومقالات تتناول نظريات وأسس النقد الأدبي

والسينما أيضاً، ولا شك

حذفه: وطبعاً

حذفه: وأخص بالذكر

حذفه: بعد

حذفه: التي تتميز ب

حذفه: الفني والجدارة

حذفه: وفي الوقت الذي كان

حذفه: يعرض

التردد بانتظام على صالات سينما وسط البلد؛
سينما "كايرو بالاس" و"قصر النيل" و"راديو" و"مترو"
وشاهدنا فيها مع الأصيلتة أمي وابتداءً بنات الخال
وكأنهن صغيرات، فيلم الأب الروحي للأعظم
"مارلون براندو" و"آل باتشينو"، و"أوبرا" و"أوديون"،
وسينما "كابيتول" بشارع عماد الدين التي اعتبرتها
دائماً الملاذ الجميل الممتع للسينما الرقيقة.

في أثناء عرض فيلم (Love Story) في سينما أوبرا،
ذهبت بصحبة صديقتي التي أحبها (وكانت في أولى
سنواتها الجامعية) إلى سينما "راديو"، وشاهدنا معاً
فيلم (صيف 42)، وكان رومانسياً ناعماً، يروي قصة
براءة مراهق يقع في حب امرأة شابة جميلة وحيدة
إبان نهاية الحرب العالمية الثانية.

حذفه: أ

كنتُ أتردد بانتظام على صالات عرض السينمات
الصيفية، ومن أجملها وأكثرها رقيًا على الإطلاق

سينما (الجدول) بشارع شبرا، شاهدت فيها أفلامًا جميلةً عديدةً ومنها فيلم (القرصان الأحمر لبرت لانكستر)، وأفلام قبائل الفايكنج، والفيلم الجميل جدًّا (المطارد) لمارلون براندوا وروبرت رد فورد، والعظيمة بامتياز (جين فوندا)، والتي شاهدت لها فيلمها الذي لا يُنسى بعنوان (سحر البرجوازية)، وفيلمها عن الكساد الكبير (إنهم يقتلون الحياض.. أليس كذلك؟)، وفيلمها عن حرب فيتنام (العودة إلى الوطن)، وهناك أيضًا سينما الجمهورية الصيفية بشارع الجمهورية، وشاهدت فيها أعظم أفلام مارلون براندو (نهاية العالم الآن)... وجميعها للأسف الشديد اندثرت بفضل سياسية الانفتاح الاقتصادي للسيد الرئيس المؤمن وتحوّلت إلى أماكن انتظار سيارات، أو خرابات مهجورة.

* * * *

حذفه: أ

(3 / 5)

من الوجودية والتباسات الناصرية إلى
حتمية الفلسفة الماركسية

في رحاب الجامعة وتحت ظلال فاجعة
هزيمة يونيو، تلاشت الناصرية، وتراجعت إلى
المقاعد الخلفية الفلسفة الوجودية التي تتعلق
بأزمة الفرد في علاقته بالوجود والتي بدت ترفاً في
عالم لم يعد لنا فيه وجود، وحيث إن الصراع العالمي
كان يدور في تلك الفترة بين الإمبريالية العالمية
والمعسكر الاشتراكي، ولكون الخصم المعادي في
الصراع تمثل في التحالف والدعم التام والمطلق بين
الإمبريالية العالمية والصهيونية، الاستيطانية، وهو
ما انعكس في الصراع العسكري والسياسي
ونتائج، والذي أدى منذ عام النكبة (1948) إلى شل
جسد الوطن المصري والأمة العربية وسقوطه
مصاباً بالعجز الكلي عن الإمساك بإمكانات التطور
الطبيعي على كافة المستويات السياسية
والاقتصادية والاجتماعية والعسكرية، بصورة
يستحيل تجاهلها، حتى فيما بعد عندما تخلت مصر
عن الناصرية أو ما سُمي بالاشتراكية العربية،
وانتقلت من تحالفها مع المعسكر الاشتراكي، (الذي

حذفه: إلى المقاعد الخلفية

حذفه: العربي الإسرائيلي

حذفه: والدعم التام والمطلق من قبل
الغرب الاستعماري للدولة
الصهيونية، ...

حذفه: في

حذفه: مريضا

حذفه: ب

حذفه: القومية

كان على وشك الانهيار، ومعها غالبية الدول العربية إلى الخيار الأمريكي، تحالف لم تحصد في مقابله على "شروي نفي"، بل جرى تصدير الإسلام السياسي (الفاشي النزعة) وشرقت ثورة 25 يناير عن عمد بدلاً من دعم الآمال الشعبية المعقودة على ترسيخ مبادئ الحرية والكرامة الإنسانية، والشروع في بناء نظام ديمقراطي، ولا يزال الفقر والتخلف والفساد والجهل وانعدام الديمقراطية مصير الوطن، ولا تزال إسرائيل تعربد وتتفوق دون حياء على تاريخ البشرية فيما أنتجته من شرور ومظالم وقوى تدميرية تتجاوز ما أحدثه القصف النووي الأمر كي في هيروشينا ونجازاكي، وكان التطور الصفري والتخلف قد أصبحا قَدْرًا أبدياً لنا ولجتمعاتنا المحكومة بالنظم الاستبدادية.

في تلك الحقبة التي أعقبت الهزيمة المروعة، كان من الطبيعي أن تتحوّل أفكار الغالبية من أبناء هذا الجيل إلى تبني إما الفلسفة الماركسية، أو الأصولية الدينية، كان من الأسباب التي ساهمت في حسم هذا التغيير، أولاً، أنني أعي جيداً أنني أنتمي إلى الطبقات الفقيرة وما زلت، حتى ولو على المستوى الفكري والإنساني، وهذا وسام على الصدر. الأمر

حذفه: الم

حذفه: إبان

حذفه: أ

حذفه: ب

حذفه: ي

حذفه:

حذفه: ي

حذفه: ١

الثاني، أن تاريخ مصر هو سيطرة الإمبراطوريات الأجنبية على مقدراتها، وكبح قدرتها على النمو السياسي والاجتماعي والاقتصادي.

حذفه:

الآن تعاني الفلسفة الماركسية والمذهب الشيوعي من حالة ضمور حادة، ويتضاءل تأثير قوى اليسار على امتداد العالم، وإذا كانت الأسباب المتعلقة بالصراعات الاجتماعية والثقافية التي ساهمت في ظهور الاشتراكية مع الميل لتبني الديمقراطية لا تزال قائمة، وإذا كنت قد أصبحت مع الوقت أنتمي إلى الشرائح الدنيا من الطبقة البرجوازية الوسطى والتي تتهاوى إلى الحضيض بصورة متسارعة، لكن ما أبقى على وجودي متماسكاً هو ما تبلور لدي مع الوقت من عقيدة الرواية. حدث هذا في أثناء انهماكي في كتابة الرواية، وشغفي بعالمها الإنساني الجميل المعادي للظلم، وقيمها الأخلاقية الرفيعة والمحلقة في فضاءات الحرية والعدالة، والبحث عن سبل الرفاهية والسعادة للبشرية جمعاء.

* * * *

(4 / 5)

أول ناشر لي

اتحاد طلاب هندسة عين شمس

غرفة اتحاد الطلاب

حذفه: ¶

مطلع العام الدراسي 1970، غرفة اتحاد الطلاب بكلية الهندسة، جامعة عين شمس تُشع بنشاط وطاقته هائلين بقيادة مجموعة جادة ومخلصة ومحترمة من طلاب ناصريين بميول عقائدية تحمل سمتين؛ الأولى: وطنيون، وحدوديون، معادون للاستعمار، مؤمنون بحركات التحرر الوطني العالمي، والثانية: مؤمنون بمفهوم العدالة الاجتماعية.

* * * *

حذفه: أساسيين

حذفه:

حذفه: بالوحدة العربية، و

الحرية الفردية والديمقراطية

ليست على اللائحة

كان للديمقراطية مذهبان؛ الأول المفهوم الليبرالي الملتصق (أو الذي قُدِّم لنا بكونه ديمقراطية طبقة كبار الملاك، والأثرياء ورجال الأعمال)، والإمبريالية

حذفه: ¶

حذفه: (أعلى مراحل الاستعمار).

العالمية، والذي يمجّد الحرية الليبرالية على إطلاقها، على حساب الطبقات الفقيرة، ومبدأ العدالة الاجتماعية.

المذهب الثاني: الديمقراطية المركزية، الخاص بالمذهب الشيوعي والذي تبناه بفضاظة الاشتراكيون القوميون العرب، والعديد من حركات التحرر الوطني، المتمثل في الأنظمة الشمولية وسيطرة الحزب الواحد، وتفرعاته فيما سمي الجبهات الوطنية، والذي كشف فيما بعد عن سوت كبرى قبضة دموية نظم بوليسية قمعية معتقات تعذيب جهنمية بحجة حماية المصالح الشعبية.

حذفه: أ

حذفه: متمثل في

حذفه: من

حذفه: و

حذفه: ذلك

حذفه: ورجال الأعمال

وقد ترجم النظام على مستوى إعلام الدولة الاشتراكية ولدى أبناء الطبقات الفقيرة على كونه الاختيار بين حرية الرأسمالية والطبقات الثرية، أو حرية رغيف الخبز لحساب الطبقات الفقيرة.

حذفه: ساد

حذفه: العالمية

في زمن الصراع بين المعسكر الاشتراكي وقوى التحرر الوطني في مواجهة الإمبريالية، لم يكن لمبدأ الحرية الفردية (حيث الفرد في خدمة الجماعة)،

حذفه: بألوانها المختلفة؛ اليسار
الماركسي، اليسار القومي، إلخ...
ومن ثم ...

حذفه: مفهوم

حذفه: ..

حذفه: .

حذفه: للإنسان

حذفه: ال

حذفه: هذا

حذفه: من شباب

حذفه: في مصر

حذفه: ال

حذفه: في

حذفه: عين شمس

حذفه: كانوا

حذفه: ا

قيمة كبيرة لدى جماعات اليسار، لذا اعتُبرت
الديمقراطية الليبرالية سُبَّةً في جبين من يعتنقها.

إنه الاختيار الملتبس بين مبدأي الحرية والعدالة
وكيف لنا أن نستوعب إبان ذلك الوقت، أنه لا عدالة
دون حرية الإنسان، ولا كرامة دون عدالة، وأن
عدالة دون حرية تعني سجوناً كثيراً بينما المساواة
التامة قتل لطاقت وقدرات الإنسان الإبداعية، وأن
نظام الحزب الواحد وأشباهه الحديثة منتج
للفساد والاستبداد... هذا ما استوعبناه فيما بعد.

* * * *

كان الأصدقاء الناصريون (حيث التنظيم الطبيعي
والاتحاد الاشتراكي يسيطران على الحياة
السياسية)، يتولون قيادة اتحاد طلبة كلية
الهندسة والجامعة، وغالبية كليات الجامعة.

الغالبية العظمى من التيار الناصري في كلية
الهندسة يتكون انطباعاً بالاحترام والتقدير، وندرة
منهم (مثلهم مثل كافة التيارات السياسية الأخرى،
كل وما يلائمه من عيوب جسيمة)، حيث البعض

حذفه: منهم

مشروع مستبدون صغار... وللحق، يقال: إن هذه الظاهرة لم تقتصر على تيار سياسي بعينه.

* * * *

كان النشاط داخل غرفة اتحاد طلاب كلية الهندسة واتحاد طلاب جامعة عين شمس لا يتوقف بين رحلات ومعسكرات عمل وجوالة، وكان هناك جماعات أخرى تمارس أنشطة اجتماعية وفنية وعروضاً موسيقى ومسرحية... إلخ، وكانت ذات انتماءات مختلفة، أحدها ماركسي شارك غالبية أعضائه مظاهرات فبراير ونوفمبر 1968، وقامت أجهزة الأمن بالتمثيل بقادته، طردهم من الجامعة نقلهم للدراسة في كليات أخرى، تجنيدهم في الجيش، أمّا البقية فقد تم التمثيل بهم معنوياً، وإصاق بعض التُّهم الأخلاقية بهم، طلاب آخرون التحقوا بالجماعات الإسلامية، الغالبية مارسوا محض نشاط اجتماعي.

* * * *

حذفه: مثل

حذفه: أو

(5 / 5)

مجلة وحي الهندسة

{الزمن في الرواية} كنت قد انخرطت في النشاط

الثقافي وتوثقت علاقاتي بغالبيتهم ذات يوم أعلن عن

إصدار عدد جديد من مجلة صدرها اتحاد الطلبة

الكلية باسم (وحي الهندسة) وكان المسؤول عن

تحريرها أحد أنبل الشخصيات التي قابلتها في بداية

معتك النشاط الطلابي هو المهندس ماجد جمال

الدين، وكان يمتلك قدراً عالياً من الثقافة في الأدب

والفكر والسياسة، اجتمع الجميع على احترامه

ومحبته، وكان رفاقه يكتونونه لفرط حكمته

وتواضعه بلقب: (أمير المؤمنين).

قررت المساهمة في العدد، وأذكر أنني قدّمت

مقالاً يتناول كيفية صياغة بناء الزمن في الرواية،

متخذاً نماذج من الرواية العالمية.

بسبب المقال نلتُ تقديراً عالياً بين الجميع.

حذفه: 3

حذفه: ٩

حذفه: ت

حذفه: والذي

حذفه: و

حذفه: هو المهندس ماجد جمال

الدين، وكان يمتلك قدراً عالياً من

الثقافة في مجالات الأدب والفكر

والسياسية، وأيضاً التواضع

وكان مقدرًا محبوبًا ومحترمًا بين

أصدقائه، وكان رفاقه يكتونونه

لفرط سلوكه الحكيم بلقب:

(أمير المؤمنين).

{الزمن في الرواية}: ...

حذفه: وكنت قد انخرطت في

النشاط الثقافي وتوثقت علاقاتي

بغالبيتهم وكان غالبيتهم من طراز

رفيع. ...

مجلة الاشتراكي

وكانت مجلة الحائط التي أطلقنا عليها (الاشتراكي) التي نشرناها أنا والزميل رفعت بيومي في معسكر أقامه الاتحاد الاشتراكي في نادي الشمس (على ما تسعفني به الذاكرة)، سبباً في استدعائنا من قبل الدكتور (علم الدين فرغلي) رائد الاتحاد والمشرف على اتحاد الطلاب، وولنا قدرًا من التوبيخ المبطن بالتهديد بإحالتنا إلى مجلس تأديب، والإيقاف عن الدراسة، لكن اتحاد طلاب الكلية والجامعة تدخلًا بقوة إلى جانبنا، وكان (كالنا)، متماسكين غير أبهين بالعواقب أيما تكون، فقد كان الوطن محتلاً، وجماهير الطلاب على امتداد الجامعات المصرية على وشك الانخراط في أحداث جسام، لمطالبته بالحرب تحرير شبه جزيرة سيناء، ولم يكن هناك في العقول والقلوب ذرة شبهة من الخوف و التردد.. إنه الوطن.

* * * *

العام الدراسي (1970/1971)

فضلاً عن احتلال إسرائيل لشبه جزيرة سيناء وما صاحبها من اضطرابات طلابية واسعة الانتشار،

حذفه: استقبال

حذفه: و

حذفه: ا

حذفه: ،

حذفه: ل

حذفه: المحتلة

حذفه: أ.

حذفه:

حذفه:

حذفه:

أعوام 1968/ 1972 / 1973 وحتى مظاهرات الجوع 1977، عادة ما تقودها كلية الهندسة وكليات الحرم الجامعي، جامعة القاهرة، وكلية الهندسة، وطب عين شمس، ولا تلبث أن تنتشر في بقية كليات وجامعات؛ الإسكندرية وأسيوط والمنصورة؛ مؤتمرات واعتصامات يعقبها مظاهرات عارمة.

كانت العقيدة السائدة في الفن والتي تسيطر على عقولنا إبان ذلك الوقت، هي: الفن الملتزم بقضايا المجتمع، وهو ما جرى التخلي عنه بعد الهزيمة لصالح مستويات من الابتذال والسَّفَه، ولا يزال هذا الإبداع المصري الفني العظيم أسير صنَّاع الانحطاط.

* * * *

حذفه: 4

(6 / 5)

برنامج محو الأمية

حذفه: فيه

في عام 1970 لم أكتب رواية أو مجموعة قصصية وإنما ألفت برنامجاً مفصلاً يتولى طلبة الجامعات الانخراط في فصول لمحو الأمية، وكان شائعاً بين جماعات الطلاب اليساريين في الأحياء الشعبية والقرى، المساهمة في عمل فصول لمحو الأمية، أو دروس لرفع مستوى طلاب الإعدادي والثانوي.

حذفه: العديد من

كان البرنامج مميزاً مفصلاً، ولهذا قرّر اتحاد طلاب كلية الهندسة طبعه على نفقته في إحدى المطابع المجاورة لميدان عبده باشا بالعباسية.. تولى الأمر من قبل اتحاد طلبة الفارس النبيل، الثاني الذي التقيته إبّان ذلك الزمن، ولا يزال يضيء العالم حتى الآن برئاسته لنقابة المهندسين؛ الصديق العزيز المهندس طارق النبراوي.

حذفه: الكلية

يوم حملت النسخ المطبوعة من المطبعة إلى الكلية على هيئة (رزم)، كنت سعيداً للغاية، إذ كنت أحمل بين يدي أول مطبوعة لي في الفكر والعمل السياسي منحازاً لخدمة المجتمع.

كم عدد النسخ؟ ربما مائة، وربما ألف، لا أذكر على وجه التحديد، القيمة المالية التي دفعها اتحاد الكلية ربما أحد عشر جنيهاً.

إبان تلك الفترة جرت انتخابات وحدة الاتحاد الاشتراكي بالكلية، وتم ترشيحي من الرفاق، ونجحت على منصب الأمين المساعد، تولى الدكتور ذكي حواس منصب أمين الوحدة، وكان شخصيته تتسم باللطف والدمائة.

كان هناك مشروع تشغيل الطلبة، مقابل مكافأة شهرية تبلغ (خمسة جنيهات، وكانت كافية لطالب جامعي، تغنيه أن يكون عبئاً على أسرته)، وكان المشرف على المشروع وحدة الاتحاد الاشتراكي بالكلية، ودون تفكير ربطت فرص العمل للطلاب بمساهماتهم في مشروع رفع مستوى طلاب الثانوي.

جاء اليوم الأول أكثر من رائع؛ عشرات من طلاب
وطالبات الثانوي غصت بهم قاعات الطابق الأرضي
بالكلية، وطلاب كلية الهندسة يدرسون لهم مواد
الرياضيات والفيزياء والكيمياء، حضرت ناظرة
مدرسة البنات مع طالباتها للاطمئنان على بناتها،
في اليوم التالي وفي أثناء الدرس قام رجل الإدارة، ولا
أذكر اسمه بقطع الكهرباء عن الفصول التي يتم بها
عمليات التدريس، وهكذا تم القضاء على المشروع
في مهده.

بهذا الشأن، لم أتحدث مع أحد، ولم يتحدث معي
أحد، لا إدارة الكلية ولا اتحاد الطلاب، حتى أجهزة
الأمن داخل الكلية أو خارجها، ومضى الأمر كأن لم
يكن. أخبرني أحد الطلاب وكان ضمن فريق
الكارتيه، ضاحكاً أنه تولى مراقبتنا من قبل الأمن.

* * * *

(7 / 5)

ودون مقدمات التنظيم الطبيعي

الموافقة على طبع برنامج محو الأمية، يتعامل مع الجماهير في ظل نظام أمني اشتراكي قومي، يعني الانضمام قصرًا إلى عضوية التنظيم الطبيعي.

وهكذا ذات صباح شتوي بارد من شهر، لا أذكر، ربما يناير أو فبراير 1971 وجدت نفسي ودون سابق إنذار بصحبة الصديق طارق النبراوي، وكل من الصديقين (فخري عبد الغفور) و (ر. ب.) في مكتب السيد وجيه أباطة محافظ القاهرة في ذلك الوقت، ومعه شخص التقيته للمرة الأولى، وربما مرة أو اثنتين فيما بعد، وكان يُدعى أحمد حمادة، ودون مناقشات أو توضيحات حول ما نحن بصدده. وربما بعد ثمرات عامة، تحدث خلالها السيد وجيه أباطة معتذرًا عن خاتم ذهبي ضخم يتوج أصابعه، أو مبررًا تدخينه سيجارًا فاخرًا (إزاء نظرات امتعاضنا) بأسباب صحية، جرى إعلامنا (ودون أن يؤخذ رأينا

حذفه: 5

حذفه: ٤

حذفه: استبدادي

حذفه: ي على حين غرة

حذفه: في مكتب محافظ القاهرة

حذفه: بانضمام ثلاثتنا

حذفه: الانضمام

إذا ما كُنَّا نقبل أو نرفض) بانضمام ثلاثتنا إلى التنظيم الطليعي⁽³⁾.

وبغض النظر عن الأمور السياسية والمعتقدات الفكرية المتعلقة بالأمر برمته، أذكر ثلاثة أمور:

الأول، أن السيد وجيه أباظة كان يرتدي خاتماً ضخماً من الذهب لم يفته أن يعتذر لنا عنه، ولست أذكر سبب اعتذاره، ربما لأنه لاحظ نظرات الامتعاض في عيون شباب يساريين بحكم طبعهم ونشأتهم، لديهم ميل إلى تبني عقيدة الدفاع عن الفقراء، تجاه شخص يقدم نفسه باعتباره أحد قادة تنظيم سلطوي سري مهمته تأمين النظام الاشتراكي... أذكر دائماً أن العم "ماو تسي تونج"

حذفه: الأداء

حذفه: ال

حذفه: الشيوعي،

⁽³⁾ التنظيم الطليعي: اتخذ جمال عبد الناصر قرار تشكيل تنظيم سري في أثناء قيامه بمباحثات حول الوحدة مع قادة حزب البعث السوري -واعتقد- العراقي، إذ تبين له أنه لا يملك تنظيمًا فكريًا متماسكًا يمكنه من مواجهة التنظيمات السياسية الأخرى، مثل حزب البعث وفلاسفته، أمثال ميشيل عفلق، الذي ينتمي إلى الفكر القومي الاشتراكي، وكان كل ما يملكه تنظيم الاتحاد الاشتراكي الذي يتم انتخاب أعضائه مباشرة من قبل المواطنين، ومن ثم يتم انتخاب المؤتمر القومي العام، ثم انتخاب اللجنة المركزية والتي تقوم على انتخاب اللجنة التنفيذية العليا التي تتولى إدارة شؤون البلاد، وكان مثل هذا التنظيم يفتقد القلب العقائدي الفكري الذي يدير القضايا الفكرية والفلسفية التي تهتم أو تؤثر أو تخطط الحاضر والمستقبل، ولهذا قرر إنشاء تنظيم سري يضم العقول الفكرية والسياسية التي تميل إلى تبني وجهة نظر الزعيم، بغض النظر عن كونهم ينتمون إلى اليسار أو اليمين، الإسلام السياسي أو اليسار الاشتراكي، والشيوعي والمتوقع أن تكون غالبيتهم طلاب سلطة، أكثر من كونهم رجال فكر.

حذفه: أن

كان يعيش في غرفة وحيدة، وإنفاقه الشهري لم يتجاوز 49 دولارًا.

حذفه: وبعد ان

الأمر الثاني، أن السيد أحمد حمادة ودّعنا عند باب قاعة السيد محافظ القاهرة الضخمة، أعطانا مجموعة من كتيبات التنظيم الطليعي المهورية بخاتم سري للغاية، وضعتها وأغراضًا خاصة أخرى في خزانة بالصالة، وأغلقت عليها بمفتاح. عندما اعتقلت 1973، قام أحد أخوالي ودون استشارتي في حفل جماعي للعائلة، بالتخلص منها حرقًا، في ذلك الحفل ارتكبت جريمة فظيعة بشعة في متعلقات تخص صديقتي.

حذفه: والتي

حذفه: بعد مرور عام ونيف ودون استشارتي، ...

حذفه: كنت معتقلا

حذفه: حدث

حذفه: الأمر في حفل جماعي للعائلة

حذفه: خلاله

المهم أشار السيد حمادة، وكان المسؤول عن القطاع الطلابي في التنظيم، بجانب كفه نحو رقبته ومرره كحد السكين، مهددًا إيّانا بأن من يُفشي أسرار التنظيم سيتم قطع رقبته.

الأمر الثالث، أذكر جيدًا أنني والصديق فخري توجهنا في صباح اليوم التالي مباشرة إلى ملاعب التنس، وكانت تقع في منطقة نائية من ملاعب وساحات فناء كلية الهندسة الخلفي.

كان كالانا في حيرة واستياء، وأوضح كل منا
للآخر أننا شيوعيان وكنت إبان ذلك الوقت ولزمن
طويل لا أدرك الفارق بين أن تكون ماركسيًا وأن
تكون شيوعيًا. وبالطبع هناك فارق كبير... الآن يحق
لي الاعتراف (من أجل إقرار الحقيقة فقط)... أنني عدا
الوضع المفاجئ الذي وجدنا أنفسنا فيه أمام السيد
وجيه أباظة، لم ألتحق طوال حياتي بأي تنظيم
سري، سوى زمن عابر مر كلمح البصر، وهكذا
يمكن القول بشكل حاسم أنني والأهل وزملاء
العمل أطلقوا عليّ مصطلح (شيوعي) عن جهل أو
غباء

حذفه: ١

حذفه: ٩

... ،

حذفه: ني

حذفه: ،

لم أخسر الكثير كروائي أزعم أنه بعدم التحاق
بتنظيمات سرية، لم أخسر الكثير ولا القليل، إذ
كفتني عقيدة الرواية الإنسانية كل فكر
وأيدولوجية أيما تكون.

كما جاء... كما ذهب...

بسبب قيام اتحاد طلبته هندسة عين شمس
(ولهم كل التقدير)، بنشر مشروع محو الأمية 1970
فوجئت بنفسني (ودون أن يستشيرني أحد) عضوًا في

حذفه: وعلى حين غرة وهو ان أصير
(دون ان يستشيرني أحد)

التنظيم الطليعي، وأنا من سبق لي التخلي عن الانتماء الى الناصرية (مع الاحتفاظ باحترامها)، وأنا بعد في المرحلة الثانوية، وأصبحت أكثر ميلاً للمذهب الوجودي ومن ثم الماركسية. لا يهم، فبعد ثلاثة أشهر وفي أثناء امتحانات السنة الثانية قسم مدني سقط التنظيم برمتي، علمت ونحن داخل لجان الامتحان قيام مظاهرات بقيادة القيادات الوسطى للاتحاد الاشتراكي، والتنظيم الطليعي، وبعض قيادات النقابات العمالية، ضد الرئيس السادات، أعقبها قيام "السادات" بالقبض على كافة المناوئين، فيما سُمي ثورة أو انقلاب 15 مايو 1971.

وهكذا يمكنني القول بأن التنظيم الطليعي كان عقابي الأول على النشر الثاني لمشروع محو الأمية.

حذفه: الأول

تلاشى أمر التنظيم الطليعي من تلقاء نفسه، وانفضَّ المولد بلا حمص، ومضى النصف الأول من عام 1971 وكنت قد رسبت في تلك السنة ليس بسبب الانخراط في النشاط السياسي أو الثقافي، ولا الانغماس في الحب الجميل الذي استلزم مني كتابة عشرات الرسائل على ورق ملون عن الوجد والهوى، (وللأسف فقدت تلك الرسائل المخرقة في

حذفه: الانغماس

حذفه: الانخراط

حذفه: ، تحوي فقرات من العشق الملتهب ...

حذفه: وانما
حذفه: لأنني لم أتمكن من
حذفه: الأولي
حذفه: ايضا
حذفه: حضور
حذفه: انني لم احضر
حذفه: مادة
حذفه: ١
حذفه: 6

خليط من الرومانسية والعشق المتهب بسبب
وشايتة أحدهم)، ولكني رسبت بسبب عدم قدرتي
على توفير أهم الأدوات التي لا غنى عنها لطالب
الهندسة؛ المسطرة الحاسبة، والثانية لوحه الرسم.
أذكر أن صديقتي عاتبنتني لأنني تغيبت عن امتحان
مادة الكيمياء، وحتى الآن لا أعرف كيف علمت عدم
حضورى الامتحان، وكيف علمت أنها الكيمياء!...

* * * *

(8 / 5)

ممرات الصحافة.. الناشر الثالث
العام الدراسي (1971- 1972)

منذ هزيمة يونيو، خاض جيل السبعينيات كفاحًا
ضاريًا بين ممرات الصحافة والمؤتمرات التي أقيمت
في قاعات الجامعة والاعتصامات والإضراب عن
الدراسة والخروج في مظاهرات عارمة ضمت
ال جماهير العظيمة من الطلاب الذين ينتمون إلى
جامعات القاهرة وعين شمس والأزهر

والإسكندرية والمنصورة، وجميع الجامعات المصرية وحتى طلبة الثانوي.

بدا تردد النظام السياسي في خوض حرب التحرير يخيم على الحياة السياسية، وكان هذا دافعاً للمزيد من انخراط جماهير الطلاب وقطاعات عمالية في الكفاح لخوض حرب تحرير شعبية، من أجل تحرير سيناء، طلباً للمشاركة في الحرب وتعديل النظام السياسي ليكون ديمقراطياً وأكثر عدالة اجتماعية، من أجل التخلص من النظم الديكتاتورية التي أودت بنا إلى الهزيمة، ولم يكن هناك من يستطيع أن يكبح أو يمنع انخراطنا في العمل السياسي من أجل تحرير الوطن.

حذفه: من أجل

حذفه: المحتل

حذفه: :

جدران الكليات.. نشر علني ثوري

موجة عارمة من مجالات الحائط جرى نشرها على جدران ممرات وأروقة الكليات والجامعات المصرية، فيما سُمي ممرات الصحافة، موجة هائلة من عشق الوطن تقودها قلاع الحرب، انتشرت في كافة الكليات والجامعات المصرية.

* * * *

الاعتقال الأول

مررنا بظروف قاسية ونحن نمارس ضغطاً هائلاً على النظام السياسي من أجل دخول الحرب، وكان الثمن دخول السجن لفترات قصيرة أو طويلة، وإن كنا لم نذق مرارة وعنف وقسوة سجون الستينيات، كنا أبناء حركة جماهيرية وطنية، ولهذا لم يكن بإمكان النظام السياسي استخدام أساليب القمعية القسوى التي اعتاد على استخدامها في معتقلات الأوردي والوادي الجديد.

حذفه: ال

في الرابع والعشرين من يناير 1972 اقتحمت قوات الأمن المركزي قاعة المؤتمرات الكبرى بجامعة القاهرة، وقاعة فلسطين في كلية هندسة عين شمس، وكلية الطب بجامعة عين شمس، وقامت على فض اعتصامات الطلاب بالقوة بعد أن فشلت في تفجيرها بواسطة عمالها من الداخل. ألقى القبض علينا لفترات قصيرة التقى أربعة منا في سجن الاستئناف، أنا ونبيل صبري، ومحمد فتوح - وكان يتولى أمانة اللجنة الثقافية باتحاد الطلاب- ورفعت

حذفه: و

بيومي، خرجنا أشد عنفًا ورغبةً في النضال من أجل دفع النظام لخوض الحرب، وكان السادات يتسول أوهام سلام مخادع من الولايات المتحدة وإسرائيل.

لم يعد الأمر يتعلق بالدفاع عن سوريا التي خانت الوحدة منذ سنوات قليلة، وها نحن ندفع الثمن جميعًا، أو استعادة فلسطين التي أصبحت أضغاث أحلام بعيدة المنال، إنها شبه جزيرة سيناء التي صارت محتلت، يعيش فيها جيش الدفاع الإسرائيلي فسادًا... لقد أريق شرف الوطن، وكانت جماهير الطلاب وكافة الشعب المصري على استعداد للموت من أجل استعادة الشرف المراق.

جماعة 24 يناير:

ما إن غادرنا سجن الاستئناف، فبراير 1972، قرر أربعتنا تشكيل جماعة تحت اسم (جماعة 24 يناير)، لاقى البيان الأول صدى واسعًا وسط الطلاب، لكنه كان الأخير أيضًا بسبب تدخل قادة ناصريين لم يعجبهم الأمر.

حذفه: كان قد تبلور

تبلور بجوار الاتجاه الناصري اتجاه يساري
ماركسي يضم مستقلين، وآخرين منتمين لتنظيمات

سريته. تولى هذا التيار قيادة مجرى الأحداث التي جرت وحتى انتفاضة الخبز، يناير 1977.

* * * *

الاعتقال الثاني

هكذا جاء النشر الثالث لي فيما أطلق عليه (ممرات الصحافة) والانخراط العام في كتابة وتحرير مجالات الحائط، وكان في مجمله مقالات تطالب بحرب التحرير الشعبية والديمقراطية والعدالة الاجتماعية، وحرية تشكيل الاتحادات الطلابية ورفع الوصاية عنها.

ونظرًا لقيام بعض الطلاب من عملاء الباحث والجماعات الإسلامية بتمزيق المجالات في نهاية اليوم الدراسي أو الشطب عليها وكتابة عبارات مخلية، عقدنا اتفاقاً فيما بيننا بأن يتولى أحدنا في نهاية كل يوم دراسي جمع كافة مجالات الحائط وأخذها معه إلى منزله، ويأتي بها في صباح اليوم التالي ويعيد تعليقها بنفسه في مواضعها السابقة ما أمكن.

حذفه: في نهاية اليوم الدراسي

مجلتي.. ومجلات الرفاق

في فجر التاسع والعشرين من ديسمبر 1972، داهم منزلي مجموعة من الشرطة السريية، ربما مباحث أمن الدولة، وكان قد تجمع على رف النافذة الحجري العريض أعداد كثيرة من مجلات الحائط التي كان عليّ الدور في حفظها من تلف الخصوم، وهكذا توجهت مغفوراً في سيارة فيات 128 حمراء إلى مبنى وزارة، الداخلية، في "لاظوغلي"، ومنه إلى معتقل القلعة، ومعني دليل اتهام وإدانة لا يمكن دحضه.

أمام وكيل النيابة، أعلنت بوضوح أن كل المجلات التي تحمل أسماء الرفاق هي من صنع قلبي وكتابتي، وكان الجزاء على عملية النشر الثالثة هو الاعتقال، وتم الإفراج عني في منتصف أغسطس 1973 قبل أسابيع قليلة من شن النظام حرب أكتوبر.

كان الغالبية الساحقة من رواد ممرات الصحافة وكتابها طلبة يساريين، لم يتخرج غالبيتهم العظمى في رحم أحزاب ماركسية أو شيوعية أو حتى ليبرالية، فقد تولى النظام الناصري سحق الحياة الحزبية، ولم يترك فسحة من هواء للتنفس، وهي الكارثة، أو العيب الخلقى الذي عانت منه الحياة

السياسية والثقافية والاجتماعية، ومن ثم الاقتصادية حتى اللحظة الراهنة، فاللعنة على تلك الأخطاء أو الكوارث التي تسببت في دمار شامل!

"لقد فُطمنا"

"لقد فُطمنا" هذه عبارة قالها الصديق علاء بكيش من قادة طلبة هندسة القاهرة في وصفه للعلاقة التي تطورت من التبعية إلى النضوج بين جيل السبعينيات والنظام الناصري والناصرية، فمن ألعاب القدر أن ذلك الجيل الذي خرج من رحم النظام الناصري ونشأ وكبر وصهره فرن الثقافة السائدة إبّان عصر ثورات التحرر الوطني، أذكر أن الصديق علاء بكيش قال عبارة ملهمة تختصر وصف عملية (قطع) الحبل السري الذي يربط جيل السبعينيات بالنظام الناصري. حدث ذلك في أثناء اللقاءات التي كنت أقوم بها خلال إنجاز مشروعى الخاص بتاريخ الحركة الطلابية لجيل السبعينيات، وللأسف سطا عليه أحدهم، ووضع عليه اسمه، المهم قال علاء بكيش:

"لقد فُطمَ جيلنا من الناصرية".

حذفه:

حذفه: جمال

ما كان يعنيه أن هزيمة يونيو كانت السبب في فطام جيل السبعينيات وفصم علاقته بثورة يوليو والرئيس عبد الناصر، بل والخروج في مظاهرات فبراير ونوفمبر 1968 الحاشدة ضده، وضد النظام الناصري، والمطالبة بعدد من المطالب الجوهرية، على رأسها الحريات، الديمقراطية، رفع الوصاية عن الاتحادات الطلابية، العدالة الاجتماعية، حرب التحرير الشعبية بوصفها الإستراتيجية المناسبة لمواجهة الجيوش النظامية الإمبريالية الحديثة.

* * * *

حذفه: آل

حذفه: المطلقة

فترة ذهبية من حرية بلا تخوم

كانت فترة ذهبية من الحرية المطلقة، ولم أفهم لماذا تكون الهزيمة المدخل المخجل للحرية، فما إن أنجز السادات حرب أكتوبر والنصر الملتبس المنقوص، حتى عاد الاستبداد يُخيم بظلاله السوداء على حياتنا، ولم يتم الاكتفاء بالتضحية بأحد الأجيال التي عشقت الوطن، (وأعني جيل السبعينيات)، والتضييق عليهم، إلا مَنْ باع شرفه، بل جرى تدمير النظام التعليمي بأكمله، حتى لا يتسنى

حذفه: ولا العمر

للطلاب الوقت الكافي للمشاركة في الحياة الثقافية والرياضية، فما البال بالسياسية، جرى القضاء على مجانية التعليم كانتقام النظام السياسي من الطلاب، وقد ترك لطاعون الدروس الخصوصية والتعليم الخاص يستشري في حياة المصريين.

* * *

الحرية والجدارة تحت ظلال الهزيمة

أمام الإصرار الشديد من قبل الحركة الطلابية وجموع المصريين على الحرب وتململ الجنود في الخنادق من أجل التحرير، وتجاهل العدو الإسرائيلي والولايات المتحدة، عروض السادات للسلام، وجد الرئيس المؤمن نفسه في مأزق انتهى به إلى اتخاذ قرار خوض حرب أكتوبر 73، كان مضطراً، ولذا كانت تلك الحرب حرب تحريك الموقف على الجبهة، وليست حرب تحرير.

على أي الأحوال من الضروري الإشارة إلى أنه في تلك الفترة كان الانغماس في العمل السياسي

حذفه: وصغار الضباط

حذفه: ووجه

حذفه: عروض السلام

حذفه: بتجاهل لقد

حذفه: هي

حذفه: ال

الوطني تمييزاً وشرفاً، وكان الغالبية ينظرون لأولئك الطلاب والشباب الثائر بتقدير واحترام، فلم يتم الانتقام من طالب شارك في مظاهرة أو أمضى شهوراً في السجن، أو جلس على منصات المؤتمرات، أو كتب مقالاً معارضاً للنظام السياسي في مجالات الحائط المعلقة في ممرات الصحافة، لم يحدث هذا، وأذكر أن السجنون التي غصت بالطلاب المعارضين أخذت تخف شيئاً فشيئاً.

أذكر وجود خلاف بين الطلاب المعتقلين؛ اتجاه يرى الامتناع عن دخول الامتحانات بحجة أن هذا سوف يضعف الحركة الجماهيرية خارج السجن، والتي كانت قد ضعفت بفعل قرب موسم الامتحانات، وآخر يرى أهمية دخول الامتحان دار جدال كبير بين المتشددين والموضوعيين، انتهى بانتصار الاتجاه الثاني.

أتاحت الجامعات للراغبين دخول الامتحانات، وأفردت لهم لجاناً، وعندما حان أوان الامتحان، جاءت لجان الامتحانات في السجن، ونجح الكثيرون، أما كلية الهندسة فلم تُرسل أي لجان، رغم وعودهم.

حذفه: معارضة للنظام السياسي

حذفه: من

حذفه: عدم

حذفه: وفي الحقيقة

حذفه: ح

في الخامس عشر من أغسطس 1973، أي قبل أقل من شهرين من نشوب حرب أكتوبر، تم إفراغ السجون من الطلبة المعتقلين، توجّهنا من فورنا إلى إدارة الكلية نطالب بدخول جميع المواد في امتحانات "المُلْحَق"، وكانت السيدات الفضليات العظيمات من أمهات الطلبة المعتقلين قد سبقن في الأمر، وقد تصرفت إدارة الكلية برُقي شديد، وأتاحت للطلبة المعتقلين دخول "المُلْحَق".

وهنا أذكر أمرين؛ أن أحد زملائنا، وهو الطالب نبيل سعد الدين صبري، خرج في 15 أبريل 73، ودخل الامتحان، كان يدرس في السنة الثانية، قسم ميكانيكا، ونجح بتقدير امتياز، حصل على الدرجات النهائية، أما أنا وقد أُتيح لي دخول جميع المواد، وكنت أدرس بالسنة الثالثة، قسم مدني، وعندما ظهرت النتيجة كنت قد تمكنت من النجاح واجتياز السنة التي تُعد من أصعب سنوات قسم مدني في هندسة عين الشمس، ساعدني الكثيرون من الأصدقاء والمتعاطفين، كانت إدارة الكلية تأتي يوميًا كي تتأكد، وتطمئن على وجودي في اللجنة، وكان هؤلاء الأساتذة العظام ينظرون إلينا بالتقدير والاحترام.

* * * *

9 / 5)

انتقام الشيطان

تدمير منهجي للمؤسسة التعليمية

في الأعوام التالية، تم إلغاء نظام "الملحق"، وبدلاً من النظر بتقدير من النظام السياسي إلى الحركة الطلابية التي أثبتت وطنيتها واستعدادها للموت من أجل الوطن، مكّنت النظام من التخلص من مأزق أوقعه فيه ترده وضعفهم، تم اتخاذ رأيي الخاص القرار المتعلق بتدمير التعليم، وقد قاد هذا المنهج وزير التعليم الدكتور حسين كامل بهاء الدين، فلما يتخلص النظام من ضغوط الحركة الطلابية التي بدأت عقب هزيمة 67 وحتى مظاهرات الخبز 1977 قرر القضاء على مجانية التعليم، في مراحل التعليم المختلفة، فضلاً عن الجامعي، وأصبح التعليم الخاص هو الطريقة المتاحة كي يستطيع الطلاب استكمال دراستهم، الأمر الثاني، هو ارتفاع درجات النجاح في الامتحانات بما يتجاوز الـ100%، وكان حلم دخول كليات القمة يعني لطالب الثانوي الحصول

حذفه: 7

حذفه: ال

حذفه: القرار

حذفه: منذ

حذفه: في

حذفه:

حذفه: سواء

حذفه: التعليم الإعدادي أو الثانوي أو في الجامعات

حذفه: ،

حذفه: الهندسة أو الطب

على نسب نجاح تتجاوز الـ95%، وبهذا أصبح على الطالب أن يدور مع أسرته في ساقية اسمها الدروس الخصوصية، وأصبح على من يرغب في الدراسة في كليات القمة، مثل الهندسة والطب والسياسة والاقتصاد، أن يلتحق بالجامعات الخاصة، وفي هذه الحالة عليه أن يدفع مبالغ طائلة، فمن هو ذلك الطالب الذي سوف يغامر في دراساته ذات التكاليف المرتفعة من أجل أن يخوض في قضايا تتعلق بالسياسة أو الثقافة الخ. ولم يأت التعليم الخاص بنتائج محترمة.

حذفه: العاليت

حذفه: أو كذا

وكما كان القضاء على مجانية التعليم، كان القضاء على العدالة الاجتماعية في توفير المساواة في فرص التعليم العالي الذي يعد هدفاً رئيسياً للأسرة والمجتمع المصري في توفير حياة اجتماعية راقية لأبنائهم، ولدى مجتمعات المتحضرة، التي ترغب في التطور.

حذفه: ل

حذفه: ولدى الأسر لتوفير ظروف حياة اجتماعية راقية لأبناءهم.

حذفه: لقد

حذفه: للتخلص

حذفه: الحركة

حذفه: علي النظم السياسية

حذفه: ينغمسون

عوقب المجتمع المصري بتدمير البنية الأساسية للتعليم، لتحرير النظم السياسية من تأثير القطاعات الطلابية عندما تنشط من أجل الوطن.

هشموا رؤوسنا

العقاب الثاني، تم توجيهه تجاه جيل السبعينات، وقد تم ذلك بإخراجه من الحياة السياسية والثقافية، لقد أصبح جيلاً منبوذاً من قِبل المؤسسات الثقافية والسياسية، بشكل عام نجا مَنْ تواطأ مع النظام وتدرّج في مناصب رفيعة، نجا مَنْ قَبِل بخراب الحال وشارك فيه، أمّا مَنْ حافظ على شرفه، فكان نصيبه وقدره العقاب بالنبت من الحياة العامة.* * *

حذفه: جيل السبعينات

حذفه: نصيبه

حذفه: أ

٩

حذفه: <#>

(10 / 5)

في البلاد المتخلفة

في البلاد المتخلفة والنظم الاستبدادية، لماذا يقع
الأذى والظلم بالشرفاء والمبدعين من أصحاب
الكفاءات والجدارة؟

لماذا يفضلون الأشرار والفاستين والمنافقين
والجهلاء.

* * * *

B. إلى بلاد النفط

حذفه: <#>الفصل السادس
إلى بلاد النفط ...

الفصل السادس

ليبيا الشقيقة

(1 / 6)

وصية من أبي

حذفه: العودة إلى المهام التي وضعتها على عاتق حياتي

حذفه: أو

حذفه: مثل

حذفه:

حذفه: مشهد بارد بقي موضوع على حاله، ...

عقب التخرُّج، عام 1974 جاءني دعوة للسفر، تختص بإتاحة العمل في بلاد النفط، فاضت البيادر بسنابل القمح، وحان أوان الحصاد. في الثامنة من عمري أوصاني أبي، وهو مُمَدِّد على فراش الموت بالاهتمام بإخوتي، وقد ظل هذا المشهد بارداً مُجمِّداً موضوعاً على حاله في خزانة الذاكرة مشهد طالما تكرر في روايات وأفلام عديدة، أستعيده أحياناً دون أن يكون له تأثير يُذكر، بينما الدافع الجوهري تجاه الأسرة والعالم، كان ينبع من مسؤولية أخلاقية تأسست في حياتي مع فن الرواية، والاستمتاع بالتبحُّر في العلوم الإنسانية، والاختيار المطروح دوماً، طبقاً لمعايير الخير والشر.

في يونيو، من عام ألف وتسعمائة وأربعة وسبعين حصلت على بكالوريوس الهندسة المدنية، قسم

الإنشاءات من كلية الهندسة جامعة عين شمس،
والتي تُعد العقد بين كليات الهندسة في الجامعات
المصرية، تحقق إمكانية توفير حياة مادية مستقرة،
بينما لم يتوفر الوقت ولا الظروف المناسبة لكي
أشرع في تحقيق حلمي وشغفي الكامن في الروح
والعقل، يتوثب بانتظار لحظة أن يرى النور وهو أن
أصير روائياً، وحتى ذلك الوقت لم أكن قد شرعت في
كتابة نص روائي، كل ما سبق يتعلق بالانهماك في
إقراءة ولم أمارس هواية الكتابة إلا عبر خطابات
عشيق ملتهب كنت أكتبها بانتظام للفتاة التي
أحببتها، وكانت تواظب على تلقيها بلهفة وشوق،
وتجيب عليها بموهبة لغوية عالية، فضلاً عن ثلاث
قصص قصيرة، عندما عرضتها على أصدقاء، قال
أحدهم إنها تقليدية، لم يقل إنها ضعيفة، وكانت
إحداها عن مطاردة لأحد مناضلي الحرية في جنوب
إفريقيا على مسار للسكك الحديدية، وضعتها
جانباً، وأغلقت ملف الكتابة الإبداعية، وعدت إلى
دراستي والنشاط السياسي الوطني حتى تخرجت
في الكلية.

* * * *

حذفه: على بكالوريوس الهندسة
المدنية قسم الإنشاءات من كلية
الهندسة بجامعة عين شمس، ...

حذفه: قد

حذفه: الحلم الثاني

حذفه: في حياتي أن أصبح مهندساً،

حذفه: الحقيقي

حذفه: ، وشغفي الاول

حذفه: بعد

حذفه: كان

حذفه: ،

حذفه: على ورق ملون

حذفه: أ

هل حقًا سأتمكن من السفر؟

كانت احتمالات السفر المتاحة الى الخارج معدومة، لأسباب كثيرة، منها التاريخ السياسي وشروط التكليف الهندسي التي تمنع على الخبير الحد من السفر قبل إتمام مدة التكليف في إحدى شركات القطاع العام أو المصالح الحكومية، والتي لا تقل عن عامين، وأخيرًا الموقف من التجنيد. قلت إن علي الاستسلام لمصري، وأن أتصرف طبقًا لما سوف تأتي به المقادير.

حذفه: المهندس

كانت أولى الخطوات استخراج جواز سفر من مجمع التحرير، وكنت على ثقة كاملة بأنني لن أحصل عليه، وإن حصلت سيكون ممهورًا بختم يضم اشتراطات أداء الخدمة العسكرية، الانتهاء من أداء مدة التكليف وظروف غير متوقعة قام أخي الأصغر بالتوجه لأداء الخدمة العسكرية، ومن ثم أتاح لي الحصول على إعفاء مؤقت من الخدمة العسكرية، رغم ذلك يظل الموقف من التكليف عقبة يصعب حلها، مع بقاء احتمالات قوية باعتراض الأجهزة الأمنية.

حذفه: كالا من الانتهاء من

حذفه: مع شرط

حذفه: والتي لم تكن تقل عن عامين،

حذفه: ال

حذفه: من

حذفه: بسهولة

حذفه: غير مفهومة

حذفه: ،

حذفه: على أحد ارضية ميدان

التحرير، ...

حذفه: الجانب الآخر كان يتمثل في

حذفه: ال

حذفه: ال

حذفه: ،

حذفه: و

وعلى عكس التوقعات كانت الأوراق والمستندات تخرج دونما عراقيل، وعندما وقفت أخيراً في مبنى مجمع التحرير وفي يدي جواز السفر بسهولة شديدة غير مفهومة، غادرت مبنى المجمع وأنا في حالة ذهول، أنظر إلى ما بين يدي؛ جواز سفر لجميع الدول العربية والأوروبية لا توجد عليه أي موانع، أتذكر جيداً أنني جلست على أحد ارضية ميدان التحرير وقدماي على الأسفلت وسط حركة السيارات و"الباصات" المزدحمة غير متحمس، وأنا لا أفهم هل حصلت فعلاً على جواز سفر، وأني أستطيع السفر أم لا؟... لست متأكداً.

* * * *

مسؤولية سياسية

أذكر أن عدداً كبيراً من رفاق النضال بكلية الهندسة قدموا لوداعي في محاولة لإثنائي عن السفر، فعلوا ذلك دون ضغوط وبلطف شديد.

* * * *

حذفه: ¶

¶

¶

... (2 / 6)

حذفه: <#> ¶

(2 / 6)

الطريق إلى ليبيا

في الحادي والثلاثين من ديسمبر 1974 عبرت الحدود المصرية الليبية على الطريق الساحلي الدولي في سيارة أجرة من **طرلة** بيجو ستاشين (504)، وكان مشهد الطريق الساحلي **سحر خاص**، الإسكندرية، الضبعة، العلمين، مرسى مطروح، السلوم، ثم عبور الحدود عند قرية مساعد توالت المدن الليبية، بردى، طبرق، درنة الجميلة، مدينة البيضاء، المرج، ثم بنغازي، حيث نهاية الرحلة.

هكذا كان الطريق الساحلي الدولي هو البنية الأولى والمدخل الدرامي الذي أسست عليه فيما بعد، رواية "مراعي القتل".

* * * *

في معسكر تابع للجيش، عملت مهندس تنفيذ في شركة مقاولات، وكان صاحبها شاباً ليبيًا شديد الذكاء، جم الطاقة، الوجه الآخر له كان كبير الملاحظين، أربعيني، بالغ القبح، سادي، شديد العنف، شديد القسوة يدير أعمال التنفيذ في الموقع الضخم، ولكن لم يكن هذا كل شيء، على أرض الموقع الذي يضم منشآت هائلة عديدة، ومخازن للسلاح، وساحات للمدرعات وأخرى لتدريب الجنود وعنابر للنوم ومراكز للقيادة، كان هناك جنسيات عربية مختلفة؛ سوريون، فلسطينيون، مصريون، سودانيون، قليل من اللبنانيين، وكانت العمالة المصرية هي ملح الأرض.

كان الصراع بين الجنسيات العربية على أشده، صراع لا يعرف الرحمة ولا التعاطف، وإنما صراع على جمع المال بغض النظر عن القواعد الأخلاقية، أو للعمل، فخزائن الجيش أو النفط كانت مفتوحة

حذفه: شديد الذكاء،

حذفه: الذي يدير أعمال التنفيذ في الموقع الضخم،

حذفه: ليبي آخر،

حذفه: ، بالغ القبح

حذفه: و

حذفه: و

حذفه: وعدد

حذفه: هم

حذفه: يعرف

حذفه: الاقتصادية

حذفه: يجمعهم

حذفه: سواء كان ذلك الرابط في

حذفه: أو

حذفه: أو

حذفه:

حذفه: أو

حذفه: ،

حذفه: ¶

بينما ...

حذفه: الش

حذفه: وجودا

حذفه: .

حذفه: داخلية

حذفه: بين جماعات المصريين

حذفه: ولهذا

حذفه: ذلك

حذفه: المطلق

حذفه: ذ

على مصراعيها، وهناك في تلك الأيام تساقطت تلك الأوهام العذرية عن حلم الوحدة العربية.

كان السوريون أشد الشخصيات شراسته، وكان لهم نمط في العمل يمكنهم من تشكيل وحدة متماسكة، سواء في مواجهة أصحاب العمل، أو أجهزة الشرطة وحتى النظام السياسي، كان السوريون يبحثون عن أي رابط أو أي وثاق يجمع فيما بينهم يشدهم بعضاً إلى بعض، الانتماء للأسرة العائلة القرية الضيعة أو محافظة اتسم الفلسطينيون بالقوة، يسلكون سلوك الذئاب المنفردة القادرة على إبراز أنيابها، حينما تحتاج الأمور.

المصريون كانوا ملح الأرض، الأقل شأنًا، الأضعف والأكثر تفككًا وامتهانًا وقبول المهانة، كان يُشاع قصص متواترة عن نزاعات بينهم تتسم بالحطّة، السودانيون يتسمون بالحلم والأخلاق الحسنة وبوجود خالٍ من الصراعات الداخلية، أو مع أي جهة أو جنسيات أخرى، ولا يمكن تجاهل الجمال والسلوكيات الرفيعة التي اتسم بها اللبنانيون في ظل ذلك الوجود المشتعل غضبًا وتنافرًا.

حذفه: اللهب

حذفه: منذ سنوات قليلة

حذفه:

حذفه: ا

حذفه: ؛

على رأس التلة، يترع بدوي يمسك بسوط من العنف وشعور بالتميز والتفوق، من المال والنفوذ والسلطة، بدوي غادر منذ سنوات قليلة، بيوت التنك والصفيح وقضاء العمر في رعي الأغنام، وصاعدًا بقوة النفط، وقد أصبح يعمل لديه تلك الجنسيات التي تمتلك حضارات عريقة.

كيف يمكن التعبير عن طبيعة وجوه الشخصية المصرية، وهي تترنح أمامي وتتهاوى بكل هذه المذلة والضعف والامتهان أمام سطوة وعنف البدوي، والصراع الدموي حول المال؟ هكذا ظهرت إشكالية الكتابة الأولى.

في رواية "مراعي القتل" أمضيت ثمانية عشر عامًا لأجد مخرجًا من هذا المأزق الأخلاقي والفني المتعلق بطبيعة الهوية المصرية وإشكالياتها

* * * *

الفصل السابع

البدء في ممارسة فن الرواية

حذفه :

(1 / 7)

حذفه: ٩

٩

حذفه: ؛

حذفه: وهو أن أصير روائية،

حذفه: لها

حذفه: منتصف عام 1978

حذفه: أول

حذفه: حياة

حذفه: ة

منحة تفرغ ذاتية الإنفاق بعد عام من حصولي على بكالوريوس الهندسة وسفري إلى بلاد النفط، بالتحديد منتصف يوليو 1975، وبعد عمل شاق كمهندس تنفيذ في واحدة من كبرى شركات المقاولات في الشرق الليبي، وكان عملي بموقع عمل في معسكر ل سلاح المدفعية، غرب مدينة بنغازي، استمر لمدة تقارب سبعة أشهر، صار عليّ أن أهتم بتحقيق الحلم الذي وهبت له نفسي استقلتُ من عملي وجلست متفرغاً لعشقي وشغفي الذي لا يداني، وبدأت في كتابة مخطوطة رواية تروي عن حياة المصريين في بلاد النفط، والتي أطلقت عليها فيما بعد "مراعي القتل"، وقد نُشرت الطبعة الأولى عام 1993، أي بعد ثمانية عشر عامًا من بداية كتابتها.

لم تكن الرواية الأولى التي نُشرت لي، كانت الثالثة بعد روايتي "العُرس" و"نهر السماء"، ولكنها كانت أول نص روائي شرعت في كتابته، متأثرًا بما أراه من واقع المصريين الشديد الحرارة في بلاد النفط المثير للشفقة والألم والحزن، وأنا الشاب الذي يؤمن بالوحدة العربية بلا منازع.

اعتكفت في شقة صغيرة بعمارة شاهقة في مدينة بنغازي لمدة ستة أشهر أكتب دون توقف، لم يكن دافعي الرئيسي متعلقًا بالكيفية الفنية التي

يجب أن يكون عليها المحتوى، بل كان ملء صفحات
المذكرات (الفكرات الخاصة بالتقويم السنوي) التي
وضعتها أمامي، واحدة تلو أخرى
في الحقيقة، كنت أقيء من ذاكرتي كل الترهات
التي تشكّلت طوال تاريخ معرفتي وإطلاعي على فن
الرواية، تطاردني مشاهد الامتحان والاستعلاء
والتعسف الذي يعاني منه مئات آلاف من المصريين من
جنس العرب، وخاصة أصحاب البلد، فضلاً عن تهتك
الشخصية المصرية وضعفها أمام الآخرين، وكروائي
يعتز بمصريته، تحوّلت تلك العبارات التي استخدمها
الجميع إلى سكين في القلب؛ سوط يلهب العقل
والكرامة...

{غلابة يا مصريين}

"الشعب المصري مسكين"

شخصيات غير واقعية

كنت أتعلم الكتابة ومع ذلك كنت أمارس تحدياً
حول كمية ما أجزه وما أخطئه من الحبر فوق
صفحات الفكرات السنوية، وكمشروع روائي
مبتدئ يخط للمرة الأولى نصاً روائياً،

حذفه: ،

حذفه:

حذفه: الجنسيات

حذفه: بيتة الأخرى

حذفه: الظهر و

حذفه:

حذفه: و

حذفه: مع ذلك

حذفه: أكتبه

حذفه: من

حذفه: المذكرات

حذفه: على الورق

حذفه: الجياد

حذفه: ي

حذفه: المجاورة للمصرف الكبير

حذفه: والخضار

حذفه: ويتبادلون

حذفه: •

حذفه: فظة

ابتدعت شخصيات لفلاحين يمتطون الخيول في الأعياد ويتسابقون بحمية على الطرق الترابية، في أثناء مواسم البرجاس⁽⁴⁾، والذي يتم سنويًا عقب صلاة عيد الفطر والأضحى، ويتربصون بأبناء القرى المجاورة ويتقاتلون معهم، ويهاجمون الدور والحقول ليلاً؛ يسرقون كيزان الذرة... ولقاءات العشق مع الفتيات.

الحقيقة الصادمة أن عدد الخيول التي كانت لدى كبار الملاك في قريننا لم يتجاوز الأربعة، تُستخدم في جر مركباتهم من الحنطور، والبقية تُستخدم في عربات الجر (الكارو).

كان البرجاس لفرط السخرية يضم مئات الحمير وعددًا نادرًا من البغال والجياد الأربعة التي يمتلكها أثرياء القرية، ولم تكن خيول سباق أو حرب، وكان هذا حماقة رومانسية ما بعدها حماقة، وزيفًا فاضحًا كنت أرسم على الورق

(4) البرجاس: سباق بين المئات من الفتية والشباب على ظهور الحمير والقليل من الجياد والبغال.

حذفه: وبحث عن

حذفه: ت

حذفه: ي

حذفه: بطولات ل

حذفه: والمغول

حذفه: أ

حذفه: * * * *

حذفه: مذكرات

حذفه: اللفظة

حذفه: كثيرا ما

حذفه: أ

شخصيات لفلاحين مصريين يرتدون أثواب فرسان القوزاق.

ثلاث (مفكرات) سنوية ونصف من الحجم الكبير، أي ما تجاوز ألفاً ومئتي صفحة، فاضت بقصص وحكايات رومانتيكية رخيصة فظة، تخلصت خلالها من كل ما يمكن وصفه بخزعبلات المبتدئين، وأورام الرومانتيكية الفجة، وتلك العيوب التي تلتصق بكاتب في بداية المشوار، ومنها الترهلات التي تصاحب العقل الروائي في أثناء البدايات.

في نهاية عام 1975، جاءني عقد من إدارة الأشغال العسكرية التابعة لوزارة الدفاع الليبية، بدأت عملي في مقر الإدارة في مدينة بنغازي، بالإشراف على المنشآت الجاري إنشاؤها في معسكرات الجيش، ثم نقلت إلى مدينة طبرق الساحلية، جمعت المفكرات الأربع بحرص شديد، واحتفظت بها جانباً ولم أعد إلى تلك المفكرات التي تحوي مخطوطة رواية "مراعي القتل" الأولى، ولم كن قد أطلقت عليها اسماً بعد، إلا بعد ثلاثة عشر عاماً أي

عام 1988 عندما سافرت إلى ألمانيا، للحصول على
دبلوم تخطيط الأنفاق.

* * * *

(2 / 7)

المشائق في قلب بنغازي

طوال سبعينيات القرن الماضي كان مركز المقاومة
ضد "العقيد" يأتي من الشرق، وكانت الإشاعات
كثيرًا ما تحمل أنباءً عن اكتشاف متفجرات أسفل
المنصة التي سوف يُلقى من عليها خطابه. في العام
الأخير، خرجت مظاهرات عارمة من جامعة بنغازي
تطالب بالديمقراطية، استقبلها النظام بعنف وقمع
كعادة النظم القومية الاستبدادية، لكن الأسوأ أتى
عندما استيقظت المدينة على أخبار انتشرت
كالهشيم بأن "العقيد" نصب أعواد المشائق في ميدان
الشجرة (على ما أذكر)، في قلب المدينة، وأمام مبنى
البلدية الذي احترق إبان المظاهرات الطلابية، تدلت
جثة موظف مصري أنهم بالتجسس، وجواره تدلّى
جثمان طالب ليبي في عمر الزهور. كان النظام الذي
بتبنى أيدٍ يوجية قومية فاشية قد أصابه الجنون.

* * * *

مع مرور الوقت، ترسخ لديّ يقين خاص بما يحمله جوهر فن الرواية من عقيدة إنسانية؛ الحرية، العدالة الاجتماعية، القيم الأخلاقية الرفيعة، القيم الإنسانية الكبرى والتي تضم المنابع الفكرية والأخلاقية للأفكار والعقائد جميعها، سواء المادية أو المثالية، إذ إن كليهما يحمل في طياته الأفضل والأسوأ، الخير والشر، ويبقى للإنسان حرية الاختيار، مستنداً على قيمتي الحرية والمسؤولية اللتين يشكلهما الضمير الإنساني

لماذا عرّجتُ على تلك الأفكار؟... إذ إنه قبل مغادرتي مدينة بنغازي إلى طبرق، التقى بي صديق مصري تعرّفت عليه في أثناء وجودي في بنغازي، ولم تكن صداقتي به قوية. قبل انتقالني للعمل في طبرق مباشرة عرض عليّ بشكل مفاجئ ونحن نقف في قارعة الطريق أن التقى مع أمر حامية بنغازي العسكرية؛ الرائد محمود سليمان، أو سليمان محمود، لا أذكر، وأضاف وهو يهتف بنبرة حماسية:

"على طريق عبد الناصر".

حذفه: امتد عملي من مدينة (البردي) في أقصى الشرق إلى مدينتي درنة والبيضاء في المنتصف من ولاية برقة، حيث صاحبني على الطريق الساحلي متعة السماع لأغاني فيروز المنطلق من مذياع السيارة، وحيث التقيت بأجمل قصص الحب وتعرفت على أحلى الفتيات وحفظت تلك الأشعار البدوية المكناة (العلم).

حذفه: شيوعي

حذفه: من الامور المثيرة للدهشة إنني ربما منذ التحاق بالجامعة التصقت بي صفة شيوعي، طاردتني هذه الصفة في أسرتي وعائلي وقريتي، في ليبيا والعراق وإنجلترا، أثناء عملي في الهيئة القومية

حذفه:

حذفه: .

حذفه: تلك

حذفه: د

حذفه: فضيلة

حذفه: ،

حذفه:

حذفه: الإلتقاء

حذفه: ب

**يا الله!.. وكاني أمام تنظيم طليعي آخر؟! تلقيت
الصدمة بهدوء. واعتذرت بلباقة، وقلت:
"إنني لا أعمل في السياسة خارج الوطن".**

كان لدي إيمان بأن العمل السياسي خارج الوطن
في معية نظم سياسية ما، أمر (وليس دائماً)، قد
يحمل في طياته شبهة العمالة، وأنا لن أكون وأشيأ
ولا عميلاً. الثاني، أننا غادرنا الوطن طلباً لتحسين
ظروف الحياة، وهذا ينزع عني حق تمثيل المناضلين
داخل الوطن.

* * * *

**تسلمت عملي في فرع الأشغال العسكرية التابع
لوزارة الدفاع في مدينة طبرق، وقد امتد من مدينة
(البردي) في أقصى الشرق إلى مدينتي درنة، والبيضاء
من ولاية برقة، صاحبتني على الطريق الساحلي
متعة السماع من مذياع السيارة لأغاني فيروز.**

في مدن طبرق، ودرنة، وسوسة.. كُنت صداقات
ودودة، والتقيت بأجمل قصص الحب ونهاياتها

الجميلة، وتلك الحزينة.. وتعرُفت على أحلى الفتيات،
وهمساتهن الناعمة وصرخاتهن التي تطارد
السيارات العابرة، وتعلمت تلك الأشعار البدوية
المكناة (العلم).

* * * *

حذفه: ¶

¶ * * *

(4 / 7)

مناوشات عسكرية على الحدود

بعد حرب أكتوبر، وفي محاولة لتغيير قواعد اللعبة
في الشرق الأوسط، وفي إطار بحث "السادات" عن
دور يلعبه في المنطقة لحساب الولايات المتحدة، وفي
النصف الأول من عام 1977 اشتدت التوترات بين
البلدين، والتي استمرت لشهور، وظهر على
الحدود حشود عسكرية من الجانبين، وترامت
الأنباء عن اشتباكات، ومد الجيش الليبي الجنود
المصريين بالمياه، قرر النظام الليبي خوفاً من وجود
الكثيف للعمالة والموظفين المصريين، وجلهم شارك

في الحروب، قامت الحكومة الليبية بفسخ عقود عشرات الآلاف من المصريين العاملين في ليبيا، من مهندسين وأطباء ومدرسين وموظفين، والشروع في عمل واحدة من أكبر عمليات التهجير القسري، وطردهم خارج البلاد.

وتولى الجيش الليبي وقوات الشرطة جمع مئات الآلاف من العمال ممن أطلق عليهم "السلكاوية" من الأحياء الشعبية والطرقات، وشحنهم قسراً كالأنعام في مئات الشاحنات العسكرية والقاءهم، مثل أكوام النفاية على الحدود المصرية الليبية، وهو ما وثقته تفصيلاً في رواية "مراعي القتل".

* * * *

وفي يوليو من عام ألف وتسعمائة وسبعة وسبعين، قام "السادات" بإعطاء أوامره بقصف قاعدة طبرق العسكرية بالطيران الحربي، وهو ما جئت على ذكره بتفصيل شديد ودقة بالغة في رواياتي الثلاث التي تناولت الحياة في ليبيا الشقيقة، "الغرس"، "مراعي القتل"، و"العلم".

تلك الروايات الثلاث هي الثمن الذي كسبته،
مقابل ازدرائي الساذج بأهمية الامتلاك المادي.

* * * *

(5 / 7)

عرض بالزواج من فاتنة ثرية ليبية
أهي تُكرى للندم؟

في الرُّبع الأول من عام 1977، في ظل تلك الأوضاع
المتوترة، وكانت إدارة الأشغال العسكرية في طريق
تكاد تفرغ من المهندسين والموظفين والعاملين بسبب
الإجراءات الحكومية المتعاقبة بالطرْد، أو الاستغناء
وفسخ العقود.

كنت من المهندسين القلائل (ربما الوحيد) الذين
تبقوا ولم يغادروا بعد، وأذكر أن أحدًا لم يفاتحني من
الإدارة أو غيرها للمغادرة والرحيل، أو البقاء... كنت
مهندسًا شابًا، مهذبًا مثقفًا، شديد الكفاءة في
عمله، جم النشاط، لا يتأثر بقوة ونفوذ كبار
المقاولين وكنت قد اتخذت منذ لحظة استلامى
العمل في "طريق" السياسة المناسبة، وهي تفادى
الإشراف على أعمالهم. (يا نحلة لا تقرصيني، ولا عايز

عسل منك)، كنت لا أمل ولا أكل من متابعة الأعمال
الموكلة إلي على طول الساحل الشرقي، وأحياناً
حتى "الرجمة" و"واحة الكفرة" في قلب الصحراء، لم
أعبث في عملي، كنت مهتماً أن يتم طبقاً للمواصفات
الهندسية، لم أمارس أي قدر من الفساد، وإنما كنت
نموذجاً للمهندس الشريف، أحترم نفسي وعملي،
حدث هذا رغم أنني كنت أعمل في وسط يعج
بالفساد.

بعد أقل من عقد من الزمان تكرر الأمر نفسه
عندما شرعت في العمل في شبكة أنفاق القاهرة
الكبرى، لم أتورط في عمليات الفساد التي كانت
شائعة بسبب كمية المعوقات المحلية التي تعوق
أعمال الشركة الفرنسية، والتي تنعكس على
الجانب المصري بدفع غرامات مالية هائلة، والتي
تفئّن الفرنسيون في تسجيلها وتحصيلها بواسطة
مكتب هندسي قانوني كان يعصر بنود العقد
ليحولها أموالاً تتدفق إلى خزنة الفرنسيين، بل إنني
تمكّنت من تنفيذ كافة الأعمال التي أوكلت إلي
بكل شفافية وكفاءة وبأقل تكاليف ممكنة، ودون
التورط في شبهة الفساد ومبرراته... في الحقيقة
كان لدي القدرة على أن أجد الوسائل والدوافع

المختلفة التي تدفع الآخرين، بل تُجبرهم كي يعملوا على تنفيذ الموكل إليهم بطرق محترمة ودون التورط في الفساد، وكان الحافز الذهبي الذي ألوح به دائماً هو مصالح الوطن في مواجهة الأجنبي، وكان ناجحاً.

رُبما كان هذا أحد أسباب شعوري بالغرور الذي دفعت ثمنه في حياتي الخاصة غالباً.

آه يا الله!... في وطني جرى معاقبتى، وتم وضع العراقيل في طريق ترقيتي إلى المناصب الإدارية العليا، وتم سحب وظيفة مدير عام من سجلي الوظيفي، وتم منع السيناريو المجاز رقابياً والمتعاقد عليه مع إحدى شركات الإنتاج الوطنية لرواية "نهر السماء" من الإنتاج والعرض في التلفزيون، وأعنى:

(إنهم ماهرون في قتل الجياد... أليس كذلك؟)...

هيت لك يا وطن، يلتهم أبناءه، ويلقي بهم وينفسه إلى الخراب العام...

على العكس من ذلك، في ليبيا جاءني عرض بالزواج من فتاة ليبية ثرية وفاتنة.

كنا ثلاثة نجلس حول الطاولة الرئيسية في قاعة اجتماعات إدارة الأشغال العسكرية في "طبرق" أهدنا أمر إدارة الأشغال العسكرية، وكان ضابطاً برتبة رائد، كان رجلاً يتسم بالدمائة والطيبة، والثاني واحد من أثرياء مقاولي الإنشاءات العاملين مع أحد عمالقة المقاولين في الشرق الليبي (وربما الأكبر)، كنا نتبادل الحديث حول سير الأعمال، وبينما الحوار يدور بين الرجلين، طرق سمعي فجأة عرض مسموع من المقاول على الرائد، وكان العرض يخصني شخصياً، وكان فحواه أن أشاركه في إنشاء شركة مقاولات جديدة، وكان العرض مصحوباً بالزواج من أخته التي لم يسبق لي التعرف عليها أو رؤيتها، أشار الرائد موجهاً الحديث للمقاول، مؤكداً العرض، بأنني لم يسبق لي رؤية العروس، همس صاحب العرض: "هو رأها" .. شلني الصمت.. فكّرت... كيف يا سيدي!.. أنا لم أر أحداً.

عبر خاطري بسرعة البرق أولئك الفتيات صاحبات الشعر الأسود الفاحم يتدلى كالشلالات حول وجوههن، وأجسادهن المشوقة اللاتي ورثنها من هذا الخليط الذي يجمع بين سلالات إفريقية وأمازيجية، واللاتي كنّ يحلو لهن إرسال إشارات

ضدّية متتابعة من سيارتهن في أثناء لقائي بهن على
الطرق العامة في مدينتي درنة، وطبرق... لم أفكر
للحظة في معرفة أيهن؟ وتجاهلت العرض بلطف
واحترام شديد، إذ كيف لي أن أتزوج بفتاة من غير
بنات بلادي؟...

بنات بلادي... بنات بلادي... بنات بلادي...

يا الله!... هل يحق لي الندم؟...

وكانت تلك أولى مظاهر خطيئة الغرور التي نهت
عنها الفضيلة...

في تلك الظروف قررت الانتقال للعمل في العراق.

* * * *

"هل كان سفرى المبكر مفيداً؟"

زمن طويل كنت أرى أن سفرى المبكر، بعد التخرج
في الكلية مباشرة لم يكن فيه خير قط، وخاصة من
الناحية المادية، فقد غادرت الحدود المصرية، ولا
زلت أحمل داخلي عذريته رومانسية معادية
لاكتناز المال... إنسان لا يزال يؤمن بحتمية بزوغ
عصر الطبقة العاملة، وأن المجتمع الاشتراكي آت لا
ريب ولا محالة، ولهذا لم أهتم بالجانب المادي من
الحياة، ولم أر أي قيمة في تحقيق ثروة مالية، لم أهتم
بتأمين الأنا الخاص بي، وشراء أراض وعقارات،

تناثرت أموالى فى خدمة آخرين، وتوفير ظروف أفضل لهم، وجلبهم من أقرب الناس، وكل هذا ذهب هباءً، بينما ومع كل الاحترام تمكّن غالبية الأصدقاء الذين غادروا إلى بلاد النفط فيما بعد من إنشاء حياة مادية مستقرة، بفضل تقدير قيمة الملكية الخاصة، وبالقطع ليس لى سوى لوم نفسى على الأحوال التى صرت عليها.

مؤخرًا سمعتُ كثيرًا تلك الحكمة:

إن فى كل شرٍ ما خيرا ما".

فإذا كانت الخسائر التى عانيت منها بسبب السفر المباشر بعد تخرّجى هو بعثرة مدخالاتى المادية، فضلاً عن الإنكار وأفعال أصابتنى بالصدمة، وأوقعت بى شعورًا طاغيًا بالألم والندم، (وكان السيد ظلم ونديمته أقسى أمام الرب بأن يوقعا بى كل أنواع الشرور، وما يصاحبها من مرارة الألم).

ولأن كل شرٍ يحتوى فى داخله خيرا، على الاعتراف بأن سفري إلى ليبيا فى ذلك الوقت تحديدًا قد نتج عنه ثلاث روايات، وأن زمن الروايات الثلاث بلغ ذروته خلال سنوات سفري، بعدها قامت المناوشات العسكرية بين البلدين، وتغيرت الحياة بصورة ما.

- "الغرس":
- "مراعي القتل... ذرة الأدب العربي".
- رواية "الأمم" التي أعتز بها اعتزازاً شديداً.

* * * *

الفصل الثامن

الرحيل عن ليبيا

حذفه: (8 / 1)١

بعد توتر الأحداث والوقائع وزيادة
الحشود العسكرية المصرية على
الحدود بين البلدين فقد تم
جمعهم في الشاحنات
العسكرية قسرا والقائهم مثل
أكوام النفايات والرمل أو الزلط
على الحدود المصرية الليبية، ما
كتبته تفصيلا في رواية (مراعي

حذفه: <#> الرحيل عن ليبيا

في الربع الأول من عام 1977 وفي ظل تلك الأوضاع المتوترة عرض علي
واحد من أثرياء مقاولي الأتشاءات العاملين مع أحد عمالقة المقاولين في
الشرق الليبي (وربما الأكبر) المشاركة في إنشاء شركة مقاولات جديدة ، وكان
العرض مصحوبا بالزواج من أخته التي لم يسبق لي التعرف عليها أو رؤيتها،
تجاهلت العرض بلطفاً
وفي ظل تلك الظروف قررت الانتقال للعمل في العراق

حذفه: <#> إلى هناك ..مَلُونِي أعدادا
عدداً ضخمة ...

حذفه: <#>موضوع ...لتجنيد في الجيش
السوري ...

حذفه: و... ان استقبال رجال

الجوازات للمصريين يتسم
بالخشونة، في عبرت إلى
الجمارك ...ثناء ومعني ما حملني

(8 / 1)

المرور على سوريا

في يوليو 1977، أنهيت متعلقاتي مع إدارة الأشغال
العسكرية، وكنت قد عازمت على المرور على سوريا
وأنا في طريقي الى العراق، لزيارة عائلة صديقي
العزیز مصطفى شيحة، وأحد أجمل الشخصيات
التي التقيتها في ليبيا وفي حياتي، والذي جعلت منه
أحد الأبطال الرئيسيين في رواية (الغرس)، وكان
أهله، وزوجته المستقبلية مقيمين في مدينة (التل)

قرب دمشق

غادرت بنغازي على متن طائرة الخطوط الجوية العربية السورية،
كانت تغص بالصناعية السوريين، وكانت المضيضة تتصرف بشاشة
تخلو من الرسميات، وهم يبادلونها ضجيج فرح بالعودة إلى الوطن
ولقاء الأحبة، وكان الأصدقاء قد حملوني عددا من الحقائب الضخمة
الممتلئة بأغراضهم بسبب تعذر سفرهم إلى سوريا، لتفادي التجنيد.
هبطت في مطار دمشق ليلاً ومعني ما حملت به

من حقائب ممتلئة بأغراضهم وهداياهم للأهل كان
استقبال رجال الجوازات للمصريين يتسم
بالخشونة، في أثناء التفيتش ذكرت لضابط
الجمارك اسم ضابط الأمن، الرائد أو ربما المقدم

حذفه: الكلمة

حذفه: ١

...

حذفه: على وجه ضابط الجمرک،

حذفه: وختم

حذفه: و

حذفه: ١

١
سوريا- ...

حذفه: /

حسين شبيحة الذي أوصاني به صديقي مصطفى وكان ابن خالتي، ومعها العبارة السحرية: هذه حقائب الشباب في ليبيا وأنا أحضرتها إلى عائلاتهم في مدينة التل، وأريد مقابلة الرائد حسين.

حل صمت مشوب باهتمام شديد على وجه ضابط الجمارك، لم يكن الرائد موجوداً، لكن كل شيء تحول إلى نوع من احترام صامت مكتوم، وجدت الحقائب تُغلق من فورها بلا تفتيش، جواز سفري يُخلق في الفضاء ممهوراً بختم الموافقة، غادرت المطار دون تفتيش، حيث توجّهت إلى أحد الفنادق المجاورة للجامع الأموي العتيق.

* * * *

(2 / 8) مدينة التل

في اليوم التالي حضر في سيارته ابن خالتي صديقي مصطفى، واستضافني في منزل العائلة بمدينة التل، الواقعة على تخوم دمشق، في الطريق إليها كان زحام الطرقات والميادين شديداً، كان السائقون يتقاتلون في أثناء قيادتهم سياراتهم.

الظاهرة الثانية التي أثارته دهشتي كانت نهر بردى، والذي كان يقارن دائماً في مُخيّلاتنا وخاصة أيام الوحدة بنهر النيل، كان شديد الصُّخْر، قليل الغور، وكان جافاً ليس به مياه.

حذفه: بين مصر وسوريا

حذفه: ة

حذفه: الأمر الذي أثار دهشتي

أمضيته زمنًا جميلاً وسط عائلة مصطفى، استقبلتُ بترحاب ومودة شديدين، وهناك التقيت بصورة عابرة بالرائد حسين، وكأنه يقول إنني شخصية حقيقية ولست من الخيطة.

حذفه: ث

حذفه: بين

حذفه: قلته من

حذفه: بد

حذفه: ال

حذفه: ال

حذفه: ال

وكما التقيت بالأهل، ضمّني لاء مع أصدقائي، وكانوا جميعاً من المثقفين شديدي الاحترام، وبينما هم كذلك كانت العائلة للعجب العجائب تضم خليطاً من تيارات سياسية متضاربة، في ليبيا مصطفى؛ هذا الشاب جميل الخلق المهذب والذي كان مثقفاً يساريًا مُطلِعاً على الأدب العالمي، وهو ما قرّبنا معاً، في مطار دمشق كان هناك الرائد الذي ينتمي إلى أحد أهم أجهزة الأمن السورية، في مدينة التل كان هناك ابن الخال الذي لا أذكر اسمه والذي كان أحد القادة البارزين في حزب البعث العربي الاشتراكي، بجواره ابن وابنة العمومة، وكلاهما أعضاء في حزب العمل الشيوعي السوري، خليط من "موزيك" يتسم بالتنوع

والتناقض، أمّا قرية التل فقد كانت مثل قرى الشام وبلاد الرافدين، التي يعتنق غالبيتها الإسلام، فقيرة متخلفة، طرقاتها مليئة بالحفر والمطبات، ملتوية، مداخل البيوت تشبّه بيت جحا.

مع ابن خالته الذي أمتنّ له كثيراً بالشكر والعرفان جُبت أرجاء سوريا، ذهبت إلى مدينة بنين، حيث تورث مياه الري، التي تروي الأراضي من عيون وينابيع المياه، ويتم توزيعها طبقاً لحصص الوراثة، وكان هذا مثيراً للدهشة لدى مواطن من أبناء النيل.

مدينة "صيدناية" المسيحية؛ المكان الثاني الذي أخذني إليه كانت مدينة تتميز بالجمال والأناقة والثراء الشديد، وتضم رجال الحكم والنفوس، وهو ما كانت عليه قرية "انكاوا" بشمال العراق، وإن كانت الأخيرة أقل ثراءً وبذخاً من "صيدناية"، وتخلو من مظاهر السلطنة.

المكان الثالث الذي سعدت إليه برفقة ابن خالتي مصطفى، كان مدينة "بلودان" الساحرة في شمال سوريا، وهو المصيف الذي كان يقضي به الفنان العظيم محمد عبد الوهاب، إجازته. جميع تلك الشخصيات البارزة الجميلة، وتلك الأماكن

حذفه: والتي

حذفه: ها

حذفه: خلال

حذفه: والتي

حذفه: د

حذفه: أ

الساحرة الرائعة ضممتها رواية "الغرس"، وكانت
مدينة التل أحد أهم تلك الأماكن الرئيسية في
الرواية.

* * * *

حذفه: ¶

الفصل التاسع

أمة عربية واحدة ذات رسالة خالدة

(٩ / ١)

الى بغداد

بعد وقت رائع أمضيته بين عائلة صديقي الأعمى،
غادرتُ سوريا إلى بغداد، على باب الطائرة استقبلني
هواء ساخن، شديد الحرارة، أمضيت في بغداد
شهرين أو ثلاثة قبل الحصول على عمل تابع لوزارة
الإسكان العراقية، وكان لحسن الحظ في مدينتي
(أربيل) عاصمة الشمال الكردستاني التي تضم
الغالبية الكردية من أبناء العراق.

* * * *

صور من ذاكرة الرحيل

قبل الانتقال إلى الأحداث التي جرت في مدينتي
أربيل، عاصمة كردستان، أود الإشارة إلى بقايا عطر
من الذاكرة، أذكره مثلاً، وأنا أعبر الحدود البرية
الليبية، الطعم الحريف الشهى لزجاجات البيبسي
كولا، وكان يختلف تماماً عن شراب الكولا في مصر،
وكانه مقارنة بين عصير التفاح الطازج وبول الحمير.

حذفه: أ

أمة عربية واحدة ذات رسالة خالدة: أ

في الشمال الكردي وبين ربوع هضبة الأناضول كان
الطعم الحلو لحبات الكرز والخوخ والتفاح هو العطر
الخلّاب طوال الرحلة.

أسوأ ما بقي في الذاكرة تلك اللوحات الضخمة
التي تتوالى على طول الطريق منذ عبورنا حدود
محافظة أربيل.

{أمة عربية واحدة ذات رسالة خالدة}

في اسطنبول رأيت في المتاحف التركية وجامع آيا
إحمد سلال الزمورز والياقوت والجواهر ومقابض
الخناجر المرصعة باللؤلؤ، وعلى شاطئ البسفور،
شطائر السمك المقلي الطازج، وفي حي (تقسيم)
فاترينات محلات تجارة الجنس الأبيض، وقفت
فاتحا فاهي أمام الواجهات الزجاجية الكبيرة التي
تحوي خلفه نساء من مختلف الأعمار، عاريات إلا من
ورق التوت؛ مراهقات، شبابت، نساء في الثلاثين
والأربعين، بجوارهن نساء في الستين والسبعين،
يدعونك لممارسة الجنس، بانتظار إشارة من أحد
الذين جحظت عيونهم خلف الواجهة من طالب المتعة،
للسعود خلفه إلى الطابق العلوي،

حذفه: بقايا لوحة السيدة العذراء
والسيد المسيح على جدران جامع
أو كنيسة آيا صوفيا، والتي أبقى
عليها من اغتصب الكنيسة
وحولها إلى جامع ١٠٠٠
مشاهد عابرة تعبر عن لحظات
فارقة بين الحدود التي تفصل بين
الدول، وغيرها كثير، ١٠٠٠
لكن ...

حذفه: أسوأ ما بقي في الذاكرة تلك
اللوحات الضخمة التي كانت
تتوالى واحدة خلف أخرى على
طول الطريق منذ عبدنا حدود
محافظة أربيل ١٠٠٠
{أمة عربية واحدة ذات رسالة
خالدة} ...

في اسطنبول رأيت في المتاحف التركية وجامع آيا
احمد سلال الزمورز والياقوت والجواهر ومقابض
الخناجر الرصعة باللؤلؤ، وعلى شاطئ البسفور،
شطائر السمك المقلي الطازج، وفي حي (تقسيم)
فاترينات محلات تجارة الجنس البايض، وقفت
فاتحا فاهي أمام الواجهات الزجاجية الكبيرة التي
تحوى خلفه نساء من مختلف الأعمار، عاريات إلا من
ورق التوت؛ مراهقات، شبابات، نساء في الثلاثين
والأربعين، بجوارهن نساء في الستين والسبعين،
يدعونك لممارسة الجنس، بانتظار إشارة من أحد
الذين جحظت عيونهم خلف الواجهة من طالبى المتعة،
للسعود خلفه إلى الطابق العلوى.

بقايا لوحة السيدة العذراء والسيد المسيح على
جدران جامع أو كنيسة آيا صوفيا، والتي أبقى عليها
من اغتصب الكنيسة وحولها إلى جامع .

مشاهد عابرة تعبر عن لحظات فارقة بين الحدود
التي تفصل بين الدول، وغيرها كثير،

فما شأن الأكراد؟ ...

حذفه: و

حذفه: أ

حذفه: وجرائم

حذفه: القومي

حذفه: البحث عن

حذفه: وفي سبيل

حذفه: ذلك سيرحبون

حذفه: الإعداد

تلك كانت واحدة من أكبر خطايا وإثام حزب
البعث العربي الاشتراكي.

أؤمن بالوحدة العربية بالطرق والنظم السياسية
الديمقراطية، ودون الافتئات على الإرادة الشعبية،
ولكني قبل كل شيء أعد نفسي إنساناً، لهذا لم
أتخيل قط أن يتم فرض هوية عرقية لجماعة ما على
جماعة أخرى بالقوة، كان قهراً ما بعده قهر، جريمة
ستدفع جماعات من الأكراد إلى الكفاح من أجل
الاستقلال، والترحيب بتحالفات حتى لو كانت مع
الدولة العنصرية.

* * * *

(2 / 9)

أربيل 1977 - 1978

استلمت عملي في أربيل كمهندس مقيم على
إنشاء واحد من أكبر مشاريع الحكم الذاتي، وهو
(على ما أتذكر) مبنى إدارة الحكم المحلي، وأعتقد أن
المبنى كان يضم مبنى البرلمان، كما توليت الإشراف

حذفه:

على إنشاء مدرسة ثانوية صناعية ضخمة، ولمحض الصدفة انضم إلى العمل مهندس مصري شاب، وكان كفتاً ونابهاً، كان يعرف الكثير عنّي، وما لبثت أن عرفت السبب، إذ كان ينتمي لواحدة من كبرى عائلات اليسار التي تُصنّف يمين اليسار، أقمنا معاً في غرفه في أحد فنادق الدرجة الثالثة، وسط مدينة أربيل.

* * * *

حذفه: ال

حذفه: يت

حذفه: أقصى الشيوعي في مصر

(3 / 9)

تحفّظ سياسي صارم

حذفه: :

حذفه: راست فوناقى

كان يعمل معنا في دائرة المهندس المقيم، عدد من الفنيين الأكراد، وأنست، وكانت العلاقة بيننا وبينهم طيبة، دعونا لحضور عيد النيروز وسط الطبيعة الخلابة لجبال كردستان، عبّر لي أحدهم، وكان شاباً لطيفاً عاشقاً لأغاني عبد الحليم حافظ، عن امتنان الشعب الكردي للرئيس جمال عبد الناصر؛ فهو أول من أنشأ إذاعة باللغة الكردية،

تعبيراً عن اعترافه بثقافة الشعب الكردي، من جانبي
قمت بعمل "كورس" للفنيين الذين يعملون معنا
لتدريبهم، وكان خاصاً بالهندسة المدنية، وكيفية
تطبيق المواصفات الفنية، وعمل المستخلصات
المتعلقة بالأعمال الهندسية التي نقوم بالإشراف على
تنفيذها، وقمت بتدريس "الكورس" لهم في أثناء
فترات العمل، كانوا أربعة، وقد لاقى ذلك تقديرًا
وامتناناً من جانبهم، وأذكر أن جميعهم كانوا
يتصرفون بتحفظ سياسي صارم، وهو ما لاقى لدي
هوى شديداً، فمن ذلك الذي يود الخوض في الشأن
السياسي في دولة قمعية تعج سجونها
بالمعتقلين السياسيين!...

* * * *

بؤرة ثقافية

كانت بغداد تخص بالزملاء ممن شاركوا في
الحركة الطلابية، فضلاً عن كونها أصبحت
مأوى اليساريين المطاردين من نظام السادات. في

حذفه: الفنيين

حذفه: ترحيباً

حذفه: *

حذفه: !

حذفه: في السبعينيات

أربيل تحوّل مكان إقامتنا إلى بؤرة ثقافية نقيم بها لقاءات شهرية منتظمة لزملاء الكفاح الطلابي؛ فخري عبد الغفور، وكان يعمل في محافظة السلمانية، محمد فتيح، وكان يعمل بالموصل...

امتلاً مكتبنا بتلك الكتب التي تنتمي إلى الفكر الماركسي واليساري؛ "دفاعاً عن الثورة" لرجي دوبرية، "المعدّبون في الأرض" لفرانز فانون، وكان هذا يلقي ابتسامات واستحساناً صامتاً من الزملاء العراقيين، رغم ما كان يصل إلى أسماعنا من عمليات تعذيب قاسية يمارسها النظام ضد خصومه من الشيوعيين العراقيين، يقال إن أحد المعارضين للنظام تم وضعه في حمض الكبريتيك المركّز حتى ذاب جسده، وأخر خلط طعامه باسم السيانييد قبل مغادرته السجن بشهور ستة، عقب حصوله على حريته، فقط تمكّن من مشاهدة أسرته وأطفاله وضم زوجته، واستحم في أشعة الشمس، ثم رحل في الليلة التالية مع رحيل القمر...

من جانب آخر - ولم يمض وقت طويل - تعرّف زميلي في العمل - لا أعرف كيف؟ - على أحد أعضاء الحزب الشيوعي العراقي، وكان رجلاً خمسينياً صاحب

حذفه: التي كان

حذفه: وغيرهم

حذفه: د

حذفه: ي

حذفه: ا

حذفه: حتى ذاب جسده

حذفه: .

حذفه: أ

ورشه نجاره تقع على بُعد متار من الفندق الذي نقيم فيه، ومن ثم كان يحصل منه على جريدة الطريق الخاص بالحزب الشيوعي العراقي، وفي المقابل كنت أحضر له من بغداد مجله (التضامن) التي يُصدرها أحد الاتجاهات اليسارية المصرية في بغداد، ولم يمض وقتٌ حتى تعرفنا على عدد من قادة الحزب الشيوعي العراقي في كردستان، حيث كان معلومًا أن السهل يسيطر عليه الشيوعيون بينما القوميون يسيطرون على الجبال في الشمال، كانت العلاقات طيبة لا تتجاوز مفهوم الصداقة بين مثقفين يساريين، كانوا "شخصيات شديدة الاحترام، منضبطين، يخفون عشقهم للشاعر العراقي العظيم المنشق "مظفر النواب"، ويبكون في حضرة قصيدته الرائعة التي نظمها بالعامية العراقية (الريل وحمد)، من فرط طيبتهم استقبلونا بمحبه وبشاشه، دخلونا بيوتهم المحرمة على الغرباء، بعد أعوام من الغربة كنت قد فقدت طعم ورائحة منازل الأهل التي تضم أمهات وزوجات تشع بروح المحبة والعطف، أكلنا (الضلمة) والتي تُعد من أجمل الأكلات الشهية الكردية، وشربنا العرق مع اللحم المشوية

والمشويات التي تشتهر بها بلاد الشام، والعراق وتركيا.

* * * *

البحث عن حياة اجتماعية

عندما اخترت العراق كوجهة للسفر، كنت قد سئمت الحياة الاجتماعية في ليبيا، ورحلت وفي اعتقادي أن الحياة في العراق ستكون أكثر تحضراً، وقد كان الأمر كذلك إلا قليلاً، كانت بغداد تفيض بكتب التراث العربي القديم، والكتب المترجمة من كافة لغات العالم، وصحبة المثقفين اليساريين، والتكالب على صالات سينما تعرض أفلام يوسف شاهين، وأخرى فارغة تعرض أفلاماً إباحية، وشارع الرشيد الذي يفض بالملاهي والحانات وبيوت المتعة السرية، بينما كان محرماً على الغُراب من الغرباء الإقامة في المنازل التي تضم الأسر العراقية، وترك لهم حرية التكديس في غرف الفنادق الرخيصة وحماماتها المشتركة، والتي تقتصر على الذكور دون الإناث، وتضم مختلف جنسيات الشعوب الفقيرة التي طرد أبناؤها للبحث عن رزق في بلاد النفط.

إذن، لم تختلف العراق عن ليبيا، بل كان مستوى السكن في ليبيا أفضل كثيرًا.

* * * *

4 / 9 "عنكاوة" .. قطعة من الجمال

"عنكاوة": قرية كردية مسيحية تقع في محافظة أربيل، شمال العراق، ورغم الحظر المضروب على سكن العزّاب، وسط سكن العائلات تمكّنًا "بقدره قادر" من خرق الحصار.

كُنّا ثلاثة مهندسين مصريين، استطعنا الانتقال للسكن في قرية "عنكاوة" القريبة من مدينة (أربيل) محل العمل، وكانت مباني القرية مكوّنة من شوارع متقاطعة مستقيمة نظيفة تحيط بها سلسلة من فيلات صيرة تتكون من طابقين ملحق بها حديقة بحجم المنزل، وهناك استأجرنا فيلا صغيرة من طابقين كان صاحب الفيلا شابًا كرديًا مسيحيًا من أهل القرية، ثلاثينيًا، متزوجًا، وكان لفرط الدهشة أعضاء في حزب البعث، وكان الكان يفيض بأعداد من جريدة الثورة التي يصدرها الحزب، ومنذ

حذفه: ٩١

بحثًا عن حياة اجتماعية أفضل: ٩١
عندما اخترت العراق كوجهة

حذفه: تمكنا

حذفه: من

حذفه: عاصمة الشمال

حذفه: وهناك استأجرنا فيلا فقيرة

حذفه:

حذفه: التي

حذفه: فضلا

حذفه: عن

حذفه:

حذفه: منضم

حذفه: ا

حذفه: ل

حذفه: المنزل

حذفه: التابعة

حذفه: ت

حذفه: بنا

حذفه: الاستبدادية

البداية قطعاً أي خيط محتمل لحديث خاص بالسياسة، والذي قد يُفضي إلى عرض بالانضمام إلى الحزب، وهو أمر لا يمكن التلاعب به، مع خطورة الأنظمة القومية القمعية، والحكايات المنتشرة عن سجون النظام وأشكال القتل والتعذيب.

كان لدى أبناء قرية عنكاوة طقس اجتماعي جميل، فما إن يحل العصر حتى يخرج أبناء وبنات القرية، سافرات، متأنقات يرتدين أبهى خللهن. إلى طرقات القرية المزينة بالأشجار، تحيط بها فيلات القرية وحدائقها الملحقة بها، كنا نخرج معهم والدمشقة والغبيطة تماؤناً، والرضا يغمرنا لهذه الحياة الاجتماعية الجميلة.

* * * *

بؤرة ثقافية

كانت بغداد تغص بالزملاء ممن شاركوا في الحركة الطلابية، فضلا عن كونها أصبحت مأوى اليساريين المطاردين من نظام السادات. في أربيل تحول مكان اقامتنا الى بؤرة ثقافية نقيم بها لقاءات شهرية منتظمة لزملاء الكفاح الطلابي؛ فخري عبد الغفور وكان يعمل في محافظة السلمانية، محمد فتوح وكان يعمل بالموصل،

«عنكاوة... بيئة لا تُضاهى»

للإبداع الروائي

احتلال الموقع الملائم للإبداع

حذفه: و

حذفه: بين ثلاثتنا

حذفه: ا

حذفه: اي

حذفه: بين طبيعة أجمل من هذا،

حذفه: عن الكتابة

بعد مناورات عديدة، تمكنت (مقابل التنازل عن أشياء لا أذكرها) من الحصول على الغرفة الواقعة في الطابق العلوي، وكانت تُطل على تلال وسهوب عشبية تمتد حتى نهايات الأفق، حيث المكان حلم يستسلم له أي كاتب أو فنان يهوى كتابة الأدب أو الفن التشكيلي، تاركًا للمخيلة حرية التدفق مع عوالمه إلى حيث تلتقي نهايات الأرض بالسماء.

بيئة خالصة وطقوس سحرية تدفع الأكم إلى الشدو ليسطر ملاحم "هوميروس" العظيم.

* * * *

عالم (الغرس) كان الجو والطبيعة مفعمين بدوافع
الكتابية، ومنذ تلك اللحظة شرعت في تحقيق الحلم
الذي لم يبهت قط، وعكفت في غرفتي العلوية التي
تُطل على سهوب وتلال عنكاوة العشبية على كتابتها
رواية المؤسسة، بجزأياها (الغرس)، و(العلم).

يتناول عالم الرواية أحد المجتمعات النفطية العربية الحديثة التي
اتخذت من القومية الوجودية الاشتراكية أيديولوجية للنظام السياسي،
وغطاء للديكتاتورية العسكرية، هكذا كان المجتمع الليبي في
السبعينيات من القرن الماضي

**يدور زمن الرواية بعد مرور نصف عقد من ثورة
الفتاح من سبتمبر 1969.**

تضم الرواية العديد من شخصيات تنتمي إلى
جنسيات عربية مختلفة؛ ليبين مصريون،
سوريون، فلسطينيون، سودانيون، لبنانيون، داخل
مجتمع مدينة بنغازي في منتصف سبعينيات القرن
الماضي ، حيث يفرض سوق العمل قوانينه، وتسيطر
عليهم صراعات دامية حول المال والسطوة والنفوذ
محل المفهوم الرومانسي لفكرة الوحدة العربية،
وحيثما تُطل في سوق العمل قسوة وعنف البدوي
القادم من عمق الصحراء وخشونته، تجاه الجماعات

حذفه: ٩

كان لدي ابناء قرية عينكاوة
طقس اجتماعي جميل. فما ان
يحل العصر حتي يخرج ابناء
وبنات القرية، سافرات، متأنقات
يرتدون أبهى حللهن، الى طرقاتها
التي تتكون من شوارع مستقيمة
متقاطعة، والمزينة بالأشجار،
تحيط بها فيلات القرية وحدائقها
الملحقة بها، كنا نخرج معهم

حذفه: عالم الرواية:

حذفه: منتصف

حذفه: ، وبعد مرور نصف عقد من

حذفه: وتوانست

حذفه: وتحل

حذفه: ال

حذفه: ال

حذفه: .

حذفه: بينهم

الأكثر تحضُّراً؛ مصريون وسوريون بسبب سطوة امتلاك الثروة والمال، في المقابل تظهر الرواية سمات وطبيعة شخصية وسلوك الجماعات **المختلفة**، حيث يستمد السوريون قوة الترابط والتواجد والتعاقد من العلاقات الاجتماعية التي تبدأ من الانتماء إلى الأسرة أو العائلة إلى القرية، أو الناحية أو المحافظة، أما الفلسطينيون فقد كانوا كالسوريين أقوياء متماسكين على المستوى الشخصي، لا يقلون عنفاً عنهم، وإذا كان السوريون يتصرفون كعصبة **من الذئاب**، فعلى العكس منهم كان الفلسطينيون يسلكون مسلك ذئب منفردة وبقدر أكثر عمقا من الدهاء. (وأرجو ألا يؤخذ وصفه هذا على أي محمل سيئ)، وإنما هي محاولة لفهم الشخصيات العربية في واقع معين، وزمن ومكان محددين، وبناءً على تجربة شخصية، ليس من المناسب مدها لأكثر مما تحتملها، اللبنانيون هم **بستان العرب** وقمة التحضر والصفاء والالطف، أما المصريون فثمة تفكك في العلاقات، وعداء مبهم مقترن بقبول البعض بقدر من الامتهان والشعور بالدونية، أمام صاحب المال، وأمام الآخرين عموماً، وقد يصعب إنكاره من الفردانية والتفكك

حذفه: أ

حذفه: ر

حذفه: ي

حذفه: القوي

حذفه: ال

حذفه: ال

حذفه: حديقتة

حذفه: خصوصاً

حذفه: البحث عن لقمة العيش،

حذفه: ال

حذفه: ال

الاجتماعي، مقروناً بالقبول بتلك الأوضاع المهينة من
أجل تحقيق حلم مؤجل بالرخاء وصعود سلم
الطبقات الاجتماعي بعد العودة إلى الوطن.

* * * *

(3 / 10) بنية الرواية

تؤسس بنية السرد خلال ليلة عرس أحد أبناء الطبقة الثرية الجديدة، والتي كوَّنت ثراءها الفاحش من خلال تحالفها مع العسكر من قادة الثورة

زمن الرواية المباشر لا يتجاوز 24 ساعة يتمثل في ليلة الاحتفال بالعرس.

تتري الشخصيات وتتعاقب الأحداث الدرامية طوال رحلة موكب العرس تكشف عن ذلك الموزاييك الدامي الذي يتشكل منه مجتمع الذهب الأسود، وكما أن هناك أسودًا كاسرة تلتهم الآخرين بلا شفقة ولا رحمة، يوجِّد **حملان مهيؤون** دومًا لالتهام، كذا كانت العروس (دريته)، الفتاة التي فقدت بكارتها في أثناء مداومة أخيها على مضاجعتها ليلاً بعد أن يضع المنوم في شرابها الليلي، وهي بانتظار ساعات الرعب عندما تتعرض أمام الجميع للكشف عن عذريتها، وهناك الشاب ناصر، "جنتلمان" حقيقي درس الماجستير في الولايات

حذفه: أ

حذفه: أ

حذفه: ، وطوال رحلة موكب العرس...

حذفه: الأسود

المتحدة، رفض الزواج بأمر يكية، مفضلاً الزواج بفتاة
من وطنه، وما هي زوجة المستقبل تجلس جواره في
سيارة العرس، متوثبة متحفزة تلو وجهها صفرة
الموت، وهو لا يدري لماذا؟! وما سوف تكشف عنه
الساعات القليلة المقبلة.

* * * *

بنية هندسية من خلال زمني

تتوالى أحداث الرواية من خلال تكنيك هندسي غير منظور يتراوح بين المركز وحافة الدائرة. تكشف عن شخصها بفيض متوالٍ من أحداث، وتوترات متلاحقة تمسك بأنفاس القارئ، وذلك من خلال زمني؛ زمن مركزي، والثاني متواليته من أزمنة (الفلاش باك)، تدور على حافة الدائرة...

أولاً: زمن مركزي هو الحاضر والآن، لا تتجاوز مدته أقل من أربع وعشرين ساعة، هو زمن ليلى الاحتفال بالعرس، لأسرة شديدة الثراء والنفوذ، تجري أحداث ذلك الزمن في مكان واحد، هو طرقات وشوارع بنغازي؛ المدينة المركزية لولاية برقة، والعاصمة الثانية لبلد نبطي، والذي يجري خلاله سرد مسيرة العرس المبهجة، الصخب والضجيج الذي يخلفه موكب من عشرات العربات الفارمة

حذفه: ٩١

٩١

حذفه: ما تحت السطح:

حذفه: تكنيك هندسي غير منظور:
بين المركز وحافة الدائرة:

حذفه: و

حذفه: من أزمنة (الفلاش باك).

حذفه: غنية

حذفه: ال

حذفه: موكب

المزينة بالأعلام والبالونات وباقات الزهور، يدور في شوارع وطرق المدينة الرئيسية، والذي يجمع بين فتوة وعنف الشباب والمراهقين وحكمة الشيب من رجال وعجائز، صبوة جمال فتيات ونساء متبرجات يجمعن بين نسل مستوطنات الإغريق على الساحل الليبي وقبائل الأمازيج غادرن صحراء القحط مؤخرًا، صرن يرتدين أحدث ملابس الموضة الأوروبية وخاصة الإيطالية والباريسية ويتزين بأرتال الذهب والماس وعقود اللؤلؤ، ويتطيبن بأطيب العطور، وحيث هناك دائمًا تلك العربات السوداء الفارحة وزجاجها المعتم يركبها شخصيات ذات نفوذ كبير رجال مال أو كبار ضباط الجيش والثورة، إلى حيث تتقدم العربة الأهم. الأكثر بهرجةً وافتخارًا، السيارة التي تحمل العروسين، والتي تشير العلاقة بينهما إلى توترات وبكاء وقرب حدوث كارثة دامية مجهولة الأسباب والدوافع، والتي تتوج ذروة أحداثها الدرامية في فيلا العروسين.

ثانيًا: متواليته من أزمنة (الFLASH باك):

حذفه: ١

حذفه: ٠

حذفه: بدويات

حذفه: وأساور

حذفه: التي

حذفه: سواء من

حذفه: ال

على محيط الزمن المركزي، تترى وتتلاحق صيرورة السرد، وهي تعود إلى زمن ماضٍ، عالم من الأحداث والشخصيات تنمو من بين ثناياها وتتطور دراما السرد، تنفجر بحدث ما يعبر عن موقف حاد لشخصية ما من إحدى الشخصيات الرئيسية، وهي في طريقها نحو الماضي تنجرف نحو الامام، نحو الزمن المركزي. أقل من أربع وعشرين ساعة والأحداث والشخصيات تترى على حافة الدائرة الخارجية، مع متواليات الأحداث، تعدو مثل عداء يطوي حلبة سباق في سبيل الوصول إلى خط النهاية الذي من المتوقع وطبقاً للعادة وقوانين الضرورة التي فرضتها الطبيعة أن يكون لقاءً حاراً محتشداً بين ذكر وأنثى في مقتبل العمر، يمارسان متعة الجنس أو خلق حياة جديدة، من خلال الطقوس الدينية والأعراف الاجتماعية، لكن هيهات.

هكذا تتواتر الأحداث حتى ينتهي الموكب إلى فيلاً العائلة، حيث تقوم الماشطة بفض بكارة العروس

الزمان والمكان المركزي من التطور الدرامي المتصاعد نحو ذرة الحدث، ذروة العرس المتمثل في

حذفه: ال

حذفه: ال

حذفه: ٩٠

حذفه: جنسي

حذفه: ا

حذفه: ي

حذفه: ،

حذفه: ال

حذفه: أمام

حذفه: أقرانها

حذفه: و

حذفه: على ذاته

سقوط العروس أمام كشف العذرية، على مشهد
من الجميع، ليس ثمّة دماء، ليس ثمّة غشاء
للبركة، فالفتاة الجامعية التي أرسلت رسائلها
السرية إلى عريس المستقبل ترجوه أن يصرف النظر
عن هذا الزواج المشؤوم، كانت تعلم أن أخاها في ظل
هذا المجتمع المنغلق، هو مَنْ كان يضاجعها ليلاً وهي
تغط في النوم تحت تأثير المخدر، ولا تكون تلك هي
النهاية، النهاية مؤجلة بانتظار الدمار الشامل.

* * * *

حذفه: ا

حذفه: ا

حذفه: وزغاريد

حذفه: واغنيات السعادة

حذفه: و

حذفه: الفيلا وفي

سردية من أربع وعشرين ساعة يبدأ فيها موكب
العرس بأصوات النفير وزغاريد الفرحة واغنيات
البهجة، وينتهي نهاية مؤلمة عندما تُقرّر العروس
الانتحار وتُفجّر أنبوبة الغاز في نفسها، تحترق فيلاً
العُرس بأكملها وتحول الصباح من صباح الفرحة إلى
صباح أسى وموت حزين... إنه الخراب العظيم...

* * * *

شكل آخر مواز للعلاقة الناشئة بين مركز الدائرة
وحافتها، الواقع دوماً على محيطها، يتمثل في أن
متواليات الأحداث التي تجري على حافة الدائرة،

تأخذ شكلاً حلزونيًا يتقدم حدثًا بعد آخر في
طريقه نحو المركز، نحو الزمن المركزي، نحو ذروة
الأحداث، حيث الانفجار الرهيب...

* * * *

حذفه: **محاولة فاشلة للحصول على
درجة الماجستير في الخرسانة
سابقة التجهيز...**

حذفه: رسالة

حذفه:

حذفه: ال

حذفه: قد اخترت

عندما استقربي المقام في العراق، فكُرتُ أن أحصل على درجة الماجستير من إنجلترا في الخرسانة سابقة التجهيز، راسلت أصدقاء سبعينيين مقيمين في إسكتلاندا بالخصوص، عندما أوشكت على مغادرة العراق، لم يكن قد بلغني منهم أي خبر، في محاولة أخيرة حاولت الحصول على تأشيرة لدخول إنجلترا، لكن السفارة البريطانية في بغداد رفضت، ومن ثم تخلّيتُ عن الفكرة، على أي الأحوال رغم كوني كثيراً ما كنت أتساءل ماذا لو أن هذا المسار قد نجح؟ وكانت الإجابة دائماً ما تكون، أنني، أو أن القدر قد اختار لي الطريق الصحيح... وما هو الطريق الصحيح؟

بالطبع الأدب، وبالأخص فن الرواية... وسوف أسمح لنفسي بإضافة ملاحظة صغيرة، بأن هذا لم

يكن يعني مطلقاً أنني مهندس غير كفاء،
كنتُ دائماً من بين أفضل المهندسين التنفيذيين، وهو
ما تأكد يقيناً فيما بعد في أثناء عملي في الإشراف
على تنفيذ شبكة أنفاق مترو القاهرة.

* * * *

في قرية عنكاوة، أمضيت واحداً من أجمل الأوقات
في أثناء سفري خارج مصر، وكنتُ قد انتهيت من
كتابة المخطوطة الأولى لرواية المؤسسة والتي
تحولت إلى روايتي (العُرس)، و(العلم).

* * * *

(6 / 10)

حوادث درامية

قبل نهاية عقدي مع وزارة الإسكان العراقية
بثلاثة أشهر، قدّمتُ استقالتي، وفاءً لوعدهم قطعته
مع أحدهم بالنزول إلى الكويت، لشراء سيارة
مستعملة، نجوب بها أوروبا، وفي أثناء وجودي في

حذفه: من

بغداد لإنجاز أوراقى المتعلقة بإخلاء طرفى من العمل، ترامت الأنباء بقاء صدام حسين بإعدام ثلثة من الشباب أعضاء الحزب الشىوعى العراقى، النضم للجبهة التى تضم البحث وناصرىن وحدوىن، ولم يكن هنالك من جرم ارتكبه سوى شهوة السفاح للقتل.

حذفه: المصرى

عند عودتى من بغداد، فوجئتُ بزىلى فى العمل والسكن، والذى كما ذكرت سابقاً ينتمى إلى إحدى الأسر المصرىة المعروفة بانتمائها إلى اليمىن الشىوعى، كان شاحب الوجه، يعانى من توترات هائلة، وقد قام بتعليق صورتىن من الحجم الكبرى على واجهة المكتب لكل من رئيس الجمهورية أحمد حسن البكر، ونائبه صدام حسين، (وكان هذا تقليداً متبوعاً فى كافة المكاتب الحكومىة، إلا أننا لم نتبعه، ولم نهتم بتنفيذه، والحق يقال لم يطلب منا أحد أن نفعل)، وقد استأت لهذا السلوك كثيراً، والذى (فى اعتقادى)، لم يكن ثمّة حاجة إليه، واعتبرته تدخلاً فيما ليس لدينا به شأن، وانحيازاً غير أخلاقى ضد أصدقاء لنا حين لا يجب الانحياز، ولم أكن فى حاجة إلى التساؤل عن أسباب تعليق صور السفاحىن، إذ إن حادثه الإعدام المفاجئ لشباب فى

حذفه: السىد

حذفه: ٠

حذفه: والفكر اليساري بتنوعاته
ثمنه غالي...، ا، ١٠

حذفه: ة...العراق إلى رحلتي التي
انتظرْتُها طوال خمس... نوات
والتي كانت حلم كل شاب
جامعي في الستينيات

والسبعينيات، و...لتي يجوب

خلالها أوروبا... كان عليّ السفر

إلى بغداد، كي أنهي أوراقي

والحصول على بعض التأشيرات

للبلدان التي أنوي السفر

إليها، هذه المرة حملني الرفاق

العراقيون بعض... ثائق ال...فر

التي... خص رفاقهم من الشباب،

كي أتقدّم بها لبعض السفارات،

وكان... جُلّها ينتمي... فارات

تابعت إلى المعسكر الشرقي

الاشتراكي... للحصول لهم على

تأشيرات دخول، وكان

طلبوا... من شبابهم الحزب... لهرب

مقتبل العمر كانت تخيّم على بلاد كَلِّها السواد،
ويقال إن كالأ منهم أعلن وهو على منصة الإعدام عن
إيمانهم بالحزب الشيوعي العراقي والجهة التي
تضم معهم حزب البعث العربي الاشتراكي.

اكتفيت بالصمت إزاء هذا السلوك المشين، والغبي
أيضاً، والذي سوف يدفع زميل العمل والمسكن ثمنه
غالباً وهذا ما حدث...

* * * *

في الأيام الأخيرة التي سبقت مغادرتي العراق إلى
رحلتي التي انتظرْتُها طوال سنوات والتي كانت حلم
كل شاب جامعي في الستينيات والسبعينيات التي
يجوب خلالها أوروبا، كان عليّ السفر إلى بغداد، كي
أنهي أوراقي والحصول على بعض التأشيرات للبلدان
التي أنوي السفر إليها، هذه المرة حملني الرفاق
العراقيون وثائق سفر تخص رفاقهم من الشباب، كي
أتقدّم بها لبعض السفارات، وجُلّها سفارات تابعة إلى
المعسكر الشرقي، للحصول لهم على تأشيرات
دخول، وكان الحزب قد طلب من شبابهم الهرب من
الرعب القادم إلى خارج البلاد، فعلتُ عن طيب خاطر،
وكنّت أعلم أنني أسير على حبل مشدود، وأني

أعرّض نفسي إلى الخطر، رغم ذلك كانت لديّ ثقة بأن الأمور ستمضي على خير، وعندما عدتُ إلى أربيل مُحَمَّلاً بالجوازات ممهورة بالتأشيرات المطلوبة، عبّروا عن سعادتهم وتقديرهم وامتنانهم، وأخبروني أن رهاناً تم فيما بينهم إذا ما كنتُ سأعود بالجوازات، أم أنني سوف أغانر مباشرة دون أن أهتم بإعادة وثائق السفر التي تُمثّل طوق نجاة لهم، ون الغالبية قد راهنت على أنني سوف أفعل الصواب وقد فعلتُ، الحقيقة كان لديّ القدر المعقول من العقلانية، كي أتصرف على الخط الفاصل بين الشجاعة والحذر والتقدير الدقيق للموقف، وقد غادرتُ العراق كما غادرتُ ليبيا من قبل، دون أن يصدر عني سلوك شائن، أو ما يثير الخجل... ألا يُعِدُّ هذا أيضاً دافعاً مُخِلاً للوقوع في شرك الغرور؟!

* * * *

حذفه: ليبيا

حذفه: يلحق بي

حذفه: ٩١
خطة تحاك في الظلام لاختطاف مهندس
مصري

حذفه: كل شيء على ما يرام، أو
هكذا ظننت:

حذفه: في صباح خريفي بارد شرعت
في القيام بتلك الرحلة التي عزمت
على القيام منذ كنت طالبا في
الجامعة، وفي جعبتي مخطوطة
المسودة الاولى لرواية (المؤسسة)
والتي تحولت في صورتها الأخيرة
إلى روايتين هما رواية (العرس)،
ورواية (العلم). ٩٢

ركبت الباص وحيدا من مدينة
بغداد، وعبرت الحدود العراقية
التركية، من منفذ قرية (زاخو) في
الشمال، وطوال أيام اخترق بنا
الباص هضاب الأناضول؛ حيث
الطبيعة جمال مطلق، وكانت
إحدى الرحلات الساحرة التي لا

حذفه: مغادرتي

(7 / 10) وكان العالم متوقف بانتظار

مغادرتي العراق

كل شيء على ما يرام، أو هكذا ظننت، لكن هناك
أمورا مجهولة حيك في الظلام...

توالت الأيام، واقترب موعد السفر، لكن صاحب
الوعد الخاص بشراء سيارة مستعملة من الكويت
والسفر بها في طرقات أوروبا، خلف وعده ولم يأت، لم
يضع في حسبانته أنني خسرت ربع المدة المتعاقد
عليها، ولمّا تبين لي أنه لم يحاول حتى أن يرسل
رسالة اعتذار أو خطاب يوضح أنه عاجز عن تنفيذ
وعده، اضطررت لجمع أغراض في حقيبة ثقيلة،

وكان العالم متوقف بانتظار عبوري الحدود
العراقية التركية، إذ فور مغادرتي بلاد الرافدين، تم

تنفيذ خطة الاختطاف المبيتة، وكان الضحية زميلي في العمل والسكن؛ المهندس المصري الشاب الناب.

بعد مرور خمس سنوات التقيته مصادفةً في القاهرة، أخبرني أنه بمجرد مغادرتي الحدود تم اختطافه من قبل القوميين المتشددين الأكراد، ربما بواسطة (على ما أذكر)، الحزب القومي الكردستاني، قلت له، إنك حاولت الفكك من مذابح القوميين البعثيين العرب، فوقعت في مصيدة القوميين المتشددين الأكراد، وكانت حوادث اختطاف مهندسين مصريين شمال العراق قد تكررت، وخاصة العاملين في شق وتمهيد الطرق في الجبال الوعرة، ربما لمنع قوات الجيش العراقي من التوغّل بسهولة في مطاردتهم.

في أثناء حديثه، تذكرت وجوه الفنيين الأكراد الذين كانوا يعملون معنا في دائرة المهندس المقيم في مدينة أربيل، كانوا مهذبين بصورة شديدة الاحترام، أصحاب وجوه متيبسة، **طلسم صامت لا يكشف عما يدور بداخله**، وكنْتُ قد علمت قبل رحيلي مباشرة أن أحدهم متعاطف أو عضو بالحزب الشيوعي، بينما الآخر يتبع الحزب القومي

حذفه: لم يكن هناك أكثر وضوحاً وتبيانا وأعني بالنسبة لي من أن الأمور قد مرت على خير، فأنا الآن في اسطنبول، واسير الهوينى على شواطئ البسفور اتناول ساندوتشات السمك الطازج الشهي، وأشهد في متاحفها سلال الزبرجد والياقوت الخاصة بسلاطين آل عثمان، ولكن ...

حذفه: بزميلي في العمل والسكن في مدينة أربيل وعينكاوة

حذفه: ،

حذفه: والذي

الكرديستاني، والثالث ظل مجهول الهوية السياسية.

حذفه: عندما التقيته في القاهرة، بعد عودتي من الرحلة التي استمرت خمس سنوات...

حذفه: إلا

حذفه: للمساعدة وا

حذفه: في

حذفه: *

أخبرني أنه أمضى سنوات الاختطاف في ظل ظروف شديد القسوة، وقام مختطفوه على نقله من جبال كردستان شمال العراق إلى جبال كردستان غرب إيران، وأنه تم الإفراج عنه بعد مرور عامين من حادثة اختطافه، وتدخل كبار أسرته، والتيار السياسي الذي ينتمي إليه، والذين فوضوا حزب (تودة) الحزب الشيوعي الإيراني، (طبقاً لروايته)، المتدخل والتفاوض من أجل الإفراج عنه وقد أجزوا المهمة الصعبة، وعاد سالماً إلى الوطن.

* * * *

.C اورویا

الفصل الحادي عشر

عام ونيف في أوروبا

(1 / 11)

إسطنبول... إسطنبول...

أفكر كثيرًا في مساجدك..
مآذنك الطويلة التي تعانق السماء(5)

لم يكن هناك أكثر وضوحًا وتبينًا، وأعنى
بالنسبة لي، أن الأمور مرت على خير، فأنا الآن أجلس
في المقعد الأمامي للباص الذي ركبته من بغداد، وقد
عبرت الحدود العراقية التركية عند مدينة أو قرية
زاخو... شرع الباص يأخذني في رحلة فائقة الجمال
وهو يتجه غربًا، يسبح فوق هضبة الأناضول، كُنَّا في
الخريف، ولا تزال الخضرة تكسو الهضاب، قرى

5) (Istanbul) "المغنى البلجيكي مارك أريان في
صدرت أغنية
30 مايو 1966 .

ونجوع صغيرة، وقطعان الأغنام تُرى بينها... روعة ما بعدها روعة... وجمال يصعب وصفه... الآن أسير الهُوَيْلِي على شواطئ البسفور أناول مباشرة ساندوتشات السمك الطازج المطهوه لتوّها من مراكب الصيادين وأشهد في متاحفها سلال الزبرجد والياقوت وكراسي العرش المزينة بالأحجار الكريمة الخاصة بسلاطين آل عثمان.

أمضيت أسابيع في مدينة إسطنبول، وأغنية "إسطنبول إسطنبول" للمُغْنِي البلجيكي "مارك أريان" لا تفارقني، يتردد صداها كدقات افتتاح المسرح الكلاسيكي... شاهدت سلال الياقوت والزمرد لسلاطين آل عثمان، شاهدت كنيسة آيا صوفيا التي حوّلها العثمانيون إلى جامع، بعد أن أزالوا رسومات وصور القديسين من على جدران الكنيسة، مبقيين على صورة ضخمة قرب المذبح للسيدة العذراء ووالدة يسوع، تحمل على صدرها السيد المسيح، تحيط بهما هالة من ور سماوي، وقد شيد العثمانيون القرب منها جامعًا على شاكلتها، وهو جامع (آية أحمد).

حذفه:

حذفه: ضخم

حذفه: ت

حذفه: كان

حذفه: قد شيّدوا ب

إسطنبول إسطنبول.. لقد ضعت في أزفتك...

صعدتُ إلى حي تقسيم، لأرى للمرة الأولى في حياتي الواجهات الزجاجية لحوانيت تجارة الرقيق الأبيض، تعرض خلفها بنات الهوى؛ نساء من مختلف الأعمار؛ صبايا في الثانية عشرة، ومراهقات في السادسة عشرة، نساء شابات، في العشرين والثلاثين، ونساء عبرن الخمسين، المدهش أولئك النسوة اللاتي تجاورن الستين وبلغن السبعين، جميعهن كُنَّ شبه عرايا، يدخنُ السجائر بشراهة وينتظرن من يتقدم من بين المتزاحمين على الواجهة الزجاجية لينتقي إحداهن ويصعد بها الدرج لقضاء وقت من المتعة، لقاء مقدار معلوم سلفاً من المال.

* * * *

غادرت إسطنبول الجميلة بالباص والذي يُعد الأرخص بين وسائل المواصلات العابرة للحدود الدولية، متوجهاً إلى صوفيا عاصمة بلغاريا، في أول زيارة لي للتعرف على البلدان التي كانت اشتراكية ذات يوم، وهناك التقيت بظاهرة المطاعم العامة، صحية، شديدة النظافة، رخيصة الثمن بصورة غير معقولة، ومنها توجهت إلى المجر، حيث ثمة نظام للإقامة (شائع في البلاد الاشتراكية في ذلك الوقت، والتي لم تعد كذلك الآن)، يمكن للسائح استبدال الإقامة في الفنادق باهظة التكلفة، بقضاء إجازته في ضيافة أسرة من أهل المدينة، لقاء أجر معقول، وهي طريقة أفضل للحياة وسط أهل البلد، والتعرف على أبنائها.

تجارة سوداء

كانت هناك أسوأ ظاهرة ساهمت في تدمير اقتصاد البلدان التي كانت اشتراكية، وهي تجارة العملة السوداء، وكانت منتشرة بصورة فظيعة، حيث قيمة الدولار في السوق السوداء تجاوزت عشرة أضعاف العملة المحلية، وأحياناً أكثر، ومن المؤسف والمؤلم، ومن العار القول بأن من أبرز العاملين في مجال تلك التجارة طلبية عرب بعض منهم كان يدرس بمنح مجانية، وبعض آخر كان يفتخر ودون ذرة خجل بكونه ينتمي إلى تنظيمات شيوعية محلية، فضلاً عن أصحاب جوازات دبلوماسية من موظفي سفارات عربية.

* * * *

استقرت في بودابست عند سيده عجز طيبة ومبهجة، وبينما كانت مدينة بودابست شديدة الجمال والنظافة، وأبنائها وبناتها يقضون أوقاتهم وأعمالهم عدواً في الطرقات وهم يتوثّبون نشاطاً، ومقاعد الباص فارغة، إلا من الأطفال والعجائز، بينما

البقية يقفون في ممرات الباص والترام بكل نشاط وحيوية.

شاهدت بصحبة السيدة العجوز مسرح الأوبرا المجري، وكان يستخدم "تكنيك" حديثاً، تتحرك فيه كتل من المكعبات، لتضييق المساحات المتوفرة للأبطال بصورة لا تبقي سوى حافة للسقوط أو الانتحار.

حضرت حفلاً غنائياً صاحباً لإحدى أشهر فرق الغناء الأوروبية، وهي فرقة "الآبا" السويدية، وكانت التذكرة لقاء أربعة (فورنت) مجرياً.

* * * *

التقدم دومًا إلى الأمام..
وعدم العودة إلى الوراء

إلا بعد بلوغ النهائية

تعلمت في أثناء كتابتي النصوص الروائية والتي تتطور عادة في أثناء التقدم في كتابة النص، إلى تغيير ما، أحيانًا في أسماء الشخصيات، أو تغيير في الأزمنة أو الأماكن، أو تطور الأحداث، وقد تعلمت ألا أعود إلى الوراء لتعديل ما ينبغي تعديله، وإنما كنتُ دائمًا أتقدم إلى الأمام، وهدفي المنشود المحبب بلوغ نهاية النص الروائي، فالرواية تصير مشروعًا لرواية بلوغ المسودة الأولى مشهد النهاية، أمّا تلك التغيرات، فقد كنت أكتبها إما كملاحظات على الورق بجانب مواضع التغيير، أو في نوتة خاصة أضع تلك التغيرات بجانب أرقام الصفحات أو الفقرات المطلوب تعديلها.

هذا يعني أن النص الروائي يحتاج إلى إعادة كتابة مرة واثنين وثلاثاً، وربما أكثر، أولاً لإجراء التعديلات اللازمة التي فرضتها تطورات السرد، ثانياً، تلعب المراجعة وإعادة الكتابة من البدايات دوراً محورياً في رفع مستوى وبلاغة اللغة وإيقاع الموسيقى المباشرة أو الداخلية لمنطومة السرد.

طوال شهرين متواصلين في غرفتي الأنيقة ومقعدتي الجلدي، عكفت على إعادة كتابة المسودة الثانية لمخطوطة رواية المؤسستة، فيما بعد، روايتي (العُرس، والعلم) منذ البداية، ولم أغير "بودابست" إلا بعد بلوغ النهاية.

إلى وارسو

حيث ملامح الانهيار تبدو في الأفق

عندما انتهيت من كتابة المسودة الثانية، غادرت "بودابست" إلى "وارسو" ببولندا، حيث التقيت بصديقة إسبانية، وكانت الحياة الاجتماعية وشجارات الشوارع الليلية تملأ شوارع "وارسو"، وتُنْبئ عن الغيوم القادمة، والغريب أنني تمكنت في "وارسو" من الحصول على تأشيرة دخول إلى بريطانيا، وفي قطار العودة إلى "بودابست" عرضت عليّ سيدة

"تشيكيتة" مفاتيح سيارتها وشقتها، ولكني لفرط غبائي اعتذرت، احترامًا لوعدهم قطعته مع رفيق سألتقيه في "بودابست"، ولكن.. مثله مثل صاحب فكرة شراء سيارة من الكويت، لم يحضر هو الآخر، يبدو أن البعض لم يأخذ مواعيده معي على محمل الجد.

إلى متحف الأرض العائم

قضيتُ في "بودابست" أيامًا قليلة، ومنها توجهتُ إلى فينسيا (البندقية)، أمضيتُ أيامًا لا يمكن محوها من الذاكرة، جمال الفنون، وعبقريته فناني عصر النهضة، لا يمكن أن تتوفر إلا في مدينة القنوات المائية والجندول، متحف عائم يضم بين قصوره التي تنم عن ثراء فاحش، وعن عائلاتهما التي تحمل ألقاب "كونت" و"دوق" و"مركيز" و"أمير"، يتنافسون على عشق الفنون، وأنت كزائر تلهث ولا تكتفي، وعينك مفتوحتان على سعتيهما تشهدان بشغف جدران قصورهم ذات المساحات الضخمة، رُسم عليها عشرات اللوحات الفنية لأشهر وأعظم فناني عصر النهضة.

توجهتُ بالقطار إلى ميلانو، وليس في نيّتي قضاء ليلة واحدة، كان هناك تهديد أخبرتني به صديقتي من تشيلي بأن النشل جارٍ على قدم وساق، حجزت على الطائرة المتوجهة إلى لندن بعد ساعات من وصولي محطة قطار ميلانو، لكنني فوجئت في المطار بإضراب المراقبين الجويين، شلّت حركة الطيران، عدتُ مضطراً إلى المدينة التي حاولت الهرب منها، التقيت بتجار الشنطة الذين يحضرون من الإسكندرية، حقائب ممتلئة بأرغفة الخبز المحمص، توفيرا للنفقات، وباعة الطرقات من شمال إفريقيا يعرضون ساعات مزيفة لأشهر الماركات العالمية.

* * * *

الفصل الثاني عشر

لندن

من مهندس إنشاءات
إلى غاسل صحنون (washer up)

(1 / 12)

غاسل صحون / (washer up)

كنت قادمًا من بلاد النفط؛ ليبيا، والعراق، حيث عملت مهندس إنشآت، وبعد رحلة امتدت لشهور على طرق ومدن الأناضول وأوروبا الشرقية، ومن ثم البندقية وميلانو، ثم إلى لندن، عام 1978، وفي العاصمة اللندنية التقيت عددًا من طلبة الدراسات العليا والمهاجرين إلى الغرب من جيل السبعينيات.

استقرت في ضاحية "ريتشموند"، وكان بها الكثير منهم، وكانت تضم عددًا واسعًا من الجالية المصرية، وهناك خلعت البدلة، وعملت في بلاد الثلج والضباب غاسل صحون (washer up) في مطعم إيطالي، ثم انتقلت للعمل في أحد سلسلات مطاعم (ويمبي)، في حي ريتشموند بلندن، وترقيت فيما بعد إلى "نادل"، ثم "شيف"، وأخيرًا مدير المطعم.

في أثناء لقاءاتنا في سهرات أسبوعية، قررنا تكوين تجمع للمصريين العاملين في مطاعم و"بارات"

وملاهي لندن، أطلقنا عليه (الرابطه المصريه)، وكان من أبرز أعضائها القائد الديمقراطي البارز والزعيم الطلابي التاريخي للحركه الطلابيه لجيل السبعينيات، د. أحمد عبد الله رزة، وكان يقوم بتحضير رساله الدكتوراه، عن الحركه الطلابيه في جامعه كمبردج، والفنان الملهم (أشرف السركي) الذي لو أتيحت له العوامل والأجواء المناسبه لصار خليفه للفنان العظيم (سيد درويش)، وكان يعمل عازفًا في ملاهي لندن الليله التي تستقبل الأثرياء العرب وما يلزمهم من راقصات شرقيات، كان المجتمع المصري ومنذ هزيمه يونيو 67 عقد العزم وبكل قوة على قتل الموهوبين والمبدعين من أبناءه، وكأن الهزيمه العسكريه لم تكن لتكفي، بل يجب أن تستمر لحساب هزيمه اجتماعيه شامله، تولت قيادتها شله فاسده من المنتفعين، والجهله، والمنافقين.

كان من المشاركين أيضًا؛ ابتهاج رشاد، صحفي يدعى يسري حسين، وطالبه الدراسات العليا منى أنيس، وشاب يدعى إبراهيم، وكان يعشق فتاة برتغاليه تدعى "كارلا"، تزوجا فيما بعد، كان هناك

آخرون كُثُر لا تسعني الذاكرة لسرد أسمائهم
الكريمة، وإن كنت أذكر جيداً أنني كنت أحدهم.

* * * *

(2 / 12)

الناشر الرابع.. مجلة المصري- لندن

مذكرات (Watcher - Up) -

اتفقنا على قيام الرابطة بإصدار مجلة أطلقنا عليها اسم {المصري}، أصدرنا ستة أعداد على نفقتنا، وكُنَّا نبيع العدد بـ (عشرة بنسات)، وللأسف لا يتوفر لديّ منها نُسخ، مثلها مثل مجلة وحي الهندسة، ومشروع محو الأمية، ومن المحتمل أن يكون لدى الفنان المبدع أشرف السركي نُسخ منها. وكان من صمّم أول غلاف للمجلة أحمد بهاء. بشكل عام، كانت مجلة المصري؛ الناشر الرابع، والناشر الأول لي في مجال القصة القصيرة، إذ شرعت في كتابة ما أطلقت عليه:

{ يوميات "وشر أب". Washer up }

أي يوميات غاسل صحون، والتي لاقت نجاحًا كبيرًا بين الجالية المصرية في لندن..

أذكر أن أول يومياتي كانت خاصة بالمقارنة بين
تمثال (دوق ولنجتون) السامق في قلب العاصمة
اللندنية في ميدان الطرف الأغر، وبين تمثال الملك
رمسيس في ميدان باب الحديد في قلب مدينة
القاهرة.

نعم، كنت شديد الثقة في هويتي الوطنية.

* * * *

(3 / 12)

حفل للمثليين

كُنَّا نقيم في غرفة واسعة بالطابق الأرضي لأحد مباني لندن الشائعة والعريقة، والتي تكون عادة من طابقين من الطوب الأحمر الداكن الصلب، والتي تنتشر على ما أعتقد في كافة المدن والقرى الإنجليزية، وعادة ما كان يلحق بها حديقة واسعة.

في الحجرة المجاورة، كانت تقيم سيده ثلاثينية وحيدة، تعمل "نادلة" في مقاهي وبارات لندن، تُدعى مادلين، كانت ضخمة الجثة لديها سمعة مفرطة، وهذا لا يقلل من شأنها نهائياً، ولكنها ذات ليلة فاجأنا بعمل حفلة في غرفتها، ورغم أنها دعتنا، إلا أننا لم نذهب، ورغم ذلك امتلأ الفضاء برائحة غرابية، كان يقيم معنا شاب ظننا في البداية أنه خمسيني بسبب هدوئه وتصرفاته الحكيمه،

شيب شعره، لحيته الطويلة، وارتدائه دائماً "كاب"
أحمر...

في تلك الليلة أصرّ ذاك الشاب على دعوتنا
للحضور، حيث كانت البيرة الوفيرة تُقدّم في علَب
صفيح ضخمة تضارع علَب السمن الهولندي التي
كانت تستخدمها أمهاتنا في الطهو...

عندما توجهتُ إلى الغرفة التي تقيم بها مادلين،
أُصبتُ بالصدمة، ولم أتمكن من عبور الباب، وقفت
مذهولاً، إذ كانت الغرفة تمتلئ بعدد وفير من
الشباب المثليين (gay)، في الثلاثينيات والأربعينيات،
وكان كل منهم يعانق الآخر ويراقصه بحميمية،
ظلت واقفاً دون القدرة على الحركة. أخفي
امتعاضي وعدم القدرة على القبول بالمشهد.

أذكر أمرين؛ الأول، أن هؤلاء الشباب المثليين كانوا
يفتقدون الوسامة، بل وكان بهم نوعاً من التشوه أو
القبح...

الأمر الثاني، أن صديقنا اللطيف الحكيم الذي كنّا
نظن أنه في الخمسين من عمره حلق لحيته، ونزع
قبعته، وظهر في العشرينيات، حدث ذلك مصحوباً

بإعلان زواجه البنس من السيدة مادلين، وكان
الغرض معروفاً، كي يتمكن بهذا الزواج من الحصول
على كارت الإقامة، ويرتاح من مطاردة شرطة
مكتب الجوازات، (الهوم أوفيس).

* * * *

(4 / 12)

زواج بزفس

نساء برطانيات في الخمسينيات والأربعينيات يعانون من الوحدة، يخرجف إلى المطاعم والملاهي والطرقا؁ يبحثف عمن يشبع حاجا؁هن الجنسي؁؁ شباب مصري في عمر الزهور وفورة الشباب يبحثون عن الزواج بهن؁ عن كارت الإقامة الذي ي؁تيح لهم الإقامة الشرعي؁؁ ومن ثم يتمكنون من السفر والعودة إلى الوطن؁ ورغم ذلك لم يتركهم رجال شرطة الجوازات؁ أو الهوم أوفيس في حالهم؁ فغالبًا ما كانت الشرطة تق؁تحم مساكنهم؁ بحثًا عن ملابس نسائي؁ة تؤك؁د إقامة الا؁ثنين معًا.

هل يمكن أن يُضاف ذاك الام؁تهان؁ وتلاشي فضيل؁ة الشرف والكرامة إلى سجل الموبقات والنكبات التي حلت على المجتمع المصري بعد هزيمة 67؁ ربما نعم

وربما لا، لكن المؤكد أن الهزيمة هي أحد أسباب
الانتشار الهائل لهذه الظواهر المزعجة.

* * * *

(5 / 12)

هل لديّ قُدرات الروائيين العِظام؟

أكسفورد 1978

في جامعة أكسفورد، التقيت بالدكتور صبري حافظ، وكنت قد أرسلت له مخطوطة روايتي المؤسسة (العرس/ العلم) من خلال صديقتي، سبق لها أن عبّرت عن إعجابها بعد قراءة المخطوطة.

في أحد مقاهي القرية التي تضم واحدة من أشهر الجامعات العالمية ذات الميول اليمينية، جلسنا في لقاء ضم حوارًا طويلًا، لا أذكر منه، سوى أنه كان حوارًا في أغلبه حول مخطوطة الرواية، أذكر أنه استفسر مني عن الأماكن التي ذُيّلت بها الرواية، وكانت تضم قرية عنكاوة في أربيل- العراق، ومدينة بودابست عاصمة المجر، ومدينة وارسو عاصمة بولندا، وفينيسا دُرّة الجمال الإيطالي.

لعل الملاحظة التي أتذكرها بوضوح، أنني لم أحظ منه بأقل قدر من المديح أو التشجيع، ولا الذم أو

التثبيط، كان ضئيلاً في الأمرين، وهو ما تأكد مع مرور الأيام والسنوات، إذ إنه تجاهل أعمال الروائية كليتة، في نهاية اللقاء سألت مضطراً السؤال الذي ظل يخامرني منذ شرعتُ في كتابة الرواية، نهاية 1975 وحتى صدرت، رواية نهر السماء عام 1987:

سيدي الناقد المبجل والبروفسير المحاضر المقدر في جامعة أكسفورد اليمينية العظمى، هل أنا روائي؟.. وأنا لم أقل مثلاً: هل أملك إمكانات وقدرات كبار الروائيين العالميين؟

في مدينة أكسفورد، لم أجرؤ على النطق بلفظ كبار الروائيين العالميين، اقتصر السؤال علي:

هل أنا روائي؟

ولمّا لم أجد إجابة، أعدت سؤالاً بصيغة أخرى:

- هل أستمر في كتابة الرواية؟

وكانت إجابته بسؤال آخر:

- وهل لو طلبت منك التوقف عن الكتابة، سوف تفعل؟

وهكذا، وعلى هذه العبارة انتهى اللقاء.

* * * *

الجزء الثالث

ثمانينيات القرن العشرين

الخروج إلى النور

- "العُرس" (1980) طبعة أولى ماستر، بلا دار نشر، ودون ترقيم محلي أو دولي، وفائض أغلفة أُلقي في القمامة.
- "نهر السماء" (1987) طبعة أولى، دار الفكر المعاصر.
- "مراعي القتل" .. (عودة بعد الفهم).

مقدمة

على هامش العودة إلى الوطن

وُلدنا لنفوز أو لنخسر

وأنا وُلدتُ لأخسر على المستوى الشخصي، لعنتُ
لازمت حياتي منذ الطفولة وحتى تسلم الروح
أنفاسها الأخيرة...

أخطأت قليلاً، انحرفت عن جادة الصواب أحياناً
لأسباب ظننتها منطقية، قدّمتُ الكثير والكثير من
مشاعري وما أملكه لأقرب الناس وعديد الأصدقاء،
وما كانوا يستحقون.

شيء واحد ظفرت به، وهو أنني عشت الحياة
بشرف، تحملت المسؤولية، عن إيمان وحب تجاه
آخرين، لأكتشف في نهاية الطريق أنهم يمقتونني
مقتاً، ولهذا أعترف بأنني أنتمي لأولئك الذين وُلدوا
ليخسروا، وتكون خسائرهم جسيمة.

* * * *

الفصل الثالث عشر

رواية العرس

عدتُ من الخارج بعد رحلة استغرقت خمس سنوات، يصاحبني ثلاثة رفاق، أصدقاء كانوا أم غُرماء:

- مخطوطة رواية المؤسسة (العرس / الحَلَم).-
- خلاف بين رفاق من جيل السبعينيات.
- آفة الغرور اللعينة.

* * * *

(1 / 13)

إنها مسألة "هارموني"

بدأت في كتابة المخطوطة الأولى لرواية المؤسسة في الربع الأخير من عام 1977، في قرية عنكاوة شمال العراق، وانتهيت منها في الربع الثالث من عام 1978، وكانت تتكون من جزأين؛ الأول، وهو (الغرس)، والثاني وهو (العلم)، وتلك كانت المسودة الأولى.

في الربع الأخير من عام 1978، أعدت كتابة الرواية بجزأيهما في مدينة بودابست، وتلك كانت المسودة الثانية.

عدتُ من الخارج، ولديّ شعور بأن خطأ ما متعلقاً بفقدان التناسق أو "الهارموني" بين عالمي الجزأين الرئيسيين لما أطلقت عليه إجمالاً اسم (المؤسسة)، سافرت إلى الإسكندرية ومعني مخطوطة رواية المؤسسة، كان موسم الشتاء، استأجرت شقة قريبة من البحر، وعكفت طوال شهرين على حل الإشكالية التي تورقني، حيث تأكد وجود فصام فني بين الجزأين، وأنهما يفتقدان "الهارموني" الفني

اللازم بين المكونات الأساسية لفن الرواية، ومن ثم
افتقاد وحدة النص، طبقاً للعوامل الآتية:

الزمن الرئيسي في الجزء الأول، وهو (العُرس)،
يدور في ليلة واحدة، هي ليلة عُرس ناصر، ودرية،
بينما الزمن في رواية (العلم) هو زمن يمتد طويلاً في
متواليته متواصلته، وبالطبع كلاً الجزأين يضمن
حكايات يرونها الأبطال من خلال زمن "الفاش باك".

المكان الرئيسي في رواية (العُرس) هو شوارع
مدينة بنغازي الرئيسية، وأحيائها الراقية، وينتقل
إلى مدينة التل السورية المجاورة للعاصمة دمشق،
ليعود ثانية إلى بنغازي، بينما المكان في رواية
(الحلّام) هو تلال مدينة القبة، حيث جذور أسرة
(بوزوي)، ومدينة درنة، حيث قصة حب ونيس
وسالمين، كذلك بنغازي المدينة التي شهدت صعود
نجم عمر بوزوي من خلال ارتباطه بكبار ضباط
الثورة.

شخصيات رواية (العُرس) هي مجموعة من
شخصيات تنتمي إلى جنسيات عربية مختلفة،
جاءت إلى بلاد النفط، بحثاً عن العمل وجمع المال،
بينما شخصيات رواية (العلم) الرئيسية، هي عمر

بزوي، وأسرتها، وإخوته؛ ناصر، ونيس، حميدة،
والبنتان، والأب، فضلاً عن شخصيات ليبية أخرى.

الدراما في رواية (العرس)..

دراما الصراع في رواية (العلم).

كلا الروايتين تنتهيان بمأساة، في (العرس) تعود
الأسباب الرئيسية إلى عادات وتقاليد مجتمع بدوي،
موصود الأبواب، مخلق على ذاته، تُفجّر العروس
الفيلا بعد الفضيحة التي لحقت بها عقب كشف
العذرية، وتنتحر.

في (العلم) تنجم المأساة عن الثراء الفاحش لعالم
النفط، ودخول مجتمع بدوي بصورة متسارعة
عصر الحداثة، تُلقي ثرياً بنفسها في حمام السباحة
الفخم الذي ابتناه لها زوجها الشاب الذي قرر -كي
يؤمن نفسه- من عوائد الزمن وخطوب تقلبات
العقيد- الزواج بشقيقة ضابط من كبار ضباط
الثورة.

في شتاء الإسكندرية، عكفت على الكتابة من جديد، وقد تم الفصل بصورة نهائية بين الجزأين ليتحوला إلى روايتين منفصلتين؛ هما (العرس)، و(العَلَم). نَحَيْتُ رواية (العَلَم) جانبًا، وغادرت عروس البحر المتوسط.

في القاهرة، قَدَمْتُ رواية (العُرس) للأصدقاء من الوسط الثقافي، وقد لاقت ترحيبًا وافتتانًا هائلًا من جميع من قرأها، وجاء القول الفصل من الرأي الذي أدلى به الأستاذ إبراهيم فتحي (وهو المعروف بتشدُّده في آرائه النقدية والسياسية)، وكانت الصديقة النادرة؛ شوقية الكردي قد أخذت على عاتقها مهمة تعريفه بي، وذات يوم اصطحبتني إليه في شقته الكائنة في حي دار السلام بالمعادي، حيث أفصح بعد قراءتها بأنه لم يقرأ نصًا يمثل هذا الجمال، منذ عشر سنوات.

بطبيعة الحال تضمن هذا الرأي الإجابة التي طالما أنتظرها، وهي فيما إذا كنتُ روائيةً حقيقيًا أتقن فن الرواية، أم مجرد روائي تقليدي فاشل.

لا يعني ذلك موت السؤال، فمع كل مشروع روائي كان السؤال يولد، ويعيد طرح نفسه:

- هل أنا روائي يتقن فن الرواية العالمية العظيم؟

* * * *

الفصل الرابع عشر

إشكاليات ما بعد الإبداع

(1 / 14)

نمط طباعة بدائي

تحت ضغط الحركة الطلابية والوطنية، اتخذ "السادات" قرار حرب تحريك، عبر الجيش المصري قناة السويس، وفتح الرئيس المؤمن أبواب الفساد على الغارب، وأطلق وحش الجماعات الإسلامية المتشددة من عقاله، وعقد مع العدو معاهدة سلام في مارس 1979، وفي 17 و18 يناير انطلقت انتفاضة الخبز في ربوع الوطن، عكف الرئيس السادات على الانتقام من معارضيه وخاصة اليسار، وهدم البنيان الثقافي الذي شيّدته طوال القرنين التاسع عشر والعشرين الليبرالية والناصرية، وكان الضحية المؤسسات الثقافية ورموزها، ومنتجاتها، وفي المقدمة سلعة الكتاب.

منذ منتصف السبعينيات ارتفعت أسعار الكتب بصورة درامية ومستحيلة. وبعد أن كُنّا نشترى الكتاب من باعة الجرائد بثلاثة أو خمسة قروش بلغت أسعاره في الثمانينيات ثلاثة، وخمسة

جنيهاً، وتم التنكيل بمنارة الثقافة بسوق الكتب المستعملة (سور الأزبكية)، (ومن المخجل الإشارة إلى سعره الآن، فنحن إزاء فضيحة ثقافية سياسية)، وبهذا أُخرج بفعل فاعل من بين جمهرة مثقفي المستقبل أجيال كاملة من الأطفال واليافعين...

الفنان محمود بقشيش

هاجر بعض المثقفين إلى بلاد النفط، وسافر البعض في خدمة الأنظمة القومية القمعية؛ بغداد، دمشق، طرابلس الغرب، وقد نالوا عوائد وفيرة، وبقي في الوطن مثقفون على درجة عالية من النزاهة، أمثال الفنان محمود بقشيش الذي صنع تجربته الفريدة في النشر التي أطلق عليها: (نشر الماستر).

* * * *

(2 / 14)

محتوى راديكالي/ البحث عن ناشر

شرعت في البحث عن (ناشر)، وبسبب المحتوى، الذي تناول بصورة نقدية راديكالية قضايا اجتماعية وسياسية وجنسية، ومن بينها النقد

الموجّه للحركة الشيوعية المصرية، والإشارة إلى إخفاقاتها في مقابل نجاح الحركة الصهيونية في تأسيس إسرائيل، بجرأة لم تعتد عليها الرواية بعد، خرج من دائرة الإمكانيات كافة دور النشر التابعة للدولة، وانطبق الأمر على دور النشر الخاصة التي كانت في بدايات عهدها، ولا تزال تحبو، بعد أن كانت الدولة تسيطر بشكل كلي على مؤسسات النشر.

بدأ الطريق إلى النشر بلا أفق، وكنتُ على أحر من الجمر، مستعدًا للقبول بأي شيء، مستعدًا لتحمل التكلفة كي أتمكن في النهاية من نشر أول نص روائي لي حاز إعجاب وافتتان جمهور المثقفين.

بفضل رأي الأستاذ الناقد وصاحب التاريخ السياسي الراديكالي إبراهيم فتحي، جاءني عرض من أحد المنتمين للتنظيمات اليسارية السريية، يعرض تولي عملية النشر، على أن أتحمّل النفقات، وكان العرض الوحيد المتوفر أمامي، ودون البحث في التفاصيل، وافقت على الفور، إذ لم يكن هناك بدائل.

إبان تلك الفترة، كنت سعيدًا بصورة يصعب وصفها، ورغم ذلك يمكن القول بأنه بعد مرور عقود من الزمن ونشر عديد الكتب لي تبين أن هناك

مجموعة من العيوب، بعضها جسيم، ربما تعبر عن
عدم توفر الخبرة الكافية لدى القائم على عملية
النشر، فيما بعد اكتشفت أن المهمة تقتصر على
الطباعة ولا تتضمن مهمة التوزيع. وقد فوجئت
باستخدام طريقة بدائية (الستانسل / الماستر) في
الطباعة، فما بال عملية التوزيع المعقدة!!

ولكن في النهاية كنت سعيداً، ولا زلت بالطبعة
الأولى من رواية (العرس)، والتي كان لها الفضل في
وجودي كروائي بين أوساط المثقفين.

* * * *

(3 / 14)

النشر بطريقة الماستر

يظهر العيب الأول في أسلوب الطباعة والذي تم بطريقة الماستر، وهي طريقة شديدة البدائية، غير مناسبة لطباعة الكتب، تعتمد الكتابة على الآلة الكاتبة، ثم الطبع على ماكينة (ستانلس)، تُستخدم للعمل في الدواوين الحكومية بأعداد محدودة في عدد الصفحات والنسخ، بهدف إصدار الخطابات والخطط والقرارات المتعلقة بالإدارات الحكومية، وكان أول من استخدم هذا النمط البدائي كحل للخروج من أزمة ارتفاع أسعار الكتاب، الفنان محمود بقشيش في نشر القصة القصيرة ودواوين الشعر، وبعض الدراسات والمقالات النقدية.

* * * *

تمثل العيب الجسيم الثاني في طبع الرواية دون
تسجيل في المؤسسة المختصة، دون رقم إيداع، دون
ترقيم دولي، وكأنها أقرب إلى أنها لم توجد.

تصبح رواية (العرس) أول رواية، وربما الأخيرة
التي يتم طبعها بتلك الطريقة (الماستر). كما خلت
النسخ من الترقيم المحلي والدولي.

* * * *

غلاف تحفة

قام الصديق الفنان الليبي عمر جيهان بتصميم
غلاف يجمع بين البيئة الليبية ومحتوى النص، حيث
المرأة الليبية بطلة النص تعيش حبيسة كُوى في
جدارية سميكة تجمع بين لون الصحراء الأصفر،
ولون الجدران البني، كان الغلاف جميلاً ومعبراً.

* * * *

(4 / 14)

خسائر... أرباح

تم طبع أربعمئة نسخة "ماستر" من الرواية، كما تم طبع (دون سبب أو مبرر مفهوم) سبعمئة نسخة من الغلاف، تم تسليمي أربعمئة نسخة من الرواية بالغلاف، (فضلاً عن ثلاثمئة نسخة إضافية من الغلاف منفرداً، احتفظت بها لسنوات قبل أن ألقى بها في القمامة.

خسائر تخلّي الناشر عن التوزيع

كلفتني الرواية سبعمئة جنيه، نظير أربعمئة نسخة، وربما بسبب جهل المؤلف والمتطوع بالنشر، وهو ما انعكس في عدم وضوح الاتفاق، ودونما إنذار تخلّي الناشر عن عملية التوزيع.

لم يكن هناك أدنى نية للبحث عن أرباح، ساعتها قررت بيع النسخة الواحدة بجنيه واحد، ولا أتذكر أنني قد تمكنت من بيع الكثير، إذ إن الغالبية من المثقفين كان لديهم ميل للحصول على نسخ مجانية، هكذا جرى توزيع غالبية النسخ مجاناً، أو هدايا.

* * * *

(5 / 14)

حصار صارم

نشرت رواية (العرس) منتصف عام 1980، دون رقم إيداع أو بصمة تشير إلى وجودها، ورغم أنه أُعيد طبعها بعد مرور عشرين عامًا في دار نشر بصورة احترافية، فلم يحدث طوال ما يقارب ثلاثين عامًا أن تطوع ناقد بالكتابة عنها، أو عمل دراسات نقدية حولها، أو أشير إليها في جريدة أو مجلة محلية أو عربية، ومن تجرأ جرى إهمال ما كتب ولم ينشر.

* * * *

إعجاب هائل وصمت مطبق

إعجاب هائل بالرواية ولا ملاحظات تخص اللغة ولا سرد الحوار باللهاجات المحلية والعربية المتنوعة أو البنية المحكمة لبناء تطور الأحداث، ولا الصراعات الدرامية التي كانت ذرة العقد، ولا العدد الهائل من الشخصيات المتنوعة: لبييون، مصريون،

سوريون، فلسطينيون، لبنانيون، سودانيون، جميعهم ينتمون إلى جنسيات وثقافات متعددة، طبقات متنوعة ومصالح متضاربة، ونساء من طراز رفيع، وأخريات يتم سحقهن بلا شفقة.

ما هي الأسباب؟.. وهل كانت تستحق؟

تدمير الحياة الثقافية وتعفننها في الوطن، وفي ظل سبيل الأموال النفطية القومية، قضى على استقلال المثقف، (ربما قضاءً مُبرماً)، وأصبحت الأقلام تكتب بما يثير الغبطة والسعادة لدى صاحب المال، وتلون الحبر على ورق الجرائد والمجلات بذائقة الفاسدين والمنافقين.

على أي حال:

ذكرت سابقاً، أنه منذ عودتي من لندن، نهاية عام (1979) حملت على كاهلي عبء الخلاف مع شخصيات تنتمي إلى أكبر تنظيم يساري (ذو صبغة يمينية) والذي كان دائماً ما يستفحل، إضافة إلى ذلك أن الرواية ضمت عدداً من الخطوط، **شنّ من خلالها هجوماً ضارياً** على كل من النخب الشيوعية والقومية الاشتراكية في عجزها عن تحقيق أهدافها

وتطلعات شعوبها نحو العدالة والحريّة، وكبح التطلعات المناوئة من قِبَل الخصوم الخارجين، وذلك في مقارنة مع الحركة الصهيونية، وما حققته الدولة الاستيطانية التوسُّعية من نجاحات!

وكأني ارتكبت جريمة كبرى! الإجابة الهامسة:

- مَنْ أنت؟
- كيف تجرؤ؟

وهكذا كل ناقد، كل مثقف، كل سياسي ينتظر تمويلاً من ليبيا أو سفريّة، أو مؤتمراً أو منحة إلى دمشق أو بغداد، بيروت، اليمن الجنوبيّة، عليه أن يطفئ مصباح العقل ويغمض عينيه، ويضع قلبه ووجدانه في السيارة أو الفيلا التي سوف يقتنيها من أموال ممّوليه.

في مطلع الألفية الثالثة كتبت ناقدة في بداية نشاطها النقدي دراسة نقدية مطوّلة عن رواية (العُرس)، ولم تجد من ينشرها، وقد جرى احتواؤها فيما بعد...

فقط عام 2018 بعد صدور الطبعة الثالثة للرواية من قبل دار نشر (مجاز)، وبعد ما يقارب ثمانية

وثلاثين عامًا من نشر الطبعة الأولى، كتب شاعر كبير وصحفي في جريدة الشرق الأوسط اللندنية مقالاً رائعاً، وكان القذافي قد كنسته أحداث الربيع العربي، وقبله صدام حسين في حرب الخليج الثانية، وكان لا يزال في دمشق مستبد ثالث ينتظر رحيله المحتوم، وهو ما حدث مؤخرًا.

تلك الأسئلة التي طرحتها رواية (الغرس) في ثمانينيات القرن الماضي، لم يفكر المعنيون بالأمر في بحثها أو دراستها أو دحضها، بل عملوا على إسدال ستائر الصمت المطبق على الرواية، واتخذوا موقفًا صارمًا معاديًا من المؤلف.

في الأساس والجوهر لم يكن هذا في مصلحتهم ولا في مصلحة المؤلف، ولا في مصلحة الرواية ولا اليسار المصري والعربي، ولا اليسار القومي، ولا في مصلحة الوطن إجمالًا.

فيما يخصني، فقد جرى بسبب أعمالي التالية، (والتي حظت بتقدير الجميع) تجاوز الخصومة وتقلص المعنيين بها والاكتفاء بإسدال الصمت المطبق على النص الروائي.

هُزَمْنَا جَمِيعًا

للأسف الشديد جاء الواقع بإجاباته القطعية في هزيمة العقل والنظام السياسي والثقافي العربي بكافة مشتملاته؛ (يمين، يسار، ليبراليون، قوميون، ماركسيون، إسلاميون)، مع الدمار الشامل الذي توثقهُ إسرائيل في منتصف العقد الثالث من القرن الواحد والعشرين بغزة والضفة وجنوب لبنان وسوريا وإيران، ولا أحد...

* * * *

ما الذي ربحته وما الذي خسرتَه؟

أول الأرباح هو الاعتراف الذاتي، وعلى المستوى الثقافي العام أنني روائي، ومن طراز رفيع.

ما خسرتَه هو تكاليف الطباعة، وما كانت تعني شيئاً؛ مثلما يصير لديك كتاب مطبوع ومكتوب عليه اسمك. في الحقيقة وبفضل الرئيس المؤمن الذي كان يكره كل ما يتعلق بالثقافة، فقد بدأ عصر تحمُّل الكُتَّاب لتكاليف طباعة أعمالهم الأدبية، والذي صار أمراً شائعاً في الحياة الثقافية

المصرية المريضة بفضل سياسة السيد الرئيس
السادات، ومُشايحيه.

* * * *

الفصل الخامس عشر

فصول من رواية (العُرس)

**جاء في الفصل الثالث عشر صفحة (245) من
نسخة رواية (العُرس) المرفوعة على موقع الكاتب
(fathyembaby.com).**

بعد الحوار الذي دار بينها وبين اللبناني الصغير محمد، لم تستطع مريم أن تبقى بالفيلا الصغيرة الكائنة بحي الفويهات من مدينة المال... سارت وحيدة حتى أتى الغروب. أمام البحر دقت مريم الأرض بقدمها اليسرى كمهرة **كميتية**، وأفق البحر يتسع بها نحو الماضي... ماذا تفعلين أيتها البائسة؟ أخرج الماضي من قبره... أيتها التعيسة لا تفعلي... وكيف!... والعمر جواد يلهث، يسابق الريح مسرعاً نحو المنتهى، والموت قابع مطمئن بانتظارنا لا مفر... وكأن ما مضى سيعود... لا... وكيف؟ عذراء... لنخرج الأيام من مقبرة الماضي، ولتطل علينا أشباحه.

فاح لها عبق الأزقة الضيقة لمدينتها... مدينة التل الصغيرة الواقعة على بُعد خمسة عشر كيلومتراً من دمشق، وقد تأنق شعرها بالزهور، وفاحت لنهديها رائحة البرية، ولون الثلج الرخيم الذي يغطي البراري بالشتاء من كل عام، تسير بالطرقات عذراء تلتهب... نار مقدسة تتقد على طول المدينة الصغيرة بين منزلها الكائن بطرفها الشمالي، وثانوية التل للبنات، والرغبة المشوبة بالخوف

والاحترام لعيون الفتية تحاصرها، عيناها الساكنتان في قاع بحر يضطرم جوفه بتيارات الحياة.

منذ ثماني سنوات، كان عمرها لم يتجاوز بعد السادسة عشرة، فتاة مرغوبة... موفقة في دراستها... متفوقة... تحمل وجهاً رهيفاً، وجهاً أموي... بدري الملامح، جسداً فارغاً متناسقاً في رشاقتة الغزلان وابنة لعائلة من أكبر عائلات التل... عائلة الأحمر... وأب هو ضابط برتبة عقيد بالجيش السوري، استطاع أن يحافظ على مركزه دوماً إزاء كل العهود السياسية التي تعاقبت، بدأ من الوحدة وتعقب الشيعيين وحكم الانفصال وتعقب الناصريين والقوميين، وحكم أمين الحافظ الذي تعقب كل من له انتماء سياسي، ويسار البعث وتولى مجموعة صلاح جديد السلطنة... كل هذا التبجيل والترقي الذي تحمله ابنة ضابط ذي مرتبة عالية بالجيش العربي أمر فهمته ووعته تماماً، فخلق لديها طابعاً من الكبرياء لا يستطيع أحد إدانتها، تماماً مثل كبرياء الأميرات وحملة طقوس الأرستقراطية.

لم تكن مغرورة، ولم تترك لأحد انطباعاً بكونها حمقاء، وأبوها الذي لم يخنه ذكاؤه بعد، واستطاع

دومًا أن يشد الخيط الرابع من عشرات الخيوط، دفعها للالتحاق بشبيبة حزب البعث الحاكم، فالرجل لديه كل أوراقه التي يلزم الحفاظ عليها... وهناك مارست مريم نشاطها السياسي على غرار نساء المجتمع وجميالاته اللاتي ينتمين إلى الطبقات العُليا الحاكمة، من المؤكد أنها على الرغم من ذلك لم تكن الفتاة التقيّة طاهرة الذيل، هذه التعابير السخيفة لم تعد صالحة لعصرنا الحالي، حيث العفة والعهر ليسا سوى تفسير بالٍ لتلك العلاقات المعقّدة والتي تُسمى بالعواطف والروابط الإنسانية، كانت فقط زهرة نائمة حان أوان تفتّحها.

ومن بين أمواج بنغازي التي تروح وتغدو بين قدميها، انبعث شبح في العشرين، أشقر الملامح، قوي البنية غزير الشعر مفتول الساعد والصدر، تدل بنيته على ما يقضي به أوقات فراغه وإجازاته الجامعية... عامل بناء أو باطون، أو كل مهن البناء التي خرج يمارسها منذ بلغ من العمر الثانية عشرة... انهمرت عليها أمواج الوحدة والبؤس... اقترب منها مصطفى في سترته الجينز، وعلى وجهه ابتسامته عريضة بها تواطؤ على سرهما المشترك.

كانت تجلس وحيدة بفناء ثانوية التل للبنات، تضع ساقاً على ساق، بعد أن تركتها صديقتها الوحيدة (بدوية)، والتي كان الجميع يناديها (بدا)، وقد اجتمعوا لإخراج إحدى مسرحيات سعد الله ونوس... جذب مقعداً وقال في مباشرة أذهلتها: يا أنستي... هل يكون من التبجح أن أقول لك وأنا لست في وضع محدد، يمكنني من امتلاك حقيقة أفكارى نحوك!...

جاءته إيماءة عينيها تشجعه، فاستطرد مرتاحاً لازدياد الابتسامة على وجهها: إنك وأنت على هذه الوضعية إنما تعطين وجهاً مغايراً لما تعبرين عنه، كابنة لطبقة مسيطرة... الأمر الذي يجعلني في وضع يصعب الأمور، أنت تبعثين الاحترام أينما ذهبت وتقدمين وجهاً مشرقاً للبرجوازية، في الوقت الذي يحجمني وجودك معي من أن أنعتها بما هي عليه من نعوت، مما قد يسيء إليك... ضاقت عيناه وأشعنا ببريق خاطف واستطرد يؤكد... فإذا قد مت لي تفسيراً مقنعاً، فقد أقوم على تغيّر معتقداتي السياسية.

- ومعتقداتك الأيديولوجية بتحتفظ بيها ما يبصير؟
لازم تغير التنين.

قال متجهما: بلشنا نختلف؟

دفعت الفتاة الصغيرة برأسها إلى الخلف فتماوجت
جدائل شعرها الكثيف وضحكت ما لم تضحك من
قبل، حتى جذبت وهي جالسة بفناء الثانوية انتباه
الآخرين وأنظارهم... مدَّت كفَّها وقد استندت
بمرفق ساعدها على فخذها وهي تعيد له بذكاء
الكرة كمن تصد هجومًا مكرًا.

- أنت تجيء لي حاملاً سيف العداوة وتاج المحبة،
وتطلب مني حرية أن أختار... حرية أن أتحمل
مسئولية تقديم أحدهما على الآخر... حسنًا... أنا لا
أدعي القدرة لنفسني كي أضعها على مشرحة
التفاسير السياسية، لكنني إذا كنت قد استطعت أن
أثير حيرتك، فأني أكون (على الأقل) قد حصلتُ في
معركتي على أول انتصار.

- إي... حقًا... لست حائرًا.

- بلى... أعلم.

- وأنت أيضًا منتصرة شئت أنا هذا أم أبيت...
ابتسمت لإطرائه... عادت إلى الخلف وهي تضيق من

عينها اليسرى عمداً، وتقول: حسنٌ إذا جاز لي التخمين، فإن الإجابة عن سؤالك تبقى لديك، وأكون ممتنة لو أعطيتني إياها.

حل به شروء كثيف وتعابير الصدق التي تستشيري على وجهه تثير فيها الإعجاب والفخر، قال: ولكن، للظواهر الحياتية وجوه عديدة والكل يراها كما يريد.

قالت: هو إذن ما يقوله بيراندللو... الأمر إليك.

قال بعٌ مقٌيٌ خفيٌ توتره: لا... الأمر إليك أنت... نظرت إليه وقد انتقل إليها توتره، استطرد: أكثر من ذلك... الحقيقة أمر كائن موجود، نختلف على تفسيرها بمدى ما نعلمه عنها، المادة شيء كائن خارج وجودنا، خارج ذواتنا فهي حقيقة منفصلة تملك الثبات والإطلاق، ونملك نحن إزاءها وعيٌ وتجربة يتحدد مستواها بمدى معرفتنا بها... عاد برأسه للوراء وقد رفع حاجبيه، زمٌ شفتيه يصطنع البرودة: هكذا تقول المادية... المادية الجدلية... عقٌبٌ بنفس الثبات... وهذا ما أعتقده.

- ولو؛ ندت عنها صيحة استنكار وضيق، انتهت إلى استسلام.

- حسنًا. ماذا تعطيني حقيقتك تلك؛ حلًا حلًا به شرود... قال وهو يبعد عينيه عن ناظرها: قد أملك تفسيرًا لما أنت عليه حاليًا... أنت وجه حقيقة كائنة بذاتها وموجودة، لكنك لن تبقى على ما أنت عليه، التغير إذن سيعطي المستقبل حقيقة ما... ربما تكون مختلفة على أحد وجوهها.

استاءت للغاية، وضح هذا على معالم وجهها... قالت: أنت لا تقدم المحبة على العداوة... أنت تقدم الأيدلوجيا على... وصمتت.

- اعذريني، ألم أقل قبلا، إنني سوف أبدو متبجحًا.

قاطعته بحركة من يديها... كان يتهاوى أمامها من الوجد، ذهب عنها استياؤها، قالت: لنترك التبجح لأولئك الذين لا يجدون ما يختبئون خلفه.

* * * *

الفصل الرابع عشر من رواية (العُرس)

مع محمد أنشأت مريم صداقة وطيدة، أعجبتها طلاقته لسانه، وأثار عطفها مسئولياته العائلية وإصراره لتحملها، سألها أن تزور عائلته ففعلت، استقبلوها بترحاب بالغ، لكن الحاج حميدة أخذ يحوم حوله حومة الضباع، يريد له لنفسه ولتعمه السرية، أخرج له الفتى سكيناً ضخمة فتراجع الذئب عن مطاردته، لكنه استمر يضايقه، وأتلف له عمله، لم يجد الفتى بُدًا من تصفية أعماله بمعسكر الإشارة والانتقال إلى مواقع الذخيرة بالرجمة، هناك صادق سائقي الآليات الثقيلة وصادقوه.

ساءت علاقة مريم مع زوجها، وتزايد نفورها كلما رأت تزلفه لأحد ملاحظي أو موظفي المؤسسة من الليبيين، تغضب وتنتابها العصبية وتكالب عليها أحاسيس الاحتقار تجاههم، والغضب تجاه زوجها. لم يكن ليعيرها انتباهًا، كان هذا طريقه الذي لن يحمي عنه، ولن تمنعه حماقة امرأة موتورة، ترى الحاضر بعين الماضي، تظن أن لها أصلًا مترفًا، وحسبًا يضاها قوة النفط؛ ذهبه أو سطوة أصحابه، كان في حاجة إليهم لو تشاركه، هذا يخلق مركزًا ضخماً للمساومة، ليس

انتقاصًا للفضيلة والشرف، فمن الذي يجرؤ أن يرفع بصره نحوها، لكنها رفضت أن تلعب لأجل خاطره هذا الدور، صدته بعصبية، حتى واجب الضيافة صار يقوم عليه بنفسه.

والوحدة رغم كل شيء تدعو للقلق، زوجها المرهق تأنف مجامعته، والفيلا ممتلئة بمجالات الجنس المهرية، اقتربت منها بخجل وحذر... وتحول المساء إلى غابرة من الشوك، أكمام من المتعة والألم، تنتحي جانبًا، تاركة زوجها في فراشه منهمكًا مُتعبًا وترحل إلى غرفة المعيشة، حيث حل الشتاء، تتمدد تحت الأغطية الصوفية تحتسي الشاي والقهوة، تتصفح تحت مصباح صغير مجلة تلو الأخرى.

وما كانت الأوضاع الجنسية للأجساد العارية لنساء ورجال لتثير لدى امرأة سوية إلا نفورًا عامًّا، وما كانت الأعضاء الجنسية التي أبرزت بفضاظة، والأوضاع الشاذة لجنس جماعي... رجالان وامرأة، نساء صغيرات يمارسن الجنس معًا بشبق يبعث شعورًا بالخوف والسقوط في مزيد من فضاظة الوحدة، الشعور المدمر

بالذنب، المخاوف المبهمة، الضياع، الضالّة أمام القوى
المجهولة تمتلك القوة والسيطرة.

* * * *

بالقاعة الكبرى لمعهد الدراسات الاشتراكية لشبيبة
حزب البعث، احتشد مئات الشباب في المدرجات،
وافترشوا السلالم والممرات، وعلى النوافذ جلس البعض
يستمعون إلى مسئول كبير وعضو بالقيادة القطرية
بالحزب جاء لمحاضرتهم... كان أيضاً من مدينة التل، ومن
عائلة الأحمر وثيقة الصلة بكثير من الجهود
السياسية.

حضرت مريم اللقاء، وبجوارها جلست صديقتها
بدوية، لم يكن قد مضى على حديثها الأول مع مصطفى
سوى ستة شهور، عرفت الكثير، كان أحد قيادات
شبيبة الحزب الشيوعي السوري الذين انشقوا عنه
بعد هزيمة 67... تكالب عليه يسار البعث يحاول
استمالة؛ فأمثاله يصيرون نجوماً في أحزاب
البرجوازية الصغيرة، لكنه أبقى على استقلاله...
وكانت ذات أنفة تستكثر على نفسها أن تقع أسيرة
هوى سياسي أحمق، فما بالك بشيوعي مطارذ عبر

العصور، وقاومت، لكن قوة حضوره حطمت الأسوار التي أقامتها حول عواطفها، فانسأقت نحوه، ومقاومتها تتهاوى.

في القاعة حيث اجتماع اللجنة السياسية في لقاء جماهيري لمحتة في سترة الجينز وكنزته الصوفية، يعتلي إحدى النوافذ... كان الشباب ثائراً، والقاعة تموج بالصخب والدخان، والكل يتوثب بالحديث، ومع الصدق التطهري الذي يملأ صدور الفتية، كانت هناك أيضاً حالات الحماسة والعصبية، ومرض التكرار والتطويل والإصرار على إعادة الأفكار وشرحها مجدداً، وكأن كل منهم على يقين بأن الآخر لا يقدر على فهمه، والعديد منهم يكرر ما سبق وأن قاله آخرون عشرات المرات، المقاطعات المتوالية، الفاشية الذاتية تجاه أفكار الآخرين الصديقة والمعادية، ويمين الشبيبة يهاجم المرأة والاتحاد السوفييتي ومطاردة زعماء الأخوان، أما يسارها الجالس على المنصة المسيطر على القاعة، يستهزئ بآراء اليمين ويسفها حيناً، ويبالغ في إرضائها حيناً آخر، يضع عيونهم بحرص على العناصر الماركسية المنتشرة، لا يعطي لهم فرصة الحديث قط،

مجيداً باقتدار لعبة التوازنات المستندة على القمع السياسي.

عَنْ لريم أن تحدث رداً على فتى وقف يصرخ: إلى البيوت كلكن... حيث الأمومة هي العمل الحقيقي للمرأة، وإذا البعض زعم حاجة الدولة إليها، فحاجتنا إليها الحقيقية أن تصير مربية للأجيال، أماً للأمة، لنترك للشباب العاطل فرص العمل التي استلبتها منه النسوة بخروجهن من مكانهن الطبيعي.

طلبت مريم الكلمة، وعندما تطلب مريم الكلمة أعطى لها على الفور، فحديث فتاة في السادسة عشرة يكون في الحلقات السياسية متعة تستدعي المشاهدة... لكن قبل أن تقف مريم للحديث هبَّت بدوية، وكأنها تنتظر هذه الفرصة الثمينة، ارتجَّت الجالسون على المنصة، لقد سرقت الكلمة، غضبت مريم من صديقتها، لكن غضبها لم يدم طويلاً، وهي تستمع إليها تشن هجومها العنيف على المنصة:

إذا بتسمح يا سيادة الأمين... أنا ما أدري أنتم ليش تعانوا من هاي الازدواجية، تتحدثوا عن الجبهة بكل شيء، وما بيصير شيء بالإذاعة والصحف والتلفزيون،

إلا عن الجبهة، حتى بالملاهي والكباريات صار فيه
جبهات، في الحقيقة أنتم أنظمت ما إليها علاقة
بالديمقراطية، الديمقراطية بتصير شيء حلو
بالإعلانات والخطب، ولازمة لغوية يتخفى تحتها غول
رهيب اسمه السجون وزنانات التعذيب وزبانيته، بدي
أعرف إننا هون ساعتين نطلب الكلمة، والرفاق على
المنصة بيعطوها للي بيضمنوا إنه ما بيخرج عن النص...
وفي ظل أزمة تاريخية يمر بيها الوطن يصير الكلام
كله هيك فارغ أجوف، مجرد طرق طيبة لتفريغ غضب
الشباب.

قال مسؤول الجلسة مبتسماً: إيه أخت بدوية... هيك
شغلات مو مقصودة، ليش كل هاي الأوصاف؛ فارغ،
أجوف، وسيلة للتفريغ... بدنا نبطل هيك توصيفات...
نكون شوية موضوعيين... وعلى العموم الكلمة معك...
بدك تعطينا الكلام المليان.

إيه. هلئ بيصير... نحن هون بناقش كيف الاتحاد
السوفييتي بيعطينا أسلحة غير متطورة، وكأن الحرب
ما بتعتمد إلا على هاي العنصر... السلاح... وهذا مو
صحيح... الحرب ليست إلا تعبيراً عن تضافر مجموعة
من العناصر والعوامل... الاقتصاد الوطني...

الديمقراطية... العلاقات الاجتماعية والطبقية في المجتمع وفي الجيش... هي ليست فقط الضبط والربط، وقوانين الطاعة الصارمة، وإلا هذا ما يتيح للجنود: الشجاعة وحرية المبادرة، فرصة الهجوم، والقدرة على اتخاذ القرارات الملائمة في الأوقات الصعبة، مدى التفهم للسلاح، واكتساب الحد الأقصى على استيعابه...

بدي أقول لحد هلى الفيتناميين يحاربوا أمريكا من دون طيران تماماً، رغمًا عن إنها بلد تطابق أيديولوجيتها السياسية والسوفيت، لكن السؤال ما بيكون هيك... السؤال بيكون كيف استطاع الفيت كونج السيطرة على 168 قرية ومدينة في هجوم الربيع لعام 1968، من دون هاي الأسلحة الجوية اللي بيربدها الأخوان... ثانيًا الزملاء هون بيناقشوا حرية المرأة وحقوقها في الخروج إلى العمل... هم يطولوا الأحاديث على مثل ما بدك، ومن دون فائدة... إيه كل هذا من دون فائدة... لأن كثير عقولهم سطحية، ما بيستطيعوا ينفذوا للقوانين اللي بتصير المجتمعات وتطورها، هذه قوانين رأسمالية... قوانين السوق، العرض والطلب... ولما يجتمع الإخوان من كل صوب ما بيدخولها بيتها؛ لأن قوانين الاقتصاد تفرض خروجها، ولأن المسألة لما بيصير النقاش؛ أديش المرأة

بتلبس، طويل أم قصير، فوق الركبة أم أسفلها، يتوقف كل شيء موضوعي وتتبقى مثل هيك شغلات فارغة... أنا بدي أقول يا سيادة الأمين أن هادي مو قضايا مهمة... القضية المهمة والتي تستحق النقاش اليوم هي الفساد... ارتفع صوتها لأعلى حتى بلغ في نهاية العبارة منتهاه... رنت الكلمة بالقاعة... وامتأ الفضاء بالصمت والتوثب...

قاطعها الرجل: أخت بدوية... استطردت الفتاة التي لم يتعد عمرها السادسة عشرة في حزم وهي أكثر تصميمًا: بلى، الفساد الاقتصادي والسياسي.

دوي تصفيق هائل وحاد من المجتمعين... كان ما فعلته (بدا) هو التوجه نحو الهدف الصحيح... استطردت أكثر عنفًا: وأنتم بدمكم تتحملوا المسؤولية عن كل ما مضى... الفساد الاجتماعي والسياسي والاقتصادي، وكل ما توج بهزيمة 67.

رمش الرجل وتغضن وجهه، لم يهتن، قال في حنكة وثقة:

- نعم يا رفيقة... أنا معك... كذا الشيوعيين... وإذا بدك تتأكدي، بتطلعي بالجزء الثاني من مختارات ماو

تسونج... استطرد بسخرية... العم ماو... مكتوب
بالصفحة الأولى، الحزب الثوري مسؤول مسؤولية
كاملة عن الهزيمة، وكذا عن كل إخفاقة جماهيرية، لا
يبرر له أية آمانيات طيبة، وحتى التضحيات الشخصية
والجماعية.

شعرت مريم بارتباك ظهر على صديقتها، كان العم
المحك، قد ترك الموضوع، واستدار يهاجمها مثيراً لديها
الارتباك، ابتسمت مشفقة على من سرقت كلمتها.

من الخلف جاء صوت جعلها تنتبه... كان مصطفى،
يقف منتصباً بالطرقة الوسطى في مؤخرة القاعة، رافعاً
يده يطلب الكلمة، ولمّا كان يعلم أن المنصة
ستجاهله كي تغلق البركان الذي خلعت (بدا) سدادته،
بدأ كلمته غير منتظر الإذن، وجاء منطقاً مهاجماً
مستقلّاً صلباً... راديكالي النزعة... هذا الذي أبقى
بذاتها على تناقض وصراع بين عواطفها وعقلها... صراع
لم تحله قط.

نعم يا رفيق. إن العبارة جد صحيحة... لا يَدان البعث
الحاكم إبان الهزيمة فقط، ولكن يَدان الشيوعيون
وكل القوى القومية والثورية الأخرى، نعم يا رفيق

نُؤدَانُ جَمِيعًا... نَحْنُ وَأَنْتُمْ... كِبَارًا وَصِغَارًا... وَسَيَسْجَلُ
التَّارِيخُ لَجَيْلِكُمْ عَلَى شَتَى حَوَانِيَتِهِ السِّيَاسِيَّةِ الْهَزِيمَةِ
وَسَيَجْلَلُنَا نَحْنُ بِعَارِهَا، وَمَا يَتَّبِعُ ذَلِكَ مِنْ عَصُورِ
الْانْحِطَاطِ... لِيَقْطُرَ التَّارِيخُ جَبِينَهُ خَجَلًا مِمَّا سَطَرَهُ
عَلَى صَفْحَاتِهِ لِهَذِهِ الْحَقْبَةِ التَّارِيخِيَّةِ... بِالذَّاتِ
الْخِصَائِصِ الذَّاتِيَّةِ لِلْقُوَى الثَّوْرِيَّةِ... (انْتِهَازِيُونَ حَتَّى
النِّخَافِ... مُوظَّفُونَ وَكُتِبَتْ لَدَى السُّلْطَاتِ مِنْ أَيِّ نَوْعٍ...
مُلُوكٌ لِلْمَسَاوِمَةِ وَالتَّهَادِنِ... عَشَاقٌ لِلتَّفْتَتِ وَالشَّرْذِمَةِ،
أَبَاطِرَةٌ لِلْمَرَاهِقَةِ الْيَسَارِيَّةِ... فَاشِيُو النَّزْعَةِ، مُعَادُونَ
لِلدِيمُقْرَاطِيَّةِ حَتَّى النِّخَافِ... عَجْزَةٌ عَلَى الْمُسْتَوَى
الْإِسْتِرَاطِيغِي... جَهْلَةٌ عَلَى الْمُسْتَوَى التَّكْتِيغِي)... نَعَمْ،
مُدَانُونَ بَدَاءً مِنَ الذِّينِ اخْتَرَعُوا حُلَّ حَزْبِهِمُ الثَّوْرِي،
وَاسْتَلَقُوا فِي أَحْضَانِ النَّاصِرِيَّةِ فِي 1964 بَعْدَ أَنْ خَانَهُمُ
العَقْلُ وَالشَّجَاعَةُ، حَيْثُ الْإِقْدَامُ عَلَى حُلِّ حَزْبِ الطَّبَقَةِ
العَامِلَةِ لَيْسَ سِوَى اعْتِرَافٍ بِانْتِفَائِهَا... رَغْمَ أَنْ ثَلَاثَةَ
أَعْوَامٍ أُخْرَى مِنَ الصَّلَابَةِ وَالنِّضَالِ وَالصُّمُودِ كَانَتْ
سَتًّا غَيْرَ الْكَثِيرِ... فَالذِّينَ ظَنُّوا أَنَّهُ عَمَلِاقٌ هَائِلٌ يَمْلِكُ
صِفَةَ الثَّبَاتِ تَهَاوَى فِي أَيَّامِ سَتِّهِ، وَالدُّودُ يَنْخَرُ عِظَامَهُ...
نَعَمْ يَا رَفِيقُ، مُدَانُونَ بَدَاءً مِمَّنْ حَلُّوا حَزْبَهُمْ وَنَهَآئِهِ بِمَنْ
أَصَابَهُمُ الْجَدْبُ وَالجَفَافُ، فَصَارُوا يَسْتَقُونَ أَسْسَهُمْ

الفكرية من الخارج، عاجزين عن تقديم إبداع محلي
يقدم حلاً للمشكل العام...

الحقيقة الوحيدة أيها الرفاق التي ثبتت حتى الآن، هي
أن الاستفادة الوحيد طوال المرحلة السابقة، والمستقبل
القريب هو إسرائيل... حتى أرض الوطن أصبحت تحت
الاحتلال، واقتصاده هدف يريد المحتل الاستيطاني
التهامه... وهي تهيئ الأرض التي تقع تحت سيطرتها
للضم والاستيطان... وفي الوقت الذي يسود المجتمع
الإسرائيلي حمى التوتر واليقظة الحادة، وتقاليد
الديمقراطية الغربية، فكما ذكرت الرفيقة بدوية
يضرب عندنا الفساد الاقتصادي والاجتماعي جذوره في
البلاد ويستشري، فتثري شردمة من كبار موظفي
الدولة، وحولهم حفنة من المغامرين، وأصحاب توكيلات
أجنبية وسماسرة وأصحاب العقارات وأراضي البناء
وعشرات غيرهم، حتى يصابوا بتخمة الثراء الفاحش
والترهل الجسدي والعقلي، على الجانب الآخر ينتشر
الفقر والبطالة، تتحلل الدولة، تسوء الخدمات، تمتلئ
الطرق بالبرك والركاب والحجارة والقاذورات حيث ينمو
أطفالنا ويلعبون وسط جيوش الذباب والبعوض،

وتنقطع وسائل الحياة من المياه والكهرباء، تتلوث
وتتفشى الأمراض، تتحلل القيم وتنهار المستشفيات،
يتاجر أساتذة الجامعات التي نخر بها السوس والديدان
بالعلم، تستفحل الأزمة، يسيطر غبار ترابي خانق،
ويسقط الشباب في الضياع والاعتراب، كأننا مقبلون
على عصر الاضطرابات الخصوصية وفوضى الجموع...
عدل من وقفته، لماذا لا تقضي عليه الشرطة وتضعه في
السجون... لماذا؟

تصاعد صوته جلياً... لماذا يبقى الفقر والجوع
والمرض بالطرقات حراً لا يطارده قانون ولا عسكر؟ في
الوقت الذي يتيه فيه كبار ضباط شرطتنا وصغارها
زهواً وخيلاء؟ هل لديكم إجابة؟

رنت فترة صمت قصيرة جداً... تقدم خلالها
مصطفى خطوة، وهو يرفع يده متوجهاً بحديثه للأعناق
المشرئبة نحوه من كل أركان القاعة: إذن، دعنى أقل يا

رفيق... لأن الفساد الاقتصادي والاجتماعي إنما يرتكن على فساد الحكم... وكلاهما يسقط إذا سقط الآخر.

* * * *

على الطريق الجانبية الصاعدة من معهد الدراسات الاشتراكية للشبيبة إلى التل، تقدّم ثلاثهم متلاصقين، كان الليل قد حلّ^{٢٢}، ومن المدينة الصغيرة التي اعتلت الهضبة تالأت أنوار المنازل تصنع مع أضواء الطريق الصاعد ح^{٢٣}ز^{٢٤}ماً ضوئية مناسبة، لا تلبث أن تنفرج فجأة في اتساع دائري متموج الارتفاعات والأبعاد حول المدينة الصغيرة، وقد أحاطت بها شلالات نطف البرد المتساقطة من سماء مظلمة كابية اللون...

على اتساع الظلام كانت أضواء المدينة الصغيرة ذات الغالبية المسلمة باهتة، تخبو وتضيء في الظلام، وفي الأرجاء تأتي الأضواء من قرية المعري وصدفاية المسيحيين، الأولى قرية الرأسماليين وأصحاب السلطة الكبار، أقيم بيوتها من فيلات حديثة أوروبية الطراز وصدفاية قرية الفقراء، يقام بها سنوي^{٢٥}اً احتفال تشهده كل المناطق المحيطة في ديرها القديم الخاص بالسيدة العذراء.

على الطريق الثلجية انعكس نهر من الضوء خاضوه بأحذيتهم الجلدية الطويلة البطننة بالفراء، نفث دخان سيجارته في قطع الثلج المتساقطة، وهي تفرك يديها المتجمدتين من شدة البرد، تنفث فيهما بأنفاسها الحارة، كان آخر ما يمكن أن يتحدثا عنه أمورًا شخصية. قال :

نعم، نحن مقبلون على عصر الاضطرابات الخصوصية، وفوضى المجموع، كل هذا ليس نتيجة الساعة، إنما لذلك تاريخ رفعتة وجسدته سلطة الدين والسياسة، وأورثته لنا عصرًا^{٢١} بعد عصر، بالغرب يغترب الإنسان بعد أن حطمته آلة رأس المال على الأرصفة النظيفة سابقًا في هواء نقي وبراميل النبيذ، وعلى أروقة الجنس الصريحة، الصادقة -على الأقل- في مشاعرها الذاتية، في الشرق... نحن مرضى الهروب، يطاردنا الاستهلاك بغربته، نستورد تقنية وماكينات ومصانع حديثة لم تصنعها أيدينا، ولم تخرعها عقولنا، فنحن مجبرون على أن نتعامل سلوكي^{٢٢} مع ما يفرضه علينا نتاج عقل آخر، تصبح لنا قشرة خارجية أوروبية المظهر، في الوقت الذي نحن عاجزون ذهني^{٢٣} عن أن نتواءم مع هذا الجديد الهائل الضخم... نحن مرضى الازدواجية... ازدواجيون

حتى النخاع... من الثوب الذي نرتديه حتى ما نسميه شرفاً أو بطولته أو كبرياء.

فالذي تفعله الهزيمة فينا أن تعجل بتقسيم مجتمعنا إلى طبقتين؛ طبقة تسارع سرعة الضوء إلى سرقة كل ما تصل إليه أيديها، تبيع كل شيء؛ الوطن والعرض والدين والأخلاق، تنتزع في طريق صعودها آدمية الآخرين، تتركهم حيوانات مشوّمة، تركلهم بلا شفقة إلى أسفل، تمسح أنوفهم طرقات المدينة، يستحمون حياتهم بالهواء الفاسد، الغبار والعفن، أي قذارة هي؟ نحن قدريون يا أنستي لا نملك ملكة الدفاع عن نقاء وجودنا، وإنما نسير وسط قطيع سلم قياده لذئاب، حيث يتلوث كل منا ببراز الآخر، اعذريني فهذا أقل تعبير عن فداحة الهزيمة... استدار لها وعلى وجهه علامات الإشفاق... هز رأسه وقال: هل توافقينني؟

قالت وقد طواها صدق منطقها: نعم...

- جميل... ألا يستوجب هذا أن نكون مجتمعاً خصباً لوباء اسمه الأمراض النفسية والبيولوجية، لا يبدو هذا واضحاً، لكنه يستشري تحت السطح ببطء، تقوده هزيمة 67، تحفر تحت جلودنا السوس والخواء، تحف

جلود فتيات الطبقات الفقيرة، تتجعجّع د شعورهم،
تتقوس سيقان الأطفال، تضحل عقولهم في نظام
تغذية محوره الغذاء الملوث... نعم يجب أن نتيقن... لا
توجد شفقة... لا يحمل التاريخ ولا الصراع الكوني من
أجل البقاء ما يسمّى بالشفقة، وإلّا لبقيت
الديناصورات والأمم القديمة... تنهب الولايات المتحدة
العالم كي تصنع رخاءها، ويرى ضحاياها فيها نموذج
الكمال المتعذر الوصول إليه، فالحالمون مصيرهم السحق
بين تروس آلة الاقتصاد العالمي، وخاصة شعوب هذه
المنطقة، التي تبدو كقطيع من... قاطعت، بدوية بضيق:
ح نبلش مصطفى... ما في توصيف لشعب بهاي
الطريقة... هذا وصف أخلاقي مو موضوعي.

خيّم الصمت... زفر زفرة خاطفة، وقال:

- أعتذر... في الظلام يخيم اليأس.

التفتت مريم إلى (بدا)، تلاقت عيناهما في تواطؤ، قفزت
مريم خطوتين إلى الأمام، واستدارت، أصبحت قبالتها،
تضم حقيبتها على نهدين يطلان على العالم بشوق
للشجن، كان هذا أول فعل خاص ينبئ عن الهوى القادم،
قالت تشاركه وجدانيّاً: ألم نتفق من قبل، لندع

الأسف لمن هم في حاجة إليهم... شو كل حياتك هيك
جد... بتصير متعب للي بيعيش معك.

صاحت (بدا) بخبث: أديش أنت أحقق... لشو تعمل
منها مليودراما... افرجها يا أخي... افرجها... هلى بدنا
نعرف شو تسوي الناس بهاي الثلج.

قال في جمود: إيش يسوون؟

- آه. ما بتعرف... جميل والله... تعرف كيف نزل جيفارا
على السيرا مستيرا، وما بتعرف كيف يفعل الناس بالثلج
في التل؟ التفتت إلى مريم... حمقاء تظنين به يعرف كل
شيء، وهو ما بيعرف شيء.

قال بسماحة: الله يسامحك يا (بدا).

صاحت: ويلى... هلى بتسفح من عيونك الدموع يا
مصطفى... ضحك الثلاثة... لكن أنا بخليك تعرف إيش
يفعل الشباب بأيام الشتا... مالت على الأرض تعدل من
رباط حذائها الطويل... استدار يحدث مريم... صنعت
كرة من الثلج وكانوا يسرون أمامها، تابعتهم، نادته
(بدا): مصطفى.

جاء تحذير مريم متأخراً، ففي اللحظة التي استدار إليها قذفته بكرة الثلج... ارتفعت يدها تذودان عن رأسه في حركة مضطربة:

- إيه هذا اللي بدك إياه.

صاحت بفرح طفولي هز جموده: إيه... وإيش بتسوي؟

انحنى على الأرض مسرعاً يقذفها بكرة الثلج: إيه... ما بسوي شيء... تبعها بقذيفتها إلى مريم... تصاعدت في أرجاء الفضاء لآلئ من صرخات وضحكات فضيئة... ولم تلبث أن اجتمعت عليه الفتاتان...

في هذه الليلة لم تستطع النوم، جسدها السكران بالنشوة مَلُقاً على الفراش، تتدفق فيه وبارادتها... إرادتها للتذكر واستعادة اللحظات القريبة، أمواج من النشوة اللذيذة لم تعهدها من قبل... كيف ارتطم جسداهما؟ كيف التقى ساعده وأعلى كتفه بنهديها دون عمد؟ كيف قبض بقوة على ساعدها يشدها إلى أعلى، يعينها على النهوض، ماذا تقول؟ لقد أشرق عليها ضوء الصباح في هذه الليلة.

* * *

الفصل السادس عشر

نهر السماء).. (1980 - 1987)

رحلة في أعماق اللاوعي الجمعي

(1 / 16)

الطريق إلى كتابة نص روائي من طراز رفيع

بدأت العمل في كتابة رواية (نهر السماء) عقب نشر رواية (العُرْس) مباشرة 1980، وانتهيت من المسودة الأولى بعد خمس سنوات، أي عام 1985، وطوال خمس سنوات جلست على ظهر ماكينة خياطة من طراز (سنجر)، وكانت برّجل دَوّارة، استخدمتها كبديل لمكتب، وكانت أمي (سيدتي الجميلة) تستخدمها كعادة أمهات هذا الجيل في حياكتها ملابس الأسرة المنزلية، وأحياناً حياكتها فساتين البنات، مستعينة بـ (باترونات) مجلة حواء التي تصلنا بصورة منتظمة، والمجلة العالمية الشهيرة (البوردة).

* * * *

(2 / 16)

الدافع للكتابة

هزيمة يونيو

كان الدافع الرئيسي كما ذكرت من قبل (مراراً)، البحث عن إجابات على أسئلة مريضة، شديدة الغموض طرحتها هزيمة يونيو 67 المفاجئة، والتناقض الحاد الذي شهده سلوك الجماعة المصرية قبل وبعد الكارثة المروعة، والذي ظهر بجلاء عقب انتصار أكتوبر 73 الملتبس؛ كيف انتشرت بسرعة البرق توجّهات لدى العامة والبسطاء، مثل:

- الانغماس بسرعة انتشار الحرائق في الفتنة الطائفية (بفعل فاعل)، بين مكونات الوطن، (وهو ما أطلقت عليه الهويات المضمرة داخل الهوية الأم، أو الهوية الجامعة).

- التخلص من الحليف الإستراتيجي (الاتحاد السوفيتي)، والارتقاء في أحضان عدو الأمم وحليف الخصم، (الولايات المتحدة الأمريكية).

- التخلص عن مفهوم الوحدة العربية.

- شيوع العداء الشديد تجاه المفاهيم الاشتراكية؛
القطاع العام، مجانية التعليم، سياسة التصنيع،
السد العالي... والقائمة تطول.

- الاتجاه بصورة كاسحة نحو اقتصاد السوق في
أبشع صور الفساد المتمثل في النهب العام،
والاستيلاء على ثروات المواطنين في البنوك،
واستحلال الثروة القومية وبناء ثروات شخصية
هائلة من خلال النهب الكاسح.

- شجع النظام الفساد، وأعطى الفاسدين حرية
وأماناً بلا حدود، بهدف بناء طبقات مساندة،
تساعده على البقاء.

- انتشار انهيار مفهوم الأخلاق.

- غياب مفهوم الشرف عن المنظومة القيمية كلية.

- شيوع الفردانية وتغليب المصالح الأنانية الضيقة
على الصالح العام، والذي ظهر من خلال تعظيم
الذوات الفردية.

- فتح الطريق على مصراعيه أمام الجماعات
الإسلامية المتشددة.

- في المقابل سحق الذات الجمعية، فيما يعني
الانهيار العام.

ولو أن التحول الاقتصادي من المذهب الاشتراكي
الناصري إلى اقتصاد السوق تم دون مفرمة الفساد،
وبشفافية تَعْظُم من قواعد المنافسة الحرة
المستندة لقيم الكفاءة والجدارة والجودة وتعظيم
المنفعة العامة، في ظل نظام ديمقراطي يعترف
بالقيمة المطلقة لحرية الفرد وكرامة الانسان،
وتداول السلطة، كبديل للدولة الاستبدادية،
القمعية، البوليسية، السادومازوخية، القائمة على
نظام هيكلي من الوشاة كبديل لاحترام الذات
الإنسانية وكرامة المواطن، لمَّا كانت الخسائر
بمثل هذا الحجم على الصعيد الاقتصادي
والاجتماعي والقيمي، وتلك هي الجريمة النكراء
التي ارتكبتها السادات وزمرته.

* * * *

البحث في الهوية

هذا الانقلاب العام في السلوك الجمعي والانهياب
الأخلاقي وضع على طاولة البحث (ماكينتا
الخياطة من طراز سنجر)، قضية

(البحث في طبيعة الشخصية المصرية)

بعد زمن من أعمال النظر والاستقصاء والتأمل،
والاستغراق في الفكر والكتابة، تبلور الأمر بصورة
أشد وضوحاً وتعيناً لتصبح القضية هي:

{البحث في طبيعة الهوية المصرية}

* * * *

(3 / 16)

رحلة في مفازات التاريخ

بدأتُ رحلتي غوص في التاريخ المصري يكتنفها الغموض، انعكس هذا في الانكباب على كتابة فصول؛ واحد تلو آخر، بنيتها الهبوط في مدارج الزمن، بدأت من عالم الستينيات ثم الأربعينيات، ثورة 19، مطلع القرن العشرين مع مظاهرات وإضرابات عمال الترام، رافعين الرايات الحمراء.

في القرن التاسع عشر، توقفت عند ذاك الكتاب القيم "بنوك وباشوات" للكاتب دافيدس لاندر الاقتصادي الأمريكي، يروي دور البنوك الأجنبية والمحلية في توريث الوطن في الديون، وإعلان افلاسها، ومن ثم التمهيد للاحتلال البريطاني عام 1882، وأخذني صوت المبدع الهامس في ممرات البنوك... وبدأ أنني لم أجد البداية المناسبة إلا بعدما انتهيت من كتابة فصل كامل عن الحملة العسكرية البرية التي شنها الجيش العثماني عام 1801 بالتحالف مع الجيش البريطاني، لطرد بقايا

القوات الفرنسية من الأراضي المصرية والقضاء عليها... كان من بين الحملة العثمانية فرقة ألبانية تضم خمسة آلاف عسكري وفارس، ومن قادتها فارس شاب من قونية في التاسعة والعشرين من العمر يُدعى محمد علي... تذكرت أن صديقتي، وكنا في مقر أتليه القاهرة، همست يومًا إلى أن الدور الذي لعبه محمد علي باشا في تاريخ مصر الحديث، يستحق التناول، يومها شعرت بالدهشة والاستنكار، لم أهتم، ولكن ما هو محمد علي يظهر على طاولة البحث.

في محاولتي الدؤوبة للفهم استمرت في الهبوط في منعطفات التاريخ الرئيسية، وعندما انتهيت من كتابة الفصل الخاص بالفرقة الألبانية توقفت أمام سؤال استنكاري، عن كيفية الاقتراب من مطلع القرن التاسع عشر وتجاهل الحملة الفرنسية.

* * * *

(4 / 16)

المسكوت عنه.. دولة العبيد

لحظة تنوير كبرى

بدا الأمر معجزة، إذ توارت الحملة الفرنسية،
لتطل ستة قرون من دولة الممالك، وهو ما أطلقت
عليه الاسم الحقيقي المسكوت عنه.

دولة العبيد

وجدت نفسي أمام لحظة تنوير كبرى.. ستمائة عام
حكم فيها العبيد من الجلوبين من أواسط آسيا
وشرق أوروبا والحبشة جماعة الفلاحين المصريين،
أي شعب هذا! وأي سلوكيات وبنى فكرية
وأخلاقية طبعت تلك الفترة المظلمة الشخصية
المصرية بطابعها العبودي؟

لقد وجدت الخبيثة التي أبحث عنها، هكذا أصبحت
أمام القضية الأهم، وهي التعرف على الذات
الجمعية، أو الجوهر الكامن في (الهوية العامة
للجماعة المصرية).

وفي هذا الصدد، علي أن أوضح أنه كلما تحدثت عن
الهوية يطل في القلب دائماً أبناء البلد من الفلاحين.

* * * *

(5 / 16)

الفلاحون

ذاك الجوهر الكامن في التاريخ

سقط القناع ونُزعَت الأكفان عن الجثمان الذي
تعفُن في غياهب التاريخ، وأصبح الجسد والروح
المصرية عاريين امامي... هكذا وضعت قدمي على
أول الطريق الشاق، وشرعت في كتابة نص روائي
تدور أحداثه في الربع قرن الأخير من القرن الثامن
عشر، حيث يبدأ زمن الرواية عام 1775 من حكم
الدولة المملوكية؛ أعني حكم العبيد للفلاحين.

بزغ اختيار الزمن من حقيقة أن الربع قرن الأخير
يعبُ 22 ر حتمًا 1 عن القرون الست التي انقضت في
معية هذا العصر المظلم، والتي تُعد ذات تأثير
مباشر على الحاضر، والتي حفرت أخايدها في
جسد وفكر وروح وسلوك شخصية الفلاحين
المصريين.

* * * *

(6 / 16)

مؤرِّخ نابغة

خلال الكتابة تكونت سردية من الهلع والرعب؛ أطفال وغلمان ينتمون لثقافات متنافرة، توسم قلوبهم وعقولهم ديانات ومذاهب وثنية وتوحيدية متعددة، ينطقون لغات مختلفة، جرى خطفهم من سهوب آسيا الوسطى، وهضاب وسفوح أوروبا الشرقية وأحراش إفريقيا، تحملهم سفن وقوافل الرقيق إلى بقاع الأرض، يباعون في أسواق النخاسة.

في الديار المصرية يصبح غالبيتهم أرباب سيف وسادة البلاد، وحكّامها وشرها المقيم. من أهم سماتهم أنهم لا يورثون الحكم لأطفالهم، فقدرتهم على الإنجاب محدودة ضعيفة، لتبدأ دورة الحكم مع مجلوبين وعبيد جدد، أطلقهم التاريخ لعنة على رقاب الفلاحين؛ ظلم بلا حدود ولا رادع، فقر مدقع، جوع، طاعون يجتاح البلاد في سنوات، القحط والجفاف، ينتشر الخوف والمجاعات، ينتهي الناس من أكل الحمير والكلاب، حتى لا يتوفر الطعام، يشرعون في صيد المارة بصنارات من خلف النوافذ والمشربيات، وإذا فاض الصيد عن الحاجة

قاموا بتخلييل المتوفر من أجساد الأطفال في قدور إلى وقت الحاجة. كل هذا صكه ووثقه في كتابه عجائب الآثار، مؤرخ نابغة..

الجبرتي

ينكب الجبرتي على توثيق الأحداث المتعاقبة دونما تزين ولا زيف ولا تحسين ولا هوى، وهو بارع أشد البراعة حين يتناولها في غطي كل جوانب الصورة، بلغته سهلة يسيرة بالقدر الذي يعطيها القدرة على البقاء عبر التاريخ بالقدر اللازم للفهم، وهو يعرضها بصورها كافة.

الجبرتي حكاه ملحمي بارع وقادر على الإلمام بكل من:

- الزمن التاريخي.
- الأحداث التاريخية؛ مكوناتها، شخصياتها، نتائجها، آثارها الكارثية أو الإيجابية، وهي على الأغلب ستكون كارثية.
- يقدم الجبرتي بدأب وطاقته هائلين متناً لسلسلة لا نهائية من شخصيات عاشت العصر، وهو لم يوفر مملوك، ولا أستاذ، ولا

تاجر، ولا أحد الأعيان ولا من هم من
الأجانب، ليروي عن عالمه وحياته المختصر
المفيد.

وفي كل الأحوال، يمكن القول عن يقين وبكل ثقة
بأن الجبرتي التزم الحقيقة قدر ما يستطيع، وحاول
مستخدمًا عقلًا علمانيًا وروحًا إنسانية فذة،
اتخذ جانب أبناء جلدته من الفلاحين والمظلومين،
لقد كان ملتزمًا بالوقائع الحقيقية بصورة تمكّن
أحفاده من المصريين من فهم العصر الذي عاشه،
والعودة إليه، ومن ثم تفكيكه وتحليله واتخاذ العبر
والدروس. وهو ما لا يتوفر الآن، حيث كل شيء
يتسم بالزيف، ويكتب بالفساد.
... شكرًا أيها المؤرخ العظيم...

بعد مرور ربع قرن من صدور رواية نهر السماء،
وبسبب من روح الشغف التي تملكنتني، اكتشفت
في أثناء كتابتي، كتاب (شرائع البحر المتوسط
القديم)، أن تلك القواعد تأسست في عهد
الإمبراطورية الرومانية، وأن كافة الإمبراطوريات

التي خلفتها، بغض النظر عما تدين به... (وثنيون،
كاثوليك، بيزنطيون، أرثوذكس، مسلمون)،
جميعهم تتبعوا نفس النهج، ولم يحدوا عنه قيد
أنملة.

* * * *

الفصل السابع عشر

أدوات الصنایعی

(a) توفر مصادر تتسم بدقّة وغزارة المعلومات وتنوعها. وأقوى دليل على ذلك بخلاف (عجائب الآثار) للجبرتي، كتاب (المديرية الاستوائية) للدكتور جميل عبید والذي يتميز بغزارة المعلومات وتنوعها ودقتها بصورة مكنتني من كتابة خماسية النهر، طبعاُ بالإضافة إلى مصادر أخرى كثيرة...

(b) عمل أرشيف كامل يضم المعلومات والبيانات الجوهرية، والشخصيات والأحداث التاريخية الحقيقية طبقاً لما جاء في المصادر.

- (c) جدول خاص بكافة الشخصيات الروائية.
- (d) جدول خاص بأهم الأحداث.
- (e) جدول يضم ثبناً مختصراً للتطور الدرامي للسردية الروائية.
- (f) يجب التنبية لأهمية التسجيل على جهاز الكمبيوتر.

* * * *

(1 / 17)

توفر المصادر

من طالع السعد الذي وهبه العقل اللاواعي
الجمعي المصري إلى الثقافة المصرية هو تمتعها
بمؤرخين عظام، أمثال: المقرئزي، عبد الرحمن
الجبرتي، الأمير عمر طوسن، المؤرخ اللبناني نعوم
شقيير، الدكتور جميل عبيد، الدكتور عبد الرحمن
الرافعي، فضلًا عن الطبري، ويل ديورانت. ومن
الجدير بالذكر أن هناك كتابًا عن تاريخ الدولة
العثمانية للزعيم المصري رفيق مصطفى كامل،
محمد فريد. أضيف أيضًا أحد أهم الكتب المتعلقة
بتشكيل الهوية المصرية التي جاء ذكرها في كتاب
شرائع البحر الأبيض المتوسط القديم والمتعلقة
بالدستور الذي وضعه الرومان لمصر.

* * * *

وهنُ على وهن

مؤسسة أكاديمية ضعيفة وأساتذة تاريخ أشد ضعفاً

من المؤسف أن لدينا مؤسسة أكاديمية ضعيفة، وأساتذة تاريخ أشد ضعفاً، يفتقدون إلى إستراتيجية علمية مناسبة تحتاج إليها الثقافة المصرية، ويحتاج النشء والنخبة المثقفة إلى فهم التاريخ المصري، ومن ثم طبيعة الشخصية المصرية وهويتها.

بعض كبار أساتذة التاريخ الذين تولوا مناصب العمادة في الجامعات المصرية متعصبون قومياً، فكيف لهم أن يفهموا ما هو إنساني؟ كيف لهم أن يفهموا أن الشخصية ومن ثم الهوية المصرية تضم داخل الهوية الجامعة أو المكون الأم هويات مضمرة؛ هوية فرعونية، قبطية، إسلامية، عربية، وهوية حداثة علمانية تنتمي للفكر الأوروبي.

أحد من تولى رئاسة المجلس الأعلى للثقافة، كان يمكنه أن يستخدم منصبه في عمل مثل هذا المشروع العظيم؛ ثبت لهؤلاء المؤرخين العظام بدلاً من التعقيم على أعمال أخرى أشد أهمية من تلك التي نشرها لأصدقائه، كان يمكنه أن يقوم على تمويل منح دراسية لطلبة الدراسات العليا للانكباب على

استكمال المسكوت عنه في التاريخ المصري، أو ما
يعتوره النقص أو التناقض العلمي في تاريخنا
الطويل، لكنه كان غير مؤهل كي يقوم بأعمال
عظيمة.

* * * *

(2 / 17)

ثبت للمؤرخين العظام

قائمة الشرف تطول وتحتاج إلى توفير ثبت من
رصد علمي دقيق من متخصصين، وأنا لست في
محل ذلك، لكنني سوف أسمح لنفسني أن أضيف بأن
هذا الثبت ينبغي أن يضم:

- أسماء أولئك المؤرخين العظام على
المستوى الوطني والعربي والعالمي.
- أسماء الكتب التي قاموا بتأليفها.
- سيرة حياة كل منهم، ومن ثم زمن
حياتهم.
- زمن التأريخ الذي قاموا على
تسجيله.
- ثبت مختصر يضم الموضوعات التي
احتوتها كتبهم.

- إعادة طبع الكتب ونشرها بأسعار
رمزية من خلال مؤسسات الدولة،
إذ إن جميعها مراجع في منتهى
الأهمية.

الهدف من ذلك الأمر هو إتاحة الإمكانية للمثقف
المصري، لشبابنا سهولة الاطلاع على التاريخ
ومعرفة تلك الأحداث المبررة والسوداء التي مرت بها
مصر، وبالطبع التاريخ العربي.

الشكر والامتنان لهؤلاء العظام

سوف أسمح لنفسي أن أنتهز الفرصة كي أقدم
لهؤلاء الرجال والمفكرين العظام التعبير عن امتناني
وتقديري الخالص، وأقول للمسؤولين عن الثقافة، إن
جميعهم يستحقون تماثيل ضخمة توضع في
الميادين العامة؛ في القاهرة والإسكندرية وطنطا
وقنا وأسيوط، تنم عن احترام وتقدير الأحفاد
للأجداد.

وافر الاحترام والامتنان لكم، فعلى عكس الضعف الكائن في بقية العلوم الإنسانية المصرية، أبقيتم وحافظتم لنا على الذاكرة الجمعية لجماعة الفلاحين، والمصريين عامة، وكان ما تركتموه كافياً كي يتمكن الروائي أو المثقف بشكل عام من معرفة التاريخ وأحداثه.

لكن، أنا الآن أتحدث عن رواية (نهر السماء).

* * * *

(3 / 17)

(عجائب الآثار) لعبد الرحمن الجبرتي

في هذا الصدد تمكنت من الحصول على المجموعة الكاملة لكتاب (عجائب الآثار) للمؤرخ الأعظم عبد الرحمن الجبرتي، إذ أعارني إياها أحد الأصدقاء، كان يتطلع أن يكون روائي²²اً، انكببت على قراءة الأجزاء الأربعة، درستها، وضعت الإشارة اللازمة إلى الموضوعات والأجزاء ذات الأهمية والرمزية الخاصة بما أنا مقبل عليه، وبعد فترة جمعتها وصن²²فتها، وأعدت كتابتها في دفاتر خارجية، كأرشيف عام

يتسم بغزارة المعلومات والبيانات التي أتوقع أنني
سوف أحتاج إليها.

* * * *

(4 / 17)

أرشيف تفصيلي كامل

انكبت على عمل أرشيف كامل للأحداث التي
تتعلق بالقرن الثامن عشر، والفترة التي سبقت قدوم
الحملة الفرنسية عام 1798، والتي سجلها الجبرتي
تفصيلًا؛ الحقيقة الجميلة المفزعة أن كتاب
الجبرتي كان ممتعًا، مفزعًا، وكاشفًا بصورة
تجعلني أقول: ينبغي ضمه للمناهج الدراسية،
وخاصة الجامعية وطلبة الدراسات العليا.

* * * *

(5 / 17)

جداول للشخصيات

في الروايات الكبرى، أقوم بعمل جداول
للشخصيات الروائية والحقيقية والتاريخية؛ وبما لا
يتجاوز حدود الاحتياج، مصحوبة بـ:

- أسماء الأسرة (الأب، الأم، الإخوة،
أبناء العمومة والخؤولة إلخ... إلخ).
- تواريخ ميلاد كل منهم.
- أهم الأحداث المتعلقة بحياتهم
الحقيقية إذا توفرت، وتلك المتخيلة
من إبداع المؤلف.
- متن دقيق بالأحداث والشخصيات
الهامة وتاريخ حدوثها.

* * * *

الفصل الثامن عشر

في مبدأ إبداع بناء درامي

(1 / 18)

من جديد

هل أنا روائي؟... اللعنة!

في البداية أصابني رعب، ليس فيما يتعلق بالجانب التاريخي، كنت عاشقًا للتاريخ منذ طفولتي، وكان ترتيبي دائماً الأول على أقراني في مادتي التاريخ والجغرافيا والمواد الاجتماعية عمومًا، وعادة ما أحصل على درجات نهائية أو أقرب للنهائية.

كمنت المشكلة في الجانب الفني، كيف تُكتَب الرواية، كل تجربتي كانت تتلخص في رواية (العُرس)، وقد اخترت لها نمطًا من البناء غير تقليدي.

في رواية (العُرس) زمن مركزي أقل من يوم، يبدأ مع موكب عُرس يندفع في طرقات مدينة بنغازي الساحلية بسطوة رجال نافذين من صلب السلطة المالية والعسكرية، خلال السرد تُستخدم تقنية (الFLASH باك) بالتحرك بحرية كاملة مع تقديم الشخصيات المختلفة للنص الروائي، ثم يعود ليعرِّج على ليلة الاحتفال بالعُرس، تقترب مع طقس فض بكاراة العروس؛ درية... بكاؤها،

وصراخها، ورجاؤها ممّوّنٌ يحيط بها أن يتركوها
وشأنها، لتظهر المأساة عندما يكتشف الجميع وعلى
المال أن العروس ليست بكرًا، ليست عذراء، وينتهي
في فجر اليوم التالي مع انفجار فيلا العُرس،
وانتشار العروس.

ينتصب العُرس خلال الزمن المحدود الذي يدور
خلاله، بوصفهما مركزًا للعالم، حول هذا المركز يتم
التقدم في السرد باستخدام جدلية بين زمنين؛
الزمن الحاضر وتقنية (الفاش باك)، حيث يجري
الكشف عن الشخصيات المتنوعة وعوالمها وأنماط
الصراعات المادية والنفسية والجنسية، والانتقال
من طرقات مدينة بنغازي عبر ضواحيها الحديثة،
المكان الرئيسي للحدث، إلى الإسكندرية، ودمشق
ومدن صغيرة، مثل التل، وبلودان، والرجمة، وغيرها.

* * * *

الكتابة من خلال معرفة العالم

في رواية (العُرس) ومن بعدها رواية (العلّم)،
كنت على معرفة وثيقة بالغالبيتة العظمى من

الشخصيات، و متن كبير من صيرورة الأحداث
وتصاعدها، أما المسرح العام فقد كان من طبيعته
خلّ أبته ومدن حديثه نظيفه وبحر يمتد بلا أفق،
فتيات ونساء بالأمس كنّ يسكنن البوادي،
وبيوت الصفيح والتنك، راعيات ماعز وأغنام وتجن
الصحراء الكبرى، ويتجمعن في كسل للسقاية حول
عيون الماء، واليوم أصبحن متخلمات بالنعمة
يَقْدُنّ سيارات البيان فيو، ويرتدين أحدث
موديلات روما وباريس.. عشّت قصص عشقهن
الفاشلة ونهايتها المروعة.

في رواية (نهر السماء) كان العالم غامضاً،
مجهولاً، غير معلوم، بيني وبينه ستارٌ سميك من
الزمن، يمتد لمائتي عام من الظلام المطبق، وتلك كانت
الأزمة المريعة، لذا أعيد قولي بأنني شعرت بالخوف
يتملكني، ليصعد سؤال م:

- هل أستطيع؟.. وكيف يمكن حل هذه
المعضلة؟

- اللعنة!.. من جديد، هل أنا روائي؟

* * * *

(2 / 18)

جورج لوكاتش⁶
فلسفة الذات

وضع (لوكاتش) الذات مقابل الموضوع، والوعي مقابل الوجود كقطبين متضادين يفسران بحركة جدلية الممارسة بينهما، وقدرة الذات على وعي الوضع التاريخي الموجودة فيه، وتحديد كيفية التحرك، وفقاً لهذه المعطيات. فبدل أن تكون الذات ملحقة بالتاريخ الذي تنتج عنه، تصبح فاعلة داخله.

في كتابه (التاريخ والوعي الطبقي)، سعى (لوكاتش) إلى إعادة الاعتبار للذات، فالتاريخ برأيه

⁶ جورج لوكاتش (1885-1971) فيلسوف وناقد ماركسي. درس في قسم اللغات في الجامعة في بودابست، تأثر بفلسفة الفيلسوف الألماني إيمانويل كانط، والتي هيمنت على جامعات ألمانيا لوقت طويل، فضلًا عن فلاسفة آخرين، من أهمهم هيجل... انضم إلى حركات اشتراكية متعددة. بين عامي 1904 و1908 اهتم بمسرح المدرسة الواقعية والحداثية؛ هنريك إبسن. أوجست سترندبيرغ، تعرف عام 1913 على عالم الاجتماع المعروف ماكس فيبر. في ذلك الوقت ألّف كتابه (نظرية الرواية) نُشر في 1916. في السنة الأخيرة من الحرب العالمية الأولى دعاه العديد من القادة الشيوعيين إلى الانضمام إلى الحزب الشيوعي المجري... في كتابه (نظرية الرواية) ساهم في وضع أسس علم اجتماع الأدب الجدلي، كما أنه يعتبر أحد واضعي حجر الزاوية في علم الجمال الماركسي. يعتبر من مؤسسي تيار البنيوية التوليدية.

ينتج عن التفاعل بين الذات والموضوع أي، عن وعي الناس بالقوانين التي تحكمهم، كذا كان (لوكاتش) يميل نحو إعطاء الأهمية للوعي.

الحرية داخل الضرورة

يختلف (لوكاتش) عن المثالية الهيغيلية، في كون العقل الهيغيلي هو الذي يسيطر على التاريخ ويقوده ولا يشكك في جزءاً منه، في حين أن الذات عند (لوكاتش) هي في علاقة جدلية مع الموضوع، وتأخذ قرارها انطلاقاً منه، وعلى ذلك فإن الجدلية في التاريخ والوعي الطبقي تضع الحرية داخل الضرورة نفسها.

* * * *

(3 / 18)

"نظرية الرواية"

(The Theory of the Novel).

يعرّف جورج لوكاتش الرواية بأنها:

"ملحمة البرجوازية، ملحمة العصر البرجوازي الحديث" والشكل السردي النموذجي لذلك العصر، وهي تعكس غياب التجانس بين الذات والموضوع في العالم الحديث، وتُمثل الصراع الجدلي بين الذات (البطل) والموضوع (الواقع التاريخي)، وتصور انفصال الفرد عن العالم الخارجي، وصراع الإنسان في بحثه عن المعنى من خلال صراع البطل الروائي مع واقع مجزأ، وفاقد للتماسك، وتظهر التناقضات الاجتماعية عبر البحث عن "الكلية" المفقودة، وهي تجسّد غياب الانسجام بين الفرد والعالم في المجتمع البرجوازي، فهي محاولة لاستعادة الكمال المفقود.

الرواية هي الشكل الفني الذي نشأ مع صعود الطبقة البرجوازية، وهي تعبّر عن عالم تلك الطبقة وتناقضاتها، على عكس ملحمة العصور القديمة التي تعبّر عن عالم متجانس كملاحم هوميروس.

* * * *

تطور الرواية

يربط (لوكاتش) تطور الرواية بتطور المجتمع الحديث، حيث تنشأ الرواية كشكل يعبر عن غياب العلاقة الكلية بين الإنسان والعالم، ويظهر فشل البطل في تحقيق ذاته في عالم غريب، مقارنةً بالبطل الملحمي القديم الذي كان جزءاً من الكل.

والرواية تتطور تاريخياً مع تطور المجتمع والطبقة البرجوازية، وتعتمد في تحليلها على الجدلية الهيغلية بين الوجود والوعي لفهم علاقة الإنسان بالعالم.

ومن المعلوم سلفاً أن هناك الرواية التي تعبّر عن المدرسة الطبيعية والواقعية، وتيار الوعي،

والواقعية السحرية والواقعية القذرة، وهي لن تتوقف عن التطور، وربما تحل أنماط جديدة.

* * * *

ضرورة الفن الروائي

الرواية عند (لوكاتش) ليست مجرد قصة، بل هي نمط فني ضروري للمجتمع الحديث، مهمته التعبير عن "نثرية" الحياة المعاصرة، لفهم الإنسان لنفسه، والتعبير عن اغترابه، والسعي نحو معنى في عالم أصبح معقداً وبنفسه منفصلاً، ومن ثم ارتقاء الوعي العام للجماعة الإنسانية بما هي عليه حقاً..

وهي النوع الأدبي النموذجي للمجتمع الحديث، في مقابل الملحمة القديمة التي كانت تعكس عالمها منسجماً؛ فالرواية هي الشكل الذي يعبر عن انفصال الإنسان عن جوهره، وعالم متفكك، باحث عن قيم أصيلة في مجتمع سلعي.

الرواية ليست مجرد فن، بل هي انعكاس فلسفي وتاريخي لحالة الإنسان المعاصر، الذي يبحث عن ذاته وكماله في عالم تسوده المتناقضات المادية

والروحية، ويسيطر على مقدراته الاستبداد
والفساد، ويدمره ضياع الشرف وانحلال القيم
والأخلاق.

الأدب والواقع الاجتماعي والتاريخي

تعد نظرية (لوكاتش) عن فن الرواية، أساساً
مهم²⁷اً في فهم العلاقة بين الأدب والواقع الاجتماعي
والتاريخي.

* * * *

(4 / 18)

المفاهيم الأساسية في نظرية لوكاتش

1. تاريخية النشأة: نشأت الرواية مع صعود الطبقة البرجوازية في المجتمع الحديث، لتكون مرآة لأزمات هذا العصر وتناقضاته.
1. الرواية هي المرآة التي تعكس تناقضات المجتمع البرجوازي، وتطوراته، وصراعاته الداخلية والخارجية.

2. **الذات والواقع:** تتمحور حول الصراع بين الذات (البطل) التي تسعى للكمال، والموضوع (العالم) الذي أصبح مجزأً وغير متجانس، مما يؤدي إلى اغتراب البطل وفشله.
3. **جدلية الذات والموضوع:** جوهر الرواية هو الصراع بين الذات (البطل ووعيها) والموضوع (الواقع والتاريخ والضرورة)، حيث يبحث البطل عن معنى، عن ذاته الكاملة في عالم يفتقر إلى البطولة ولا يوفر له اليقين اللحمي، فيعيش انفصلاً بين وعيها ووجوده، ما يولّد اغترابها.

1. **البحث عن الكمال المفقود:** الرواية هي محاولة لاستعادة "الذات الكاملة المفقودة"، التي كانت حاضرة في الملاحم القديمة، حيث كان البطل يمثل الكل، ولكنها غائبة في العصر الحديث بسبب انفصال الإنسان عن جوهره.
2. "نثر" الحياة بدلاً من "شعر" العالم: الرواية نقيض جذري للملحمة القديمة، الملحمة القديمة كانت تعكس عالمًا متكاملًا وروحًا متجانسة، لكن مع صعود البرجوازية،

ظهرت الرواية كشكل أدبي جديد للتعبير عن فقدان هذا التجانس، ويتناول ويصور صراع الإنسان مع عالم مفك كك.

3. العلاقة بالتاريخ والمجتمع: يربط (لوكاتش) نشأة وتطور الرواية بالتطور التاريخي للمجتمع الأوروبي، حيث تعكس كل مرحلة تاريخية أشكالاً روائية تعبّر عن تحولاتها وصراعاتها، مثل الرواية التاريخية والرواية الواقعية.

4. الرواية محاولة لـ"شمولية" العالم:

• في عالم تفكك، تسعى الرواية لتقديم رؤية كلية للعالم، حتى لو كانت هذه الرؤية تعكس غياب الكل والبحث عن معنى.

a. تظهر الشخصيات كأفراد يصارعون ضد الضرورة التاريخية، وليس كأبطال إلهيين يسيطرون على مصائرهم.

b. البحث عن الانسجام: الرواية محاولة للتعبير عن شوق الإنسان للانسجام المفقود مع العالم، والصراع المستمر

لتجاوز اغتراب الفرد، حتى في أشكاله
الأكثر تعقيداً.

9. البحث عن الكلية: هي محاولة للتصوير
الحكائي "للكلية الاجتماعية" في عالم
مجزأ، حيث يبحث الفرد عن المعنى في خضم
الفردية والسوقية.

10. الرواية "فن المجتمع": الرواية ليست مجرد
عمل فني، بل هي انعكاس لواقع اجتماعي
وتاريخي معقد، وتتطور بتطور هذا الواقع
(تيار الوعي، الواقعية السحرية).

11. الواقعية الاشتراكية: يجب على الكاتب أن
يكشف عن الكلية الاجتماعية، وتصور
الإنسان في صراعه البطولي، مستعيداً
الأبعاد الملحمية المفقودة.

* * * *

(5 / 18)

الرواية التاريخية

تعريف الرواية التاريخية: هي "عمل فني يتخذ من التاريخ مادة له، ولكنها لا تقوم على نقل التاريخ بحرفيته، بقدر ما تصوّر رؤية الفنان له".

الرواية التاريخية الحقيقية هي التي تجعل معاصريها يعيشون تاريخهم السابق، ويضيئون الحاضر من خلال الماضي، كأحداث الماضي تصبح جزءاً من واقعهم المعاصر.

نقدية للتاريخ

الرواية التاريخية، لا تقدّم مجرد أحداث تاريخية، بل تعيشها وتستدعيها لتضيء الحاضر، حيث يرى المعاصرون فيها تاريخهم.

* * * *

الفصل التاسع عشر

نظرية النموذج الاجتماعي (Social Model theory)
شخصيات تجسّد القوى الطبقية والتاريخية

تنويه:

في البداية، ينبغي التأكيد على عدم وجود نظرية منفصلة باسم "النموذج الاجتماعي" بشكل حرفي، بل يتكامل مفهوم "النموذج" لدى (لوكاتش) ضمن إطاره الفكري الأشمل، وهي تُعد جزءاً أساسياً من فلسفته الاجتماعية والجمالية، وتحديداً في سياق نظرية "الانعكاس" و"الواقعية" و"الأنطولوجيا الاجتماعية".

الغاية:

يهدف "النموذج الاجتماعي" إلى التأكيد على أن الأدب والفن يجب أن يلعب دوراً في تصوير الجوهر الحقيقي للصراعات الاجتماعية والتاريخية من خلال تمثيل الشخصيات كـ "نماذج" تجسد القوى الطبقية والتاريخية، مما يساهم في الوعي بالواقع الطبقي والتاريخي، وفهم وتحويل الواقع الاجتماعي، نحو مجتمع أكثر تماسكاً وعدالة.

* * * *

مفهوم "النموذج" (Type أو Prototype) في الأدب

استخدم (لوكاتش) مفهوم "النموذج" لتطوير نظرية الانعكاس الأدبي للواقع. ولا يعني النموذج الروائي اختيار المؤلف لشخصية عادية، بل اختيار شخصية تكتسب طابعاً رمزيّاً أو نموذجيّاً، مثل (سيزيف/ مدام بوفاري/ أنا كارنينا/ الأمير بولونسكي/ كوتن/ حسنين/ نفيستة روبرت جوردون... إلخ... في سياقات معينة)، حيث يمكن للمؤلف استخدامها لتمثيل جوانب أساسية من التجربة الإنسانية أو الصراع الطبقي.

* * * *

الأدب أداة لتحرير الوعي البشري

اعتبر (لوكاتش) أن الأدب الواقعي يمكن أن يكون أداة لتحرير الوعي البشري من صور الرأسمالية المشوّّهة ومواجهة هذا التشيؤ، ويرتبط مفهوم

"النموذج الاجتماعي" ارتباطاً وثيقاً بنقد
(لوكاتش) للتشيؤ.

التشيؤ:

التشيؤ هو: تحويل العلاقات الاجتماعية في
المجتمع الرأسمالي بين الناس إلى علاقات "شبيهة
بالأشياء" (آلية وغير شخصية).

* * * *

(2 / 19)

مفاهيم أساسية في نظرية (لوكاتش)

a) نظرية الانعكاس (Reflection Theory):
الأدب: "مرآة تعكس الواقع الاجتماعي بشكل
جوهرى، لا حرفي"، من خلال علاقة جدلية بين
الأدب والمجتمع في إطار "نظرية الانعكاس"، فهو
ليس مجرد نسخ للواقع، بل هو انعكاس جوهرى

٧٤، عبر تناول الكاتب للواقع الاجتماعي من خلال صور فنية، مع التركيز على المضمون، وعكس الصراعات الاجتماعية على المستوى العام، والتوترات والصراعات النفسية على مستوى الذات الانسانية.

(b) الوعي الطبقي:

(Class Consciousness):

يمثل العمل الأدبي الجيد وعي الطبقي كليا يعكس رؤية جماعية صادقة تعبّر عن صراعات العصر وتطوراتها، في سياق الأزمات التي يخلقها النظام الرأسمالي، وهو في هذا الصدد يعكس الوعي الجمعي لفئة اجتماعية معينة، لا مجرد آراء فردية.

(c) التثبيؤ (Reification):

مصطلح يعني تحول العلاقات الإنسانية في ظل الرأسمالية إلى علاقات آلية بين الأشياء، وتتجسد هذه الظاهرة في الرواية كتحوّل للذات الإنسانية إلى مجرد "شيء" أو سلعة.

(d) الواقعية الاشتراكية (Socialist Realism):

دعا (لوكاتش) إلى نوع من الواقعية يلتزم فيه الكاتب بقضايا الطبقة العاملة، ويسعى لتجاوز

الوعي الزائف للأيديولوجيات المهيمنة، مما يجعل الأدب أداة للنضال والتغيير وليس مجرد انعكاس سلبي.

الرواية فن للمجتمع:

الرواية هي الجنس الأدبي الملائم لتمثيل تعقيدات الرأسمالية وتفكك الحياة الاجتماعية، وينبغي أن تظهر كيف تتجسد القوى التاريخية في حياة الأفراد.

(e) "الفيونومينولوجيا الذاتية" للكاتب: من خلال "الفيونومينولوجيا الذاتية" للكاتب ووعيه الطبقي، يقدم المؤلف فهمًا أعمق للواقع بدلًا من مجرد التقليد، مع التأكيد على دور القارئ في بناء المعنى.

(f) *الذاتية والموضوعية*: يؤكد (لوكاتش) على أهمية الذاتية الواعية للكاتب والتزامه ([commitment](#)) بالواقع.

* * * *

(3 / 19)

غانية الفن الروائي

يرى (لوكاتش) أن الرواية هي فن يعكس تعقيدات العصر الحديث وتناقضاته، وهي محاولة لإعادة بناء عالم متكامل ومفهوم من خلال سرد قصص الأفراد في صراعهم مع الواقع.

* * * *

الفصل العشرون

{نهر السماء}

الشروع في العمل

مقدمة لابُدُّدٌ منها:

يجب عليّ القول بأن كل ما جاء في الفصل الثامن عشر والتاسع عشر من هذا الكتاب لم أكن أعرف منه ومن مفرداته، وما جاء عن الفليسوف المجري جورج لوكاتش قبل كتابته رواية نهر السماء وفي أثناء كتابتها وبعد الانتهاء منها سوى ما جاء في الفصل التاسع عشر والذي قرأته في ذلك الوقت في كتابه الرائع {دراسات في الواقعية الأوروبية}، واستخلصت منه مفهوم {النموذج الاجتماعي}، أما فيما يخص نظرية الرواية وخلافه، فقد اطلعت عليه في تسعينيات القرن الماضي وما تلاه، وقد ذكرت جزءاً كبيراً منه في رواية (بهجة الغواية) على لسان البطلة.

الواقعية الاشتراكية الكريهة:

من جهة ثانية، واحتراماً للحقيقة وللقارئ، لم أشأ أن أحذف من الفصل ما جاء حول موضوع الواقعية الاشتراكية... وأعتقد أن غالبية الكتاب الذين

ينتمون للييسار تخلصوا منذ سبعينيات القرن الماضي من هذا المصطلح سيء الصيت، والسبب أنه تحوّل إلى أداة شديدة القبح في يد جهات من الحزب الشيوعي السوفيتي وأجهزة الأمن التابعة له، وتجاه حرية الكاتب في الإبداع، ومن المعروف أن الستالينية حوّلت الواقعية الاشتراكية إلى أداة لقمع الحريات، والزج بالكاتب في السجون والمعتقلات، وكل من خالف النمط الذي أراده (ستالين) في الفن سبب في اعتقالهم والإلقاء بهم في السجون، أو نفيهم إلى سيبيريا، ما اضطرّ عديد من كبار الكُتاب إلى الهرب خارج البلاد... ومن أشهر الضحايا انتحار الشاعر والمناضل (ماياكوفسكي).

أذكر أن صراعاً نشب في نهاية سبعينيات القرن الماضي داخل الوسط الثقافي للتقليل من شأن الكاتب العظيم نجيب محفوظ، واتهامه بأن إنتاجه الأدبي ينتمي للواقعية النقدية، وليس إلى الواقعية الاشتراكية، وهو الأمر الذي سرعان ما تهاوى، مع سقوط الواقعية الاشتراكية في الحضيض، وانتصار (محفوظ).

مبكرًا احترمت مفهوم الواقعية النقدية في
مواجهة الواقعية الاشتراكية، دون التخلي عن مبدأ
التزام الفنان بقضايا الوطن والطبقات الفقيرة،
ومبدأي الحرية والعدالة.

* * * *

(1 / 20)

عودة إلى (نهر السماء)

بعد أن انتهيت من أعمال البحث والاطلاع
والاستقصاء، وبعد أن استوعبت نظرية الفكر
والفيلسوف المجري الماركسي جورج لوكاتش حول
نظريته عن النموذج الاجتماعي، (التي تعثرت بها)، في
كتابه القيم (دراسات في الواقعية الأوروبية) والتي
كانت مصدر إلهام بالنسبة لي، ومصباحًا كاشفًا
يقودني في عماء طبقات التاريخ والبنى الاجتماعية
المفترض علي فهمها واستيعابها.

لكن المصيبة تمحورت في أنه بعد كل هذا، انتابني
شكٌّ مريع حول مقدرتي كروائي، وكأن كل ما
سبق وكتبته مجرد عبث، وأنني لا أملك خبرة ما في

مجال كتابة فن الرواية العظيمة، أعني بفن الرواية؛
الرواية العالمية.

أولاً- الزمان:

كان الزمان محددًا وواضحًا بالنسبة لي، جرى تحديده والاستقرار عليه بعد كتابة عدد يتجاوز عشرة فصول، نزولاً في طبقات التاريخ، (كما أشرت سابقاً)، في النهاية استقر الأمر بالزمان عند الربع قرن الأخير من القرن السابع عشر، أي عند خمسة وعشرين عام^٢ قبل سقوط الدولة المملوكية، وقدم ورحيل الحملة الفرنسية، إنه الزمن المناسب للتعبير عن حياة وطبيعة وسلوك الفلاحين وما يلحق بهم من الطبقات الاجتماعية في المجتمع المصري.

ثاني^٢- المكان:

أما بخصوص المكان، فيرجع الفضل في ذلك إلى السيد (ظلم) الذي أودى بي قهراً واضطراً، وبسبب وفاة أبي إلى الانتقال في طفولتي المبكرة من المدينة إلى الريف، في زمن (خمسينات القرن الماضي)، كان فيه الريف بكرًا عذريًا، لم تلمسه نفحة الحداثة، أجزم بأنه لم يكن ليختلف كثيرًا عن عشرات أو مئات

السنين التي سبقت استقرارى فى قريتي ووسط
أهلها الطيبين.

هل يتعين علي أن أتوجّه بالشكر للسيد (ظلم)
ونديمته السيدة (ألم) ربّما! لا أعرف.

الشخصيات:

أولاً- كيف تكوّنّت شخصيات رواية نهر
السماء:

يمكنني القول بأن اطلاعي على نظرية النموذج
الاجتماعي من خلال قراءتي كتاب دراسات في
الواقعية الأوروبية لجورج لوكاتش، بالإضافة إلى
معرفتي بما جاء بالمادية التاريخية حول جدلية
صراع الطبقات عبر التاريخ بدءاً من المجتمع المشاعي
وحتى حتمية انتصار (والذي لم يتحقق) الطبقة
العامة، كلاهما مكّنّاني من تحديد الطبقات
الاجتماعية في نهاية القرن الثامن عشر والتي
طبعت العصر بصراعاتها الدموية، وقد حددتها في
ذاك الوقت:

الفلاحون، المماليك المحتل التركي، التجار، وقد أضفت ما لم يرد في نظرية لوكاتش المتعلقة بالنموذج الاجتماعي، ما أطلقت عليه لاحقاً (النموذج الثقافي)، والذي طورته واستندت عليه كلياً في كتابتها رواية (شرف الله).

النموذج الثقافي

هذا النموذج الثقافي لعب دوراً محورياً في حياة الفلاحين المصريين، ولم يكن من الممكن التغافل عن الأدوار السلبية التي أثرت على المجتمع المصري، في تلك الحقبة، وربما بأشكال متنوعة على مر التاريخ، بعضها إيجابي دونما شك.

تمثل النموذج الثقافي في النخبة التي مثلتها المؤسسة الدينية، والتي من المفترض القيام بدور مشعل النور الحضاري، الباحث والمدافع عن الحق والحقيقة، والمناضل من أجل العدالة، والتضامن والدفاع عن أبناء جلدتهم من الفلاحين، على العكس من ذلك، قاموا بتقديم المبرر العقائدي والتفسير الديني لحكم المماليك؛ حكم العبيد للأحرار من جماعة الفلاحين، مقابل الجاه والسلطان والنفوذ،

وتقاسم المغنم، فضلًا عن الفئات من حياة مادية أفضل.

ثانيًا- شخصيات تتغير أدوارها وتتطور:

في أثناء الكتابة كان من المخطط أن تكون شخصية محمد أبو الفضل، هو البطل الذي يواجه الشيخ السنهوري، لكن مع الكتابة تبين لي أن شخصية عبد المحسن أكثر ملاءمة، كي تلعب شخصية طالب الأزهر المتمرد هو وأصدقائه، ضد النسق التقليدي والمحافظ العام في مؤسسة الأزهر، وذلك في ظل أشكال القهر والظلم والنهب والعنف والاستبداد الذي عانى منه الناس تحت الحكم المملوكي العثماني.

ثالثًا- إيليا بتروفيتش:

يُعدّ ابتداء شخصية (إيليا بتروفيتش) من المغامرات الفريدة التي كتبتها من الخيلة الروائية عن شخصية تعيش زمنًا وعالمًا وثقافة مختلفة، لقد دفعني الشغف بالمعرفة والنزاهة الإنسانية على القيام برحلة تغوص في ماضي أولئك المالك، حيث تتشكل الجذور والنشأة، إيليا بتروفيتش هو راعي

أغنام يعيش في قرية تقع علي الحدود التركية الصربية، ويعمل شماسًا في كنيسة، خلال الحرب العثمانية مع الإمبراطورية المجرية النمساوية، قامت القوات العثمانية بخطف الصبي وسط العشرات وبيعهم في أسواق النخاسة، في مصر يتحول الغلام من المسيحية إلى الإسلام ومن عبد بيع في أسواق النخاسة لا يعلم ما هو مصيره، قد يكون خصيًا منزوع الرجولة، أو عاملاً في طبخانة ، لكنه يصير رب سيف، وكان أول ما فعله كي يكون كذلك اتباعه نصيحة الأمير عمر لاجين بأن يقطع رقبة أول فلاح يلتقيه، وهذا ما فعله وهو على أعتاب قرية (سرس الليان) عندما التقى طفلة في الحادية عشرة، وأطلق كل جنونه، كل مأساته، وهو يحاول أن يقطع رقبتها بسيف المسلم، يعود من رحلته مع أستاذه ومعلمه عمر لاجين، وقد أصبح رب سيف، وقد غيّر من اسمه ليصير حسين أغا الأشقر.

رابعًا: وماذا أيضا؟

حقًا، من المحف عدم الاعتراف بأنه لا نظرية النموذج الاجتماعي ولا التعرف على المادية التاريخية من حيث كونها تعبيرًا عن تطور الطبقات عبر التاريخ،

كانا كافيين لكتابة رواية نهر السماء، إذ إنهما قد يكونان ملائمين لكتابة مقال أو عمل دراسة في بحث أكاديمي أو جزء من كتاب في علم الاجتماع، لكنهما لا يملكان تأثيراً مباشراً وفعّالاً على وجه الخصوص في فن الرواية.

ألا يحق للسيد (ظلم) أن ينال حقه من التقدير؛ ألا ينبغي توجيه الشكر هذه المرة إليه، فلولاها لما كنت قد تعرّفت على جماعة الفلاحين وطبيعتهم وقيمهم، والأهم حياتهم اليومية، من فلاحته الأرض، إلى المهام التي تلعبها الفلاحته في بيتها وحياته زوجها، إلى رائحة روث البهائم في الزرائب والطرقات والحقول، التي تنم عن الخير، إلى السواقي وحلقات النوارج والطنابير والترع ذات المياه النقية والمصاييح الغازية، والأفراح والمآتم، وحضور الموالد، وحلقات الذكر، وجني القطن، وختمته القرآن الكريم، والجلوس في حضرة شاعر الربابة، والطبيعت الخلابة، وتلك الخاصة بشخصياتهم وقيمهم المحافظة والتي تتسم بالطيبة والخبث، والخضوع والقدرة البالغة على التكيف في مواجهة القهر والظلم ومصائب الحياة.

لذا وبكل يقين أستطيع أن أتقدم بوافر الشكر
والامتنان للسيد (ظالم) على ما وفّره لي من
تجربة حياتية وإنسانية فارقة، لعبت فيها نديمتي
وخليتي دومًا السيدة (الم) الدافع الرئيسي
لتحدّيها هو شخصيًّا، هل أجرؤ على القول:
(لتحدّيها هو شخصيًّا)؟

هل أجرؤ على القول: (والانتصار عليها)؟

لا أعلم، ولا يهم، فمَنْ ذا الذي يملك تغيير الماضي؟
لكن، يا الله... عفوك، كل هذا ليس من الحكمة
في شيء... لماذا الحديث عن منتصر، ومهزوم؟

لماذا تلك التلكؤات حول صغائر الأمور؟

لماذا السقوط في فخ اللغة وما تخلقه من مظاهر
زائفة؛ القوة والغرور والانحطاط الخفي غير المدرك؟

لماذا لا أستعين بعلم الكلام لدى المعتزلة حول
حرية الإرادة، وأن الله لا يمكن أن يكون ظالمًا؟

لماذا لا أستعين بفلسفة ابن رشد والتي تقدّم
العلاقة بين الجبر والاختيار في أجل صورها، حيث
يكون للإنسان دومًا ذلك الحق المقدّس في حرية

الاختيار ضمن جبرية القدر المحكمة، ومع ذلك فهناك من يستطيع أن يغيّر من قدره؟

الآن أستطيع القول عن قناعت، وعن رضا بأن كلاً من القدر والألم كانا رفيقين وصديقين وفيين جعلاً من نفسيهما مجدافين، قدّمّا لي نعم المساعدة في قيادة قاربي وسط العواصف والأعاصير وشيطان الخوف في خضم البحار والأمواج الهادرة، كي أشق طريقني نحو الأفق الذهبي، وأنا الآن قد بلغت، راضيّاً عمّا فعلت، قانعاً بما حققت... فيا الله، لك كل الشكر والتجلة.

خامساً - دراما النص:

البحث الشاق والإرادة المتواصلة عبر الكتابة تم تحديد الزمن، بينما وفّر السيد (ظلم) أو بمعنى آخر، القدر، المكان والبيئة في لحظة تاريخية لن تتكرر ويصعب تكرارها، وفي جدل بين الشغف بالوعي بالنظريات النقدية والحياة التي عشتها بفضل السيد (ظلم)، تشكّلت الشخصيات من حيث كونها نماذج تعبّر عن طبقات ونخب تاريخية في زمان

ومكان محددين سلفاً، وهي شخصية لم تكن مجرد رموز نظرية خالية من المحتوى الانساني، بل بشر من دم ولحم، ولكن ورغم ذلك، فإن الأزمات لم تنتهِ، وبقيت على ما هي عليه، وكأن الرواية فعلٌ من عمل شاق، كنت أصفها دوماً أنها فعلٌ يماثل عملية الفلاحة، عزيق الأرض، بعد أن تعزقها عليك أن ترويتها، وبعد أن ترويها عليك أن تبذرها، ثم عليك أن تتابع نمو محاصيلك وتحافظ عليها، وتنقيها من الشوائب، حتى يحين موعد الحصاد، كي تشعر أنت وامراتك وأولادك بالرضا والإشباع والسعادة.

ولكن، من أين وكيف تكون البداية؟ وهذا ما حدث، إذ إنه في لحظة تنوير خالصة، لا أفهم من أين ولا كيف ولا أدعي أنني فعلت عن معرفة أو ما يزعمون كونه إلهاماً، أو غيره، اكتشفت أن المرأة هي جوهر الحياة، هي عمود النص الروائي.

من هنا بدأت رواية نهر السماء فعلياً بمخاض المرأة الشابة، صديقتي على شاطئ نهر النيل، عام 1775 تاريخ مولد بطلتة الرواية (بدرية)، **ابنته السفاح بين صديقتي التي استجابت** في لحظة ضعف لرغبات الشيخ السنهوري.

صديقة زوجة (المنصور أبو حجاج الأكتع) الذي أحبته، ولكنه خذلها ولم يلق لها بالاً، وهو الذي خصاه المماليك وقطعوا يديه ولسانه برعاية وفتوى من الشيخ السنهوري، عقاباً على تمرده، وتنقيب دور السادة الأثرياء الذين دمرهم الطاعون.

هكذا علمت وتعلمت في أثناء كتابتي للرواية، أنني سوف أتبع التاريخ المتخيل لتلك الطفلة التي ستكبر وتنمو بين المنصور الفتوة، والشيخ السنهوري؛ رجل الدين، وسوف تصحب في طفولتها أصدقاءها الذين سيتقاسمون البطولة معها؛ عبد المحسن ابن أخت الأم صديقة، طالب الأزهر المتمرد المهروطق، والشقيقيين محمد وحامد أبو الفضل أبناء خولي الشيخ السنهوري.

القيمة الجوهرية للمرأة في النص الروائي؛

منذ تلك اللحظة وكان طاقة تنوير كشفت عن جوهرها وغمرت الروائي الكامن في العقل والوجدان بضوء هائل، وهو القيمة الجوهرية للمرأة في النص الروائي، وفي الحياة بصورة عامة، بوصفها مفتاح النص وعمود الخيمة الراسخ.

عندما بلغت المشهد الأخير من الرواية والذي يروي دخول لواء من خيالة الحملة الفرنسية إلى مدينة (منوف) علمت أنني كتبت رواية نهر السماء كلياً من الخيلة.

ومعلوم سلفاً أن كل نص روائي هو بناء متخيّل تختلف فيه النسب والقدرات، ثمّة نصوص عبارة عن استرجاع لأحداث من الذكريات مرت في حياة الكاتب، وثمّة نصوص تعبر عن القدرات الفنية والموهبة التي يتمتع بها الروائي من المزج بين خبرات الحياة الواقعية والعالم المتخيّل، لكن الأمر لا يتوقف عند تلك الحدود، فثمّة أبنية فنية متخيلة تماماً، يمتزج الواقعي بالأسطوري والخيالي بالسحري والرمزي، وبينما يكون الواقع طبقة النص الروائي التي تمهّد لما يحتويه السرد من عوالم ترتفع الخيلة الروائية والخيال الروائي ذرى تجعل من الواقع كلية فلسفية وأسطورية.

الصراع بين الثالث المرفوع ونهر النيل:

في رواية (نهر السماء)، قام (إيليا بتروفتش)؛ الغلام، وشمّاس الكنيسة الذي اختطف من حدود الصرب والبوسنة كي يستعيد قدرته على

الإنجاب ببناء أرض في جنوب الدلتا تشبه أرض
ميلاده؛ هضاب وجبال ثلجية، قلاع قوطية فنبتت
فيها وحوش وغيلان، وعندما جاء فيضان النيل، وقف
(إيليا بترفويتش) المدعو حسين آغا الأشقر، على
أسوار قلعتهم، شاهراً سيفه، وحوله طغمة من
أعدائهم على ظهور خيولهم في مواجهة النهر،
يكتسحهم فيضان النيل بكل عنفوانهم، ويروونهم
بضراوة مَن لا يقبل بثقافتهم ولا هويتهم غير الهوية
والثقافة التي أرسى معالمها على الوادي عبر التاريخ،
وخلال آلاف السنين.

* * * *

الفصل الحادي والعشرون

الطريق إلى النشر

السيد (ظُلْم) دون نديمته
حكاية صديق تحوَّل إلى غبي

بسبب رداءة خطِّي الشديدي، عندما انتهيت من المسودة الأولى المكتوبة بخط اليد على ورق (فلوسكاب)، اقتنيت آلة كاتبة، واستعرت أخرى، وشرعت في الكتابة، أنا وآخرون، وعندما انتهينا من كتابة نسخة المسودة الأولى، كانت الخطوة التالية تصوير نسختين أو ثلاث، لعرض الرواية على أصدقاء نَقَّاد للاطلاع على النص وإبداء الرأي، وسماع ملاحظاتهم، سواء العميقة والهامة، وتلك التي تفتقد الأهمية، وأيضاً للعرض على ناشرين.

عرض عليَّ صديق يد المساعدة، وأخبرني بأن لديه صديقاً صاحب مكتبة تقع في الحي الأول في مدينته نصر، لديه ماكينة تصوير جيدة للغاية، بالمناسبة كفنان ومبدع روائي، ينفق على أعماله من الوقت كل حياته، ومن المال كل ما يملك، ولا ينال على

المستوى المادي سوى الغبار وربما العدم)، كان من الطبيعي توقع أن تقوم المساندة والدعم من الأصدقاء، مع شوقهم لروايتهم وهم كثيرون، وبشكل عام من المثقفين.

تلقيت العرض بسعادة، والتقيت بصاحب المكتبة، واتفقت معه أن يقوم بتصوير نسختين من الرواية، وبعد أيام عدت كي أتسلم النسختين، حينها وقفت وقد أصابني الذهول؛ كان قد قام بتصوير عشرين نسخة، مجلدة تجليداً صلباً من نوع تجليد المراجع وقواميس اللغة، وطلب مبلغاً (على ما أذكر) عشرين جنيهاً للنسخة الواحدة، وأخبرني أنه بصدد طبع نسخة أخرى، في الوقت الذي كان طباعة 3000 نسخة بصورة احترافية لن تتجاوز 4000 جنيه، أو 5000 جنيه، أي أن تكلفة النسخة ستكون في حدود جنيه ونصف.

وسط حالة الذهول أصابني البكم، سمعته يخبرني أنه فعل هذا بناءً على طلب صديقي، تساءلت: ولكن لماذا التجليد الفخم؟ أجابني بالصمت، وعيناه تقولان: حتى لا تتمكن من استخدام النسخ في التصوير لدى آخرين.

هزرت رأسي في حيرة من المأزق الذي أوقعني فيه
ذاك الغبي، فأنا لا أملك الكثير من المال للوقوع في تلك
الفخاخ الصدئة، وكل هذه النسخ التي تم تصويرها
داخل حزام العفة الذي سبق وأن وضعه فرسان
الصليب على فروج زوجاتهم قبل الذهاب إلى تحرير
أورشليم القدس من الكفرة المسلمين لا تعني
شيئاً.

كان صاحب المكتبة لديه الأصل الذي قضيت في
كتابته خمس سنوات، هزرت رأسي مستسلماً،
وأخرجت ما في جيبتي من جنيهاً دفعتها نظير عشر
نسخ على أن أعود فيما بعد لأدفع ثمن البقية،
بالطبع لم أعد مرة ثانية، احتفظت بالنسخ
المجلدة تجليداً فاخراً، وبعد سنوات ومثلها مثل
أغلقت رواية (العرس) الزيادة، أقيت بها إلى سلة
القمامة.

بعد مرور أقل من شهرين، بلغني أن السيد (ظلم)
يشيع في أوساط المثقفين وجُلُّهم أصدقاء، أنني
سببت له مشكلة مع صاحب المكتبة، وأنه
يطالبه بثمن النسخ التي نسخها وتجليدها ذلك

التجليد المحكّم، ولم أكن في حاجة إلى تبديد
طاقاتي في القيل والقال، إذ كفاني الأصدقاء الرد.

* * * *

زيارة إلى الحاج مدبولي

كتحصيل حاصل، وعلى سبيل الواجب وليس اليقين، حملت المخطوطة وذهبت إلى مكتبة مدبولي الكائنة في ميدان طلعت حرب، للقاء صاحب المكتبة؛ الناشر الكبير الشهير الحاج مدبولي، وكان من أقوى دور النشر المصرية إبّان تلك الفترة، كان يقف في جبابه البلدي في منتصف القاعة الخارجية للمكتبة المكتظة بالكتب المهمة وظهره إلى المدخل، وقفت خلفه حتى استدار ناحيتي، وبأداء ميكانيكي (كلمة ورد غطاها)، قلت إن لدي رواية أريد نشرها، أعتقد (على ما أتذكر) أنه لم يتطلع نحوي، ولم يحاول معرفة اسمي أو محتوى النص، سمعته يقول بصوت خافت ما يفيد رفضه أو عدم استعداده للنشر.

وبضمير مستريح وأنا أتنفس الصعداء، ولأن هذا ما كنت أتوقعه يقيناً، استدرت إلى الخلف مغادراً

المكتبة، بلا غضب ولا زعل ولا حزن، وإنما راحة،
أنني قمت بما يتعين عليّ القيام به، وكفى.

ويقيناً أيضاً، كنت على ثقة تامة من أن روايتي
التي لا تزال بين يدي ت أعد من بين أهم ما ك أتب في
القرن العشرين، وربما الأهم.

* * * *

(3 / 21)

أول ناشر حقيقي

في تلك الأثناء، ظهر الصديق مصطفى الخولي الذي زارني في مكتبي بمشروع مترو الأنفاق، الكائن في حوش الوزارات في شارع الشيخ ريحان، وعرض عليّ إعادة طبع رواية (الحرس) طباعة احترافية، وعلى ما ينبغي أن تكون عليه الطباعة، وافترقنا على موعد للقاء في مكتبه الكائن في شقة أمام قصر عابدين، وفي مواعيدي معه، وكنت بعد تفكير عميق قررت أن أعرض عليه تولّي نشر رواية (نهر السماء) بدلًا من إعادة طبع ونشر رواية (الحرس).

ذهبت في الموعد، ولكن مصطفى تأخر عن الحضور، وهناك التقيت بمحض الصدفة (على ما أعتقد)، ودون سابق اتفاق بصاحب دار الفكر المعاصر؛ الأستاذ عبد السلام رضوان، وكان يقيم وأسرته في الشقة الكائنة بالطابق العلوي، أذكر أنه كان متهتمًا بمشروع عبوس، فيما بعد علمت أنه كان يعاني من ضائقة مالية، على أي حال دار بيننا

حوار، ومن المؤكد أنه كان يعرف سبب قدومي، عندما انتهينا من حوارنا، كنا قد اتفقنا على أن يتولى نشر رواية (نهر السماء)، وبالطبع على نفقتي الخاصة، في لقائنا الثاني علمت أن تكلفت طبعاً ثلاثة آلاف نسخة ستكون (خمسة آلاف جنيه) وكنت لا أملك هذا المبلغ الضخم؛ كان راتب الشهر من عملي في الأنفاق لا يتجاوز ثلاثمائة جنيه، طلبت من زوجتي أن تقرضني جزءاً من ذهب (شبكة العرس)، بلغت قيمته ألفان وخمسمائة جنيه، بعد مرور خمسة عشر عاماً، وفي أثناء انفصالنا قمت بتعويضها عن الذهب الذي اقترضته، بالتنازل لها عن ثمانية أفدنة أمتلكها من أراضٍ قابلة للإصلاح قرب وادي النطرون، ذكرت ذلك في وثيقة الانفصال، كي أسجّل أن الكتابة شقاء وعناء، وما تبقى دفعته من مالي الخاص، وهكذا دارت عجلة الطباعة.

إبّان تلك الفترة، لم ألتق مصطفى الخولي، وعندما التقيته، أعرب عن دهشة ممزوجة بالاستياء، وأذكر أن ما لفت انتباهي، أنه اكتفى بالإعراب عن عدم مسؤوليته عمّا قد تسفّر عنه العلاقة المتعلّقة بالنشر.

وكان الناشر يقوم بالطباعة في مطبعة كبيرة محترفة، تقع في حواري متفرعة من شارع بورسعيد بحي باب الشعرية، وكانت تستخدم تقنية (ص ٢٠٠ ف الحروف)، وهي التقنية التي كانت شائعة قبل ظهور تقنية (الأوفست) في العقد الأخير من القرن الماضي.

ظهرت البروفة الأولى للرواية، تقريباً منتصف 1986، وقمت على مراجعتها، وللغريب وعلى العكس من الروايات التي كتبتها فيما بعد، على جهاز الكمبيوتر مباشرة (وأعني بدءاً من رواية (مراعي القتل 1990) لم أحتج إلّا إلى النذر اليسير جداً) من تعديلات لغوية. خلال فترة قصيرة، أجريت المراجعة الثانية، تم هذا بسهولة فائقة وانسياب ويأسر لم أعده في رواياتي وكتبي التالية.

* * * *

الغلاف:

تولى الفنان المحترم المهذب (عبد العزيز جمال الدين) عمل غلاف بسيط مجاناً، ولكنه معبّب عن جدلية النهر والحياة.

* * * *

(4 / 21)

السيد (ظُلْم) الحاضر دائمًا
يُضرب ضربته من جديد

اقترب موعد السفر إلى ألمانيا الغربية في منحة
دراسية للحصول على دبلوم تخطيط الأنفاق،
وكانت المطبعة قد انتهت من طباعة الرواية، ولمَّا
كان الناشر قد حصل منِّي على مبلغ خمسة آلاف
جنيه، وهو المتعاقدُ عليهِ، نظير عملية النشر
والتوزيع، وكان السيد الناشر قد أخبرني أنه
باستطاعتي استلام النسخ من المطبعة.

حلَّ بي حالة من فرح بالغ، ذهبتُ وأصدقاء
قريبون جدًّا منِّي إلى المطبعة، وهناك تلقيت
الصدمة الثانية، لقد رفض صاحب المطبعة إعطائي
الرواية، موضحًا أنه لم يتسلم سوى أربعة آلاف
جنيه، ولا يزال علينا دفع ألف جنيه إضافية، قلتُ
إنني سألمت السيد (ظلم) المبلغ المطلوب كاملًا،
وكان قد حلَّ موعد ميلاد ابني الأصغر، حملت
زوجتي التي جاءها المخاض في سيارة ابن عمي (أحمد
عبد المعز)، متوجهًا هين إلى مستشفى فلسطين،

حملت معي كتب ومذكرات منهج السنة الرابعة ليسانس كلية الآداب قسم فلسفة جامعة عين شمس (انتساب)، وكنت قد عبرت الثلاث سنوات الأولى من الدراسة بنجاح، وعديد من تقديرات (جيد)، و(جيد جدا)، و(امتياز) في مادة أو اثنتين، واستمتع بالغ وأنا أقوم بسد النقص الذي كنت أعاني منه في علم الفلسفة على عكس بقية العلوم الإنسانية، مثل علم النفس أو التاريخ أو الأنثروبولوجي أو الإناسة، وعلم الاجتماع والاقتصاد والسياسة، تبقت السنة الرابعة، كي أحصل على ليسانس الفلسفة، وكان في مخططي أن أقوم بدراسة الماجستير، تحت عنوان: العقل المحاصر، الذي يتناول إشكاليات العقل العربي بين مدارس علم الكلام من أمثال الجبرية والأشاعرة، والجهمة، وغيرها في مواجهة فكر المعتزلة الذين جعلوا من حرية الإرادة والاختيار نمطاً² ممكن¹اً لحياة الإنسان، بينما عزمت² على أن تكون رسالته الدكتوراه في فلسفة الحرب في الشرق الأوسط، لكن لم يتحقق شيء من هذا القبيل، وقد نلت من السيدة التي تنتظر المخاض سيلاً من السخرية جعلني أتوقف عن الدراسة نهائي²اً¹.

عدتُ في نهاية ذلك اليوم لأكتشف أن شقتنا تعرضت إلى الاقتحام، على ما يبدو أن السيد (لص) كان لا يزال في الداخل، وأنا فاجئناه وهو يمارس السرقة، وكان الباب مغلقاً من الداخل، ما جعلني أضطر إلى اقتحام، حيث وجدنا كل شيء مقلوباً، رأساً على عقب وقد تمكن من سرقة بعض الذهب وليس جميعه، وبعض النقود.

هكذا حل الربيع الأخير من عام 1987 وقد تم طباعة رواية (نهر السماء) طباعة احترافية، وقد احتجزها صاحب المطبعة، ولم يسمح بالحصول حتى على البعض منها قبل استكمال دفع المبلغ المتبقي، وكان السيد (ظلم) قد اختفى من المشهد، ولم يعد من الممكن الوصول إليه.

غادرت القاهرة 1987 إلى ألمانيا، محروماً من الشعور بنعمته وسعادة طبع ونشر واحدة من أفضل الأعمال الروائية الفكرية في الأدب المصري والعربي.

* * * *

(5 / 21)

دعم الأصدقاء

وكما أن الحياة تضم بين ضفافها الظلم والظالمين،
والطيبين والظالمين، أشرق بين الأصدقاء مَنَ شُور
يشرقون في الوقت المناسب، ويعرضون من تلقاء
أنفسهم الدعم والمساندة.

ورغم كل تلك الظروف المعاندة والمعادية، غادرت
مطار القاهرة إلى مطار ميونخ، ولديَّ شُور
بالطمأنينة، إذ وعدني صديق كلية الهندسة ورفيق
حركة الكفاح الطلابي في سبعينيات القرن الماضي،
المهندس فخري عبد الغفور، بتغطية المبلغ المتبقي،
والإفراج عن الرواية، وقد أوفى.

له بالغ تقديري ومحبتي.

* * * *

عدتُ من ألمانيا، وكانت (البروتستورويكا) على
وشك هدم سور برلين وانقضاء عهد السور
الحديدي بين الشرق والغرب، وكانت رواية (نهر
السماء) قد خرجت من مخازن المطبعة إلى النور،
ولاقت احتفاء غير مسبوق، وأذكر أن رواية قالت لي

بأنفعال، وهي تهنئي بالرواية، وكنا في (أتليه
القاهرة) إن الرواية رائعة، وسوف تُدرس يومًا في
المدارس. كانت تلك النبوءة في عام 1988، ونحن
نقترب من انقضاء أربعة عقود، ولم يحدث، ولن
يحدث.

* * * *

(6 / 21)

الأرباح والخسائر:

التكلفة المباشرة = (6000.00) جم.

عدد النسخ = (3000) نسخة.

التكلفة الإجمالية والتي تضمن (الطباعة/ النشر/

التوزيع) = (18000.00) جم

السعر المفترض للغلاف = (6.00) جم.

رغم ذلك تقرر بيع النسخة = (5.00) جم فقط.

مهمة الناشر: الطباعة والتوزيع.

لأن السيد (ظلم) لم يهتم بأداء مهماته كناشر، ومنها نقل الكتاب إلى المحافظات والمدن الرئيسية المختلفة، ومن ثم توزيعه على المكتبات وباعة الصحف والمجلات، وجمع حاصل التوزيع، ويتم هذا في دورات متعاقبة، حين نفاذ الطبعة، ثم نجمع أرباحنا، ويصير الجميع سعداء، ومن ثم نذهب إلى إعادة الطباعة، وعمل طبعة ثانية وثالثة، وهلم

جرّاً، لكن السيد (ظالم) ترفّع عن أداء مهمة قبض ثمنها ويزيد، وترك الثلاثة آلاف نسخة في المطبعة، واختفى، كذا أصبح عليّ أن أتولى مهمة لا أعرف عنها شيئاً.

استقرت الأمور على أن يتم التوزيع باليد، تفرّقت النسخ على الأصدقاء، ومع كل الاحترام البالغ لهم، كان الكثير يطمع دون أن تكون لديه مبررات مقنعة في أن يقتني نسخاً مجانية، وهو ما حدث، وخاصة عندما يأنف المرء، أو يشعر بالحرّج من طلب شيء ما، ومنها المساهمة في حقوق التكلفة المادية.

* * * *

السيد (استحلال)

مظهر جديد للشيطان

لمَّا كَانَ السَّيِّدُ (ظَالِمٌ) قَدْ تَخَلَّى مِنْ تَلْقَاءِ نَفْسِهِ
عَنْ اسْتِكْمَالِ عَمَلِهِ الْمُتَعَلِّقِ بِعَمَلِيَّةِ تَوْزِيْعِ الْكُتَابِ،
ظَهَرَ فِي الْفَضَاءِ الْخَالِيِ السَّيِّدِ (اسْتِحْلَالِ).

كَانَ رُبْعَةً، قَصِيرِ الْقَامَةِ، لَا أَحَبَّ أَنْ أُذْكَرَ اسْمُهُ،
فَقَطَّ لِقَبِهِ، وَكَانَ عَلَى مَا يَبْدُو [الْحُسَيْنِيَّ]، التَّقِيَّتَهُ
فِي (أَتْلِيهِ الْقَاهِرَةَ)، وَكَانَ لَدَيْهِ نَظَرَاتٌ ضَبَعٌ يَتَلَكَّأُ
بِانْتِظَارِ الْبَحْثِ عَنْ فَرِيْسَتِهِ.

كَانَتْ الْبَدَائِيَّةُ مَقْرُونَةٌ بِغَرَضٍ يَتَضَمَّنُ الْمُسَاعَدَةَ
عَلَى بَيْعِ النُّسْخِ، مُقَابِلِ النِّسْبَةِ الْمَقْرُورَةِ، وَهِيَ 30%؛
وَكَانَتْ الْبَدَائِيَّةُ تَتَمَثَّلُ فِي عَدَدٍ قَلِيلٍ مِنَ النَّوَسْخِ، ثُمَّ
قَفَزَ الْعَدَدُ إِلَى مَائَةِ نَسْخَةٍ، بِخَمْسَمِئَةِ جَنِيْهِ، بَعْدَهَا
اخْتَفَى السَّيِّدُ (اسْتِحْلَالِ)، وَبَدَأَتْ مَطَارِدَةُ رُخِيصَتِهِ،
امْتَدَّتْ لِسِنَوَاتٍ وَلَمْ تَنْسَ فَرَّ عَنْ شَيْءٍ، سِوَى أَنْ يَـ

روائي شريف أصرخ في البرية، في وسط يعج
باللصوص.

* * * *

ملاح في مضمار النقد

تولّي الندوة الأولى، الناقد الكبير إبراهيم فتحي، كانت ندوة حاشدة، أسهب وأبدع خلالها، وكان الحضور كثيفاً، لم أجلس على المنصة، واكتفيت بالجلوس منزويّاً على كرسي في آخر الصف الأول يمين المنصة، وكان الأستاذ الشاعر الكبير محمد إبراهيم أبو سنة، قد نشر مقالة أكثر من رائعة، تكرر هذا يوم غزو العراق، وفي ندوة في معرض القاهرة، طلبت الناقدة الكبيرة د. اعتدال عثمان من الأستاذ إبراهيم فتحي، أن تأخذ مكانه، وقدمت قراءة رائعة ومدهشة نشرت في مجلة الثقافة الجديدة، وقد صاحّبها ناقد آخر، امتنع عن نشر المداخلتة الموسعة التي قرأها في الصحف إلّا نظير مبلغ مالي، ولم أكن لأصدق كل هذا الهراء وكل تلك الترهات.

المُحِبِّونَ كُتُبُ

من جهة أخرى أذكر بمحبة ومودة بالغت أن
أصدقاء محترمين وأعزاء أحبوا الرواية، ومنهم من
عشقها، واشتروا منها عشرات النسخ وربما مئات،
وعكفوا على توزيعها بمعرفتهم على أصدقائهم
مجاناً، ومنهم الصديق العزيز جدّاً؛ محمد فريد
حسنين، له كل المحبة والامتنان.

* * * *

(9 / 21)

(نهر السماء) على مائدة الجوائز

بعد عودتي من ألمانيا، تقدّمتم عام 1988 وربما
1990 (لا أذكر التاريخ على وجه الدقة) برواية نهر
السماء، لنيل جائزة الدولة التشجيعية، وكنت على
يقين مطلق من نيل الجائزة، لكن السيد (ظالم)
ونديمته السيدة (ألم)، كانا يقفان لي بالمرصاد، وجاء
موعد الإعلان عن جوائز الدولة عن ذلك العام،
وكانت المفاجأة المنافية لجوهر المصادقية، أن الإعلان
جاء مصحوباً بحجب جائزة الدولة عن فرع
الرواية ذلك العام.

تلك كانت أياماً من أزمنة التعاسة والحزن
والغضب، داهمني خلالها شعور حاد بالكراهية
والاحتقار لبعض الأسماء التي قيل وقتها أنهم
المسؤولون عن لجان التحكيم، (ما لبث أن تلاشى
الغضب وكافت المشاعر السلبية، وأنا الذي يكفي
فخرًا أنني مَن كتب هذا النص المعرفي العظيم)...

الروائي كي يكون قادرًا على رؤية العالم
الإنساني، كي يكون قادرًا على الكتابة عن ملايين
المحرومين، عن دموع اليأس والتعاسة، صرخات الألم
والحزن التي تدوي في فضاء العالم، يجب عليه
أن يكون إنسانًا طيبًا عاقلًا متواضعًا، أن
يحافظ على صفاء بصيرته من مستنقعات الحقد
والكراهية، من تشوهات النفسيات المريضة.

فهنيئًا لهما؛ (السيد شيطان، ورفيقتها)، ولكل
أولئك الأشخاص السيئين، والمؤسسات الثقافية التي
تستشري فيها روح الانحطاط والفساد، وانعدام
الشرف المهني والأخلاقي، المقاوم للارتقاء بالوعي
العام، المعادي لجماليات الفن والمعرفة، المناوئ للجدارية
وروح البحث عن الكمال.

* * * *

الفصل الثاني والعشرون

مراعي القتل.. عودة إلى الإبداع

أربع إشكاليات دفعتني إلى تأجيل كتابة رواية (مراعي القتل) لحوالي 13 عامًا، بالطبع لم أكتشفها جميعًا منذ طلقة البداية، كانت الإشكالية الأولى التي ظهرت بقوة ومن الوهلة الأولى حقيقة الشخصية المصرية، تهالكها إبّان الهجرة لبلدان النفط، وانكسارها أمام عنف واستعلاء البدوي القادم من صحراء النفط.

كنت من جيل حوّل قاعات الجامعات وجدران الكليات إلى شعلة من لهب، وخرج إلى الأحياء الشعبية وميادين القاهرة والإسكندرية الرئيسية، يطالب بحرب التحرير الشعبية والقتال من أجل تحرير سيناء المحتلة من قبّال العدو الإسرائيلي، ناضلنا دونما خوف ودون أن تُرهبنا هراوات الأمن المركزي ومراكز الشرطة، وسجون النظام، ودونما إذعان لسلطة مرتعدة، لهذا كان لدي يقين أن ما

شاهدته من العمال والفلاحين المصريين على الساحل الليبي أو المدن الليبية وفي معسكرات العمل لم يكن يحب أن يرى يقيناً عن الشخصية المصرية.

الإشكالية الثانية- وحدة الموضوع:

وكنت أفكر في الدفع ببطلين؛ فلاح صاحب شخصية (بوهيمية)، والثاني، مثقف يساري، ولم أسترح قط لهذا الاختيار، كنت أشعر أن ثمة خطأ جسيماً لا أعرف كنهه، ومبالغته تبتعد عن الموضوعية.

الإشكالية الثالثة: ثرثرة المبتدئين.

الإشكالية الرابعة: مرجعية المقاتل المصري في أثناء الحرب.

وقد برزت الإشكالتان؛ الثالثة والرابعة، عندما بدأت الكتابة من جديد بعد ثلاثة عشر عاماً، وبعد العثور على حل للإشكالتين؛ الأولى، والثانية، والمتمثل في العثور على شخصية البطل (عبد الله

عبد الجليل)، الجندي والمحارب في سلاح الدفاع
الجوي في أثناء حرب الاستنزاف.

* * * *

العودة إلى (مراعي القتل):

بعد عودتي من لندن إلى القاهرة، في البداية
انشغلت في نشر رواية (العرس)، وفي عام 1980
شهدت النور على ما كانت عليه من عيوب جسيمة
ودون رقم إيداع ولا ترقيم دولي، ثم انتقلت مباشرة
إلى كتابة رواية (نهر السماء)، وفي منتصف عام 1982
التحقت بالعمل في مترو أنفاق القاهرة، وكان عمل
شاقاً استلزم مني العمل 48 ساعة يوميّاً،
وكنت أقود طاقمين من المهندسين، أحدهما يعمل
نهاراً، والآخر ليلاً، لم يمض عام آخر حتى انتسبت
إلى قسم الفلسفة بكلية الآداب، جامعة عين
شمس، وذلك لسد العجز الذي كنت أشعر به تجاه
ارتباكى أمام تعدد المدارس والمذاهب الفلسفية
في العصور المختلفة والعلاقة بينها، وترتيبها الزمني،
وهو ما كان يسبب لي إرباكاً في الفهم، على
عكس العلوم الإنسانية الأخرى التي كنت أعشقها
وأفهمها بصورة شديدة الجمال، شديدة الانسياب،

شديدة السهولة، وفي ظل تلك الظروف الشاقة
والمشغوليات التي لا تنتهي، انتهيت من كتابة رواية
نهر السماء عام 1985، وشرعت في نشرها، كما
تمكّنت من الحصول على دبلومة تخطيط النقل،
عام 1986 بتقدير امتياز، وكنت الأول على الدفعة،
وكان موضوع البحث الذي نال استحساناً بالغاً،
هو نقل تكنولوجيا الأنفاق، والذي استند على
تفكيك حزمة التكنولوجيا ودراسة كيفية
تنفيذها على المستوى الوطني، ودراسة مستفيضة
حول الدور الذي لعبته الشركات الوطنية في
مكونات تنفيذ الأنفاق والمحطات، وكيفية تمكين
الشركات المصرية من تنفيذ الأجزاء الخاصة
بجسم النفق، بهدف تمكينها من المساهمة في
شبكة أنفاق القاهرة، والإسكندرية، ومدن أخرى
داخل مصر والمنطقة العربية والإفريقية، وهو أمر
شديد الصعوبة بالقطع، ولكنه ممكن لو توافرت
الإرادة السياسية والبيروقراطية والعلمية
والأكاديمية، وهو ما تم تجاهله كلياً، وعدم
الاهتمام به من قبل المسؤولين.

* * * *

المقاتل والحرب

ابن العمومة: محمد رأفت نصر

اليوم الذي علمت فيه من أبناء قريتي، أن رأفت نصر أبو علوش، وهو صاحب وصديق وابن عم، يحمل بطاقة مصاب حرب، وأنه أمضى مدة تجنيده كمقاتل في سلاح الدفاع الجوي، قاتل في حرب الاستنزاف، وكنتُ لفرط شغفي بالاطلاع على تاريخ الحروب في العالم والشرق الأوسط، ومناهج الإستراتيجيات العسكرية وفن الحرب، أعلم جيداً الدور الذي قام به سلاح الدفاع الجوي المصري في مواجهة وإبطال فاعلية سلاح الطيران الإسرائيلي، وهو يعيثُ فساداً في الأجواء المصرية، قبل وبعد بناء حائط الصواريخ، وهو السلاح الذي ساهم بشكل رئيسي في حماية القوات المصرية فيما بعد، وتمكينها من عبور قناة السويس.

كان رأفت نصر عاشقاً حافظاً، للسيرة الهلالية متمثلاً في علاقته بالعائلة والأهل، والأصدقاء، بـ (أبو زيد الهلالي) في حياته الشخصية، كان شخصية تستحق أن تكون (بطلاً تراجيدياً) في رواية، وكنا نمضي الوقت مع بقية الأصدقاء؛ المعلم جابر يونس، المهندس محمد عزام، الأستاذ سمير الفار، الأستاذ عبد المعز الفار، الدكتور عماد علام... وآخرين في الاستماع في حضرة سيد المنشدين من شاعري الربابة، فتحي سليمان الشاعر، وهو يروي بطولات العشق والحرب لأبي زيد الهلالي والملك سرحان والسفيرة عزيزة، ابنة سلطان تونس الخضراء، وبهذا أصبح لديّ ما يمكن الاعتماد عليه في التخلص من تلك الترهات الفظة المتعلقة بالشخصيات الرومانسية الركيكة الهشة الضعيفة، أصبح لديّ تلك الشخصية المقاتلة التي قاتلت في الحرب، هكذا تيقنت من وجود بطل لرواية مراعي القتل، وتمثل ذلك في شخصية عبد الله عبد الجليل في رحلة العذاب والامتهان إلى ليبيا بصحبة عدد من رفاق السلاح.

البطولة إبان الحرب
معادل هوان العمل خارج الوطن

دفع ظهور شخصية عبد الله عبد الجليل على مسرح الحياة الواقعية، بظهور المعادل الموضوعي لطبيعة الشخصية المصرية بين ضعفها إبان الهجرة لبلاد النفط، وأمام سطوة وعنف البدوي، وشجاعتها وبسالتها إبان الحرب، هكذا جرى وضع زمن الهجرة بحثاً عن لقمة العيش وتحسين ظروف الحياة في مواجهة زمن الحرب، وقد ترتب على ذلك أن أصبحت يوميات الصراع العسكري في حرب الاستنزاف، ومعركة بناء حائط الصواريخ تحت قصف الطيران الإسرائيلي المتواصل، جزء أصيل في متن الرواية، فإذا كانت رحلة العذاب والامتهان وسير مئات الآلاف تحت زخات المطر مئات الكيلومترات على الطريق الساحلي الليبي يمثل الطبقة الأولى في متن السرد الروائي، فإن الحرب الدامية سوف تُمثّل الطبقة الثانية.

وهكذا أصبح لديّ حلّ للمشكلات المتعلقة بإشكالية البناء السيكولوجي والثقافي للشخصية المصرية، وكيفية تناول التعارض بين طبيعة وسلوك الشخصية المصرية إبّان الحرب وبين

الامتحان الذي عانت منه إبّان الترحال، بحثاً عن
لقمة العيش والعمل في بلاد النفط.

* * * *

(2 / 22)

العودة إلى الكتابة

في عام 1987 حصلت على منحة دراسية في ألمانيا
الاتحادية، للحصول على دبلوم تخطيط الأنفاق،
وقبل مغادرة مصر أمضيت ثلاثة أيام في قريتي،
جلست مع ابن العم؛ رأفت نصر، لساعتين وعلى
ورقة مزدوجة من إحدى كراسات التعليم الابتدائي،
راجعت معه عدداً من المعلومات العسكرية التي
تخصه، وتلك التي دارت إبان حرب الاستنزاف والتي
خاضها مع رفاقه من المصريين البسطاء من العمال
والفلاحين، كتبتها وجمعتها في صفحات أربع،
وعدت إلى القاهرة، استعداداً للسفر إلى ألمانيا.

وضعت في حقائب السفر مخطوطات رواية (مراعي القتل) القديمة التي كتبتها في ثلاث مفكرات، ورابعة من نوع المذكرات السنوية في النصف الثاني من عام 1975، وما إن بلغت مكان الإقامة في مدينة ساربروكن الواقعة في الجنوب الغربي من ألمانيا الاتحادية، حتى أخرجت المذكرات الأربعة التي كتبت منذ اثني عشر عامًا، وضعتها على الطاولة، وشرعت في إعادة الكتابة من جديد.

في هذه المرة كان لدي مفتاح النص ووحدته، والمتمثل في شخصية عبد الله عبد الجليل.

الإشكالية الثانية- ثروة المبتدئين:

بدأت في مراجعة النصوص التي سبق وكتبتها في بنغازي عام 1975، أي منذ أكثر من عقد، وجدتني أشطب بالقلم الفلوماستر الصفحات، واحدة تلو أخرى، كانت الصفحات تتمزق وألقي بها إلى سلة القمامة، ثلاث مفكرات من الأربع جرى تمزيقها لفرط ضعفها الفني، واحتفظت بالأجزاء الأخيرة والتي كانت أكثر تماسكًا وحرفية، وتبينت كيف

أنها تميل أكثر للبنى الواقعية، وكان كل ما تبقى من المفكرات الأربع ذات الألف ومئتي صفحة، ثلث مفكرة، أذكر ذلك جيداً، حوالي مائة صفحة؛ كانت كل ما تبقى من المخطوطة الأولى للرواية.

ولم يكن ليصيبني الفزع:

شرعت في إعادة كتابة الرواية من جديد على أسس مختلفة، متجاوزاً عيوب الكتابات الأولى، التي تعبر عن مستويات فنية ضعيفة، ورومانسية مغالية فجة، وبهذا بدأت كتابة رواية (مراعي القتل).

الإشكالية الثالثة- وحدة الموضوع:

الإشكالية الثالثة كانت تتمحور حول وحدة الموضوع المتعلق بأن تضم الرواية شخصيتين رئيسيتين؛ الأولى تعبر عن الملايين من الفلاحين والعمال المصريين في رحلة البحث عن لقمة العيش وتحسين ظروف الحياة في الوطن، والشخصية الثانية لمثقف يساري عليه مهمة فنية وفكرية، هي

القيام بالتحليل والشرح والتفسير الفكري والسياسي لأزمة الإنسان المصري في بلاد النفط، وما يصاحبها من رحلة العذاب، وكان هذا في حد ذاته خطأ جسيماً²⁷، وأحد الأسباب التي جعلتني أتوقف عن الكتابة، والانتظار حتى أجد حلاً لهذه الإشكالية.

* * * *

دروس يتعلمها الكاتب
من التمرُّس في فن الرواية

أول²⁸ - وحدة الموضوع:

ربما بدافع من أفكار الكاتب الأيديولوجية، كنت²⁹ مدفوعاً³⁰ لزرع شخصية تنتمي إلى قطاع المثقفين اليساريين، وكان في ليبيا الكثير؛ ناصريون ويساريون وطنيون، كان دليلي في الجمع بين شخصية البطل البوهيمي، وبين شخصية البطل المثقف روايتين؛ الأولى رواية (زوربا اليوناني)، للكاتب اليوناني نيكوس كازانتزاكيس، والثانية (الأشجار واغتيال مرزوق) لعبد الرحمن منيف، وإن لم

تكن الثانية بقوه الأولى، خلال كتابة الرواية تبين لي وخاصة بعد أن تعرفت على شخصية عبد الله عبد الجليل الحقيقية، أي ابن العمومة رأفت أبو علوش، وهو المحارب ومن مصابي الحرب، أن الفلاحين المصريين قاتلوا في الحرب ليس بناءً على انتماءات أيديولوجية، سواء أكانت يساراً أم يميناً، أو مفاهيم اشتراكية أو ليبرالية، وإنما على ثقافتهم الشعبية، هذا ما تبين لي في أثناء فعل الكتابة، ساعد على ذلك أنه من أهم سمات رأفت أبو علوش الشخصية، هي عشقه لشخصية (أبو زيد الهلالي)، وتمثله لها في حياته اليومية، وكيف أنه يحفظ ويردد أشعار السيرة عن ظهر قلب، وكان يتمثل تلك الشخصية ذات الاهتمامات العائلية الاجتماعية الأخلاقية والإنسانية العليا، هكذا أطلت من الذاكرة تلك السهرات التي كنت أقضيها على أضواء المصايح الغازية في ساحات القرية مع أولاد العمومة والأصدقاء، وأنا في مراحل الطفولة والمراهقة والشباب، في حضرة شاعر الرابطة الأعظم (فتحي سليمان الشاعر) من قرية جروان- منوفية، وهو يروي بكبرياء وجلال قصص البطولة والعشق في السيرة الهلالية... وأيضاً اللجوء إلى مقام

السيدة زينب رئيسة الديوان، قاضية محكمة العدل للشكاية لها من المظالم التي يعاني منها الفلاحون في حياتهم.

هكذا تضاعل أمامي شخصية المثقف أو الرفيق اليساري، الذي أعددت، كي يصاحب عبد الله عبد الجليل في رحلته الدامية، عبر الحدود وطريق الساحل الليبي، لبيزغ أمران جوهريان من أهم الموضوعات الفنية لرواية (مراعي القتل).

الأمو الجوهري الأول: وحدة الموضوع المتمثل في وحدة شخصية البطل، والذي سيكون هنا عبد الله عبد الجليل، ابن القرية المصرية الواقعة في دلتا نهر النيل، والذي خاض كمجنّد حرب الاستنزاف ضمن بطاريات كتائب سلاح الدفاع الجوي في مواجهة العنف والسيطرة المطلقة التي امتلكها سلاح الطيران الإسرائيلي في أثناء حرب خمسة يونيو، وحتى الانتهاء من بناء حائط الصواريخ بين عامي 1969 وحتى 1970 وقبول مبادرة روجرز.

الأمر الجوهري الثاني، وهو المتعلق بالإشكالية الرابعة المتعلقة بمرجعية المقاتل المصري في أثناء الحرب، ومن المؤكد أنها لم تكن كما فكرت في

البداية تتعلق بالأيديولوجيا، وكذا أطلت برأسها
الإشكالية الرابعة: كانت على أي المرجعيات يتم
كتابة النص؟

ظهر هذا واضحاً مع إعادة الكتابة، وخاصة بعد
إدراج قضية الحرب في النص كتعبير عن عظمة
الشخصية المصرية، على أي من المرجعيات، هل
سأختار مرجعية أيديولوجية، ولتكن يسارية مثلاً،
وكان هذا في ظني نوعاً من الإسفاف والنفاق المنافي
للحقائق على الأرض، أم يتم اختيار الثقافة الشعبية
الماثلة في ثقافة البطل الفلاح، وهكذا استقر لدي
ما ينبغي عمله عند إعادة كتابة الرواية، وقد حدث
ذلك منذ الأيام الأولى من استقرارني في مدينة
ساربروكن في جمهورية ألمانيا الاتحادية، وذلك قبل
سقوط حائط برلين. ستة أشهر متواصلة، وأنا أعيد
الكتابة، وكنت قد تخلصت كلياً من التركيبات
الفنية والفكرية الرومانتكية، وأصبح أمامي كلية
وحيدة، هي كتابة هذا الواقع المرير بصورة فنية
تتنامى مع طبيعة الهوية؛ التركيبة الثقافية
للشخصية المصرية.

* * * *

الفصل الثالث والعشرون

الكشف عن مغاليق النص

أولًا: تهشيم اللغة

من المعروف ومن المستقر عليه أن الكتابة السردية في الرواية استقرت على استخدام اللغة العربية الفصحى في كل من السرد ولغة التداخي، وبعد أن تم تجاوز تجربة نجيب محفوظ فيما يخص استخدام الفصحى في الحوار، استقر الأمر على استخدام العامية واللهجات المحلية في لغة الحوار، كأقرب وأجمل في التعبير عن الشخصية، عن طبيعتها، عن عملها، عن ثقافتها ومستواها الاجتماعي والطبقي.

في الأيام الأولى لبداية عملي في إعادة كتابة الرواية في مدينة ساربروكن في ألمانيا، قررت المخاطرة باستخدام لغة شاعر الرابطة على امتداد النص الروائي، كتبت ما لا يقل عن عشر صفحات، مستخدمًا تلك اللغة المهشمة التي تجمع بين

الفصحى والعامية، ضمن نسق موسيقي خاص، وقد بدأتها بعبارات:

{أز الكريك وضربة الحجاري...
مين يحكي على في جوفي}...
ومين يظفي ناري...}

في نهاية الصفحات العشر من الكتابة بتلك اللغة لشاعر الرباطة، اكتشفت أنني غير قادر على الاستمرار، وأنه من الضروري العودة إلى جماليات اللغة الفصحى، ومن ثم عدت إلى استخدام نمط الكتابة التقليدي مع تغير رئيسي وهام، وهو المتعلق بالإبقاء على التداعي باللغة المهشم²²مت.

السرد باللغة الفصحى...

الحوار باللغة العامية...

أي استخدام اللغة المهشمة في الأجزاء المتعلقة بعملية التداعي، لدى البطل في أثناء سيره المتواصل على طريق الأسفلت، وهي تمثل جزءاً كبيراً لا يستهان به من النص.

كان عليّ الاختيار بين لغتہ (تداعي) فصحي على لسان البطل، وما يطرأ على عقله الواعي واللاواعي من خواطر وتداعيات وذكريات وأسئلتہ، مثل القول: "سريا بن عبد الجليل في هذا الطريق الطويل"...

أو استبدالها بلغتہ تتداخل فيها اللغتہ العامية باللغتہ الفصحى، وما لبث أن صعد لحن موسيقى خاص فرض نفسه على لغتہ التداعي، وذلك مثل القول:

"سريا بن عبد الجليل في هذا الطريق الطويل"...

أو ما جاء في صيغتہ أخرى تتمثل في الجمع بين الفصحى والعامية في جملتين مترادفتين، كما جاء في سؤاله لنفسه، وهو يغذ السير على الطريق الأسفلتي، عندما قال:

"أسفلت هذا أم دم؟ واستطراد ... أسفلت هذا أم

دماء؟

كما يهمني القول بأنه كان من غير المناسب جماليّ وفنيّاً أن يتم استخدام اللغتہ الفصحى في السرد الخاص بلغتہ التداعي لهذا البطل، وذلك

لأن لغة السرد المتعلقة بالتداعي لم تأت على لسان الروائي أو الكاتب، وإنما على لسان البطل، وهو الذي لم يكن صاحب ثقافة تنتمي إلى أصحاب الياقة البيضاء، أو الحاصلين على شهادات عليا، كان البطل أزهريا، لم يستكمل تعليمه بسبب معارضة أخيه الأكبر، ولذا فقد استقرت ثقافته ومعارفه اللغوية في ذلك المجمع اللغوي والفكري الهائل والذي تمتلكه الثقافة الشعبية، وكان هذا تأكيداً للحلول التي وصلت إليها في حل الإشكاليات الأربعة السابقة.

* * * *

ثانياً- المتن الرئيسي للنص:

أنهيت المتن الرئيسي للنص خلال عامي 1987 و1988 في أثناء وجودي في ألمانيا، والذي تضمن متواليات من أربع طبقات:

الطبقة الأولى:

وكانت رحلة عبد الله عبد الجليل ورفاق الحرب إلى ليبيا، سواء خلال التسلسل ليلاً عبر الحدود المصرية الليبية، ومن ثم السير على الأقدام تحت المطر الغزير على الطريق الساحلي الدولي، من مدينة بردي الحدودية، وحتى مدينة بنغازي، ثم الانخراط في العمل في شركة للمقاولات في أحد معسكرات الجيش الليبي، وما تلى ذلك من أحداث انتهت بمصرعه على الحدود المصرية الليبية.

الطبقة الثانية:

وكانت سرديّة من التداعي الحر، كان عبد الله عبد الجليل يستدعي من خلالها زمن الحرب كمقاتل هو ورفاق رحلته في سلاح الدفاع الجوي ضد سلاح الطيران الإسرائيلي والمعارك البطولية للجيش والجندي المصري في أثناء بناء حائط الصواريخ، والذي تُوِّجَ وإسقاط الطائرات الإسرائيلية المهاجمة وتوحيد وإبطال فعاليتها، وكان أهم النتائج المترتبة على ذلك هو التمكن من حماية القوات المصرية، وتقديم الغطاء العسكري اللازم للقوات ضد الطيران المعادي في أثناء عبور قناة

السويس، في حرب أكتوبر 1973، وذلك في مواجهة زمن الهوان والاستعلاء والاستغلال الذي مارسه البدوي.

الطبقة الثالثة:

تمثلت الطبقة الثالثة في سرد آلام عبد الله عبد الجليل ومواجهه الخاصة، والأسباب الاجتماعية والمادية، ومنها استيلاء أخيه الأكبر على نصيبه من ميراث أبيه من الأرض، وموقف أسرته المعادي منه، وانتشار الفساد في القطاع العام وقصة حبه، ورغبته في الزواج ممن يحب، وكل الأسباب التي دفعت به إلى مغادرة قريته والبحث عن عمل في بلاد النفط.

الطبقة الرابعة:

بقيت الطبقة الرابعة والتي تحولت فيما بعد للطبقة الأولى والمتمثلة في اختيار مقاطع من السيرة الهلالية كمقدمات للفصول، مجرد تكوين غامض لم أكتشفه أو أواجهه، إلا بعد عودتي من ألمانيا بزمان وفي أثناء كتابتي للرواية على جهاز الكمبيوتر، وخلال محاولات النشر المتكررة.

* * * *

الفصل الرابع والعشرون

هامش على المتن.. منتصف الثمانينيات

حساب النفس

خلاف بين رفاق من جيل السبعينيات

جئتُ من لندن، حاملٌ على عاتقي خلافاً مع رفاق من جيل السبعينيات، ينتمون لواحد من التنظيمات اليسارية وثيق الصلة بالمؤسسات الثقافية التابعة للدولة، (لن آتي على تفاصيله)، حول أسلوب تشكيل اتحاد الشباب التقدمي خارج الوطن، كُنْنا جماعتين نشأتا في ظل مجتمع استبدادي، لا يعرف ولا يدرك أهمية احترام الرأي الآخر وحقوقه، تحملان وجهتي نظر مختلفة، تنبعان من تصورات وهمية ساذجة حول مفهوم الصراع بين الطهارة والانتهازية الثورية، كنت وأحمد عبد الله رزة في جانب، لكن وحدي مَن قرأ السيد (ظلم) عقابه... دفعت ثمناً غالياً ظل يلاحقني لزمان طويل، وربما حتى اللحظة الراهنة.

* * * *

الآن يخطر لي... الآن فقط يتعيّن عليّ الاعتراف بأمريين:

الأول: أن الدافع القهري للإصرار على الخلاف، كان ينبع من أننا كنا على يقين ساذج (وربما كنت شخصيًّا) من أننا سوف نحقق أحلامنا الوطنية، والطبقية، وطموحاتنا الشخصية، وفي المقدمة مجتمع المساواة والعدالة الاجتماعية، ومن ثم مجتمع الرأفاهية للجميع، تلك الأحلام والطموحات (بالنسبة لي)، لم يكن من بينها حلم الثراء، وتلك قضية أخرى.

الأمر الثاني: أن انعدام الثقة والشك بين الجميع وتجاه الجميع فتك بنا، جعلنا بدعوى الطهارة نسيء لبعضنا البعض بصورة فظيعة، ولم نوفر لا سبيلًا ولا طريقة للذم والهزاء، ومن ثم إيقاع الأذى المعنوي والنفسي ببعضنا البعض، في وسط كانت هزيمة الطابع اليقيني المطلق الذي تشكلت منه المفردات اللغوية ومنطق الأسلوب الدعائي لدى النظام السياسي الناصري في يونيو 67 قد دمغت الحياة السياسية والثقافية والإنسانية بانعدام الثقة والشك بين الجميع وتجاه الجميع.

ما أعنيه أن خسائر معركة يونيو لم تقتصر على هزيمة سلاح الطيران، وتدمير فرق المدرعات،

وكتائب المشاة الراجلة، واحتلال سيناء، كل هذا تم تعويضه بفضل رغبة الشعب في تحرير أراضيهم، والاتحاد السوفيتي المغدور به، كما تم تحرير سيناء مقابل الدم والسلام، والتخلي عن القضية الفلسطينية لآخرين، لكن انعدام الثقة والشك العميق استوطن قلوب ووجدان وعقول رفاق الثقافة والأيدولوجيا اليسارية، بين الصغار والكبار، بين القدامى والجدد، داخل الأحزاب والمؤسسات السياسية والثقافية، وفي ظل تلاشي الاحترام والثقة، أدى إلى انهيار أي قدرة على العمل الجماعي المشترك، وضعف القيم الجمالية والأخلاقية، ما انتهى إلى هدر كل إمكانية لاستعادة القدرة على النهوض السياسي الديمقراطي المنظم من جديد، المؤسس على الحرية والعدالة واحترام الكرامة الإنسانية.

* * * *

لعنة الغرور تتحقق

السيد (ظلم) لم يكن الخصم الوحيد:

السنوات التي أعقبت عودتي من لندن لم يكن السيد (ظلم) خصمي الوحيد، بل آفة (الغرور) الملعونة، وانعدام الأخ والأخت والرفيق المخلص المحب بلا حدود ولا شروط، الذي يمكن أن يكون لك نعمة الناصح المرشد الحكيم، يا الله، سامحني واعف عني... على أخطاء ارتكبت لها في حق نفسي وفي حق أبرياء آخرين بسبب جهلي وغروري اللعين.

في النصف الثاني من ثمانينيات القرن الماضي وبعد زواجي الأول، دار صراع مخيف بين النساء داخل الأسرة أدى إلى إصابتي بمرض السكر، والذي لا يقل خطورة عن مرض السرطان... الحق يقال إنه لم يكن للسيد (ظلم) دور في تلك الكارثة، بل كان المتسبب الرئيسي في ذلك هو الغرور الذي حل بي عقب عودتي من إنجلترا، وأن السيدات الفضليات لم يلتفتن إلى احتياجاتي ولا حقوقي، وأنا الذي لم أتسبب في إيذاء أي منهن، بل كنت دائماً منذ

طفولتي نصير^٢اً وداعم^٢اً ومتفهماً لهن ولأحلامهن
وحريرتهن ورغباتهن على الدوام.

منبع الغرور:

بعد التحاقى بكلية الهندسة، بدأ يتسلل لدي^٢ يقين عميق بأننى أملك من الذكاء والحكمة والفتنة، ما يمكننى من حل أى مشكلة قد تطرأ، ليس فيما يخصني فقط، وإنما على نطاق العائلة والعالم، كنت أدافع عن قيم إنسانية عادلة وبسيطة... استقرار التعاطف والمحبة داخل الأسرة، لكن لا الأسرة ولا الوافد الجديد اهتم بالأمر، وإنما بذل الجميع ج^٢ل^٢ جهدهم كي يخبروني أن المحبة في سبيل تعظيم الوشائج الأسرية محض هراء، ويجب أن نعطي هذا الغر الحالم الساذج، والرومانسي الأخطل الدرس، حتى ولو كان الثمن وقوعه في براثن المرض، واضطراره لعامين متواصلين إلى نقل الدم شهرياً بانتظام، نتيجة تكسير حاد في كريات الدم الحمراء... استسلمت للواقع الذي تجاوز كل الحدود المعقولة، وأعلنت هزيمتي، إذ كان طرفا القتال هراً وحشية، لا تلقي بال^٢اً بالقتلى

والدماء التي تسفكها خلفها حتى ولو كان الضحايا
ينتمون إليهم برباط الدم...

طوال حياتي الإنسانية لم أكن مغروراً أو
شخصاً معقداً يحمل ضغائن أو حقداً تجاه
أحد أياً كان، بل إنساناً متواضعاً بصورة
نموذجية، يحب الناس، يحب الخير للجميع، كان
لدي يقين أن امتلاء العالم بالمبدعين النابهين دافع
للتفوق، كنت أعشق الفضيلة بأبهى صورها
الأخلاقية والفلسفية.

لسنوات قليلة تلت عودتي، تصرفت فيما يخص
حياتي الشخصية بقدر مؤسف من الغرور، وقد
دفعت ثمناً باهظاً من حياتي الشخصية، ارتكبت
أخطاء أتمنى لو لم أفعالها، ولكن كيف والمرء كثير
ما لا يدرك الصواب من الخطأ، عندما يفتقد الإخوة
والأصدقاء المخلصين، والنصائح التي لا يشوبها
الهوى، ولا دوافع الحقد، أو مواجهة رغبة دفينتة في
الإيذاء من قبل أشخاص أعطيتهم كل طاقة من
الثقة وما تملك من الحب.

علي[ؑ] الاعتراف أيض[ؑ] أنني استوعبت جيد[ؑ] أن هذا العقاب الذي أوقعه بي غروري، كان أيض[ؑ] بسبب الأذى الذي سبب[ؑ] لبت[ؑ] لنساء فضليات، وفي الحقيقة كنت أود أن أجد من يساعدني، ذلك الرفيق أو الرفيقة المخلصة، ذلك الأب أو تلك الأم التي تنبهي إلى أخطائي، من يقول لي: احذر[ؑ]، لا تفعل[ؑ]، وإنما كان الجميع يبحث عن انتصاراته الشخصية، وتضخيم ذاته، ودون الدخول في التفاصيل، فقط كذا كانت النتيجة، هو استسلامي للواقع واعتراف بالهزيمة، توقفت عن إصلاح ذات البين، والحفاظ على الصلات الكبيرة ولا حتى الصغيرة، لقد فشلت ودفعت الثمن باهظ[ؑ]، نظير غروري، وكانت تلك أكبر هزيمة في حياتي (على المستوى الشخصي)، أودت بي إلى الوقوع في براثن مرض السكر، لم يكن أحد في عائلتنا مصاب[ؑ] بمرض السكر من قبل، ربما كنت الأول، أقول هذا كي أشير إلى أنني أصبت بهذا المرض بسبب الضغوط العصبية والنفسية، وقد فتك هذا المرض بجسدي، وأوقعني في دائرة من توابعه؛ قطع في شبكية العين، اضمحلال البصر والسمع، انسداد الشرايين، جلطات متعددة في الربع الخاص بالغضب من المخ، والعجيب أن تلك الأمراض المتعاقبة،

لم تكن وليدة مرض السكر، والذي من المؤكد أنه ساهم في وقوعها، وإنما يرجع الأمر الى تلك الضغوط النفسية والعصبية التي واجهتها طوال حياتي.

أشير إلى ذلك كي أوضح كيف أن مرض السكر كان يقطع من حياتي اليومية، ومن قدراتي المادية، وطاقاتي الذهنية الكثير، حتى إنني كنت أمارس يوميًا خلال العشر سنوات الأولى للمرض عمليتين من تناول حقن الأنسولين، مع تناول قدر من طعام محدد، فيما بعد أصبحت أربع مرات في اليوم، حيث لا يجب مطلقًا الانقطاع أو النسيان... أربعون عامًا، منها خمسة وعشرون كنت أجري أربع عمليات حقن إنسولين يوميًا مع الإجراءات المشددة بجرعات الأكل التي لم أهتم بها كثيرًا، وكميات مضاعفة من الحبوب، ودائمًا لم أستطيع الحفاظ جيدًا على نسبة السكر، كنت أخسر أمام هذا المرض اللعين، وأستطيع القول وأنا جالس الآن أنظر إلى تاريخي مع مرض السكر، أنني أجريت ما يقارب من أربعين ألف عملية حقن الأنسولين، وما يقارب (???) من تناول الحبوب.

غرور عابر، مرّ في مطلع عقد الثمانينيات، ورحل إلى غير رجعت، وكان عليّ دفع العقاب بدءًا من منتصف الثمانينيات وحتى آخر العمر، يا الله! حتى الأحكام المؤبّدة لها نهاية.

* * * *

هيت لك أيها العظيم

بعد عامين من عمليات نقل الدم المنتظمة، وأنا أتوقع أن حياتي سوف تنتهي، وأغادر هذا العالم الظالم في سن الأربعين على الأكثر، ودون سبب واضح شُفيت فجأة، وعاد إنتاج الهيموجلوبين في الدم إلى مستوياته الطبيعية، ومنذ تلك اللحظة وبصحبة مرض السكر وحلفائهم، عدت إلى عملي في الأنفاق، وانغمست في العمل، مثل غول نهم، توليت الإشراف على تنفيذ مبنى رمسيس كومبلكس، ومن بعده المرحلة الثانية من الخط الثاني (محطة رمسيس/العتبة/ محمد نجيب/ التحرير)، ومن بعده المرحلة الواصلة بين محطة التحرير إلى محطة المنيب، وتنفيذ أول نفق أسفل نهر النيل.

أعترف، أن لأشعرته الجهل في الحياة دوراً، أو أن
يعكف أقرب الناس إليك على إغراقك في مستنقعات
الكذب وعواصف الحيرة والحسد.

* * * *

الجزء الرابع

تسعينيات القرن العشرين

(الكتابة الآلية)

الفصل الخامس والعشرون

اقتناء جهاز كمبيوتر

حذفه: (ال)

في أثناء فترة تدريبي في أحد المكاتب الاستشارية الكبرى المختصة بتخطيط وتصميم شبكات السكك الحديدية والأنفاق في مدينة ميونخ بألمانيا، كنت أتابع تصميم شبكات السكك الحديدية الألمانية الحديثة، والتي يجري تصميمها في ذلك الوقت بسرعة قصوى تبلغ (500 كم/الساعة)، بينما كانت شبكة السكك الحديدية في مصر تعاني من حالة إهمال وانهيار شديدين، كما لم تتجاوز السرعة في شبكات مترو الأنفاق والمصممة حديثاً 60 كم/ الساعة، كان هناك ثمة إشكاليات في تصميم المنحنيات وطبيعة مرونة حركة عجلات قطارات المترو على خطوط السكك في شبكات الأنفاق، مما تسبب في كبح حدود السرعة القصوى وتآكل شديد وسريع للقضبان في بعض المناطق، مما ينتج عنه انتهاء صلاحية تلك الأجزاء قبل بلوغ عمرها الافتراضي واستبدالها بأخرى جديدة... لم

يكن الأمر يتعلق فقط بالفرق الكبير الخاص بتصميم شبكات السكك الحديدية والسرعة التصميمية للقطارات، كانت ماكينات الحفر العملاقة التي قامت على حفر شبكة الأنفاق، تقوم الشركة الفرنسية باستيرادها من ألمانيا...

الحقيقة المفزعة أن كل شيء في ألمانيا كان ذروة من النظام والدقة البالغة، كان كل شيء تعبيراً عن الحداثة، وأيضاً عن قوة الشخصية الألمانية، علي الاعتراف أنني كنتُ أحياناً ما تصيبني حالة من الرعب من هذا العالم الذي يبدو كأنه عالم خيالي من كون آخر.

ما إن عدتُ من ألمانيا حتى قمت على وجه السرعة بعمل أمرين:

الأول: تسليم مخطوطة الرواية إلى زميل مهندس افتتح مكتباً يضم أجهزة كمبيوتر لكتابة الرسائل العلمية وخلافه، اتفقت (بسبب رداءة خطي الشديدة) مع الفتاة التي تقوم بالكتابة على أن تستبدل الكلمات التي لا تتعرف عليهاً بعبارات استفهام.

الأمر الثاني، هو أنني سارعت باقتناء جهاز كمبيوتر، وكانت مكوناته المتوفرة بدائية إلى حد كبير، كان يحتوي على (رام) قدرها واحد ميغا، بينما الهاردسك كان 20 ميغا، أذكر أنني طلبت من الشركة أن تستبدله بهاردسك 10 ميغا، أجابوا بلطف شديد، أنهم سوف يحاولون الحصول عليه من السعودية، لكنني قبلت بهذا الوضع.

فيما بعد أصبح من المهام الملقاة على عاتقي حل تلك المشكلات المتعلقة بالجدال الدائم (أقول الجدل وليس الصراع)، بين تطور (الهارد وير) في المقابل للتناسب أو التماهي مع التطورات المتعلقة بالبرمجيات (السوفت وير)، أذكر ولا يمكن أن أنسى تلك الساعات والوقت العقيم الذي كنت أقضيه وأنا أغالب النعاس أمام جهاز الكمبيوتر، مستخدماً برنامج (word 2)، أحاول حفظ أو نسخ مستند طويل من نصوبي، بمشقة هائلة، إذ كثيرًا ما كان (يهنچ) ويتوقف عن العمل، وهو ما كان يعني تطاير وفقدان الوقت، والأخطر فقدان أجزاء من النصوص التي كتبتها من ذائقة العقل الإبداعي... اللعنة! لقد أصابني هذا بخصيصة تعدد النسخ التي أقوم على حفظها بصورة تكاد تكون مرضية، ومع ذلك يحق

لي الفخر بأنني كنت أول من كتب فن الرواية
مباشرة على جهاز كمبيوتر شخصي.

هذا الجدل بين البرمجيات و(الهارد وير) لم يتوقف
قط، ولن يتوقف، خاصة ونحن نصعد الدرجات الأولى
من العالم السحري المسمى (الذكاء الاصطناعي).

* * * *

(2 / 25)

عالم البرمجيات المذهل
mls / وورد / أوفيس

يعد برنامج mls أول برنامج للكتابة باللغة العربية
تمكّن من استخدام، وكان يضم عددًا قليلاً من
الفونطات، أحدها كانت حروفه مدورة وثقيلت
بشكل جميل، استخدمته في إعادة كتابة
مخطوطات القصص القصيرة التي كتبتها عن الفترة
التي قضيتها في لندن، ومجموعة من المذكرات
الخاصة بالحركة الطلابية، بحثت عنها كثيراً
ولكنها جميعها اختفت مع بعض الوثائق المهمة من
منزلي، يبدو أنه تم الاستيلاء عليها بمعرفة أحدهم.

هناك برنامج آخر كان أكثر كفاءة من برنامج mls،
ولكنني لا أذكر اسمه الآن، استخدمته لفترة
محدودة، ثم تلاشى عقب ظهور برنامج (word 2)،
وكنت أكتب بمهارة على الآلة الكاتبة، وكنت
اقتنيت واحداً من أشهر الطرازات في ذلك الوقت،

وهو طراز (أوليمبيك)، كتبت عليه رواية (نهر السماء).

أقدمت على الكتابة على الكمبيوتر بسهولة شديدة، وقد كانت البداية بمراجعة النسخة التي تم كتابتها في مكتب الجمع لدى زميلي في العمل، وتصحيح ما أشارت إليه الفتاة التي كتبتها من علامات استفهام لم تتعرف على كلماتها.

فيما بعد تطورت البرمجيات، وتطورت أجهزة الكمبيوتر بصورة متسارعة، ثم أنتجت شركة مايكروسوفت برنامجها الأشهر متعدد الاستخدام (أوفيس) الذي أحدث ثورة في عالم الكتابة والإدارة... وأمور شتى لا محل للخوض فيها.

* * * *

(3 / 25)

عودة إلى طبقات النص

التصميم الداخلي للنص

نشأت علاقتي بالتصميم الداخلي للنص في أثناء الانهماك في كتابتي رواياتي على جهاز الكمبيوتر،

في البداية ظهر ولعي باستخدام الأشكال المختلفة والمتعددة للحروف، وتشكيل الفقرات على الصفحات، وكانت البداية مع رواية (مراعي القتل)، حيث تربعت أشعار الهلالية على مفتتح الفصول، ولم يكن الأمر بهذه السهولة، وإنما تطور مع ملاحظات الأصدقاء ونضج النص.

أشعار السيرة الهلالية

في البداية، نزلت مدينة (منوف)، وقمت بشراء المجموعة الكاملة من شرائط كاسيت السيرة الهلالية لأبي زيد الهلالي، لشاعر الربابة الفحل (فتحي سليمان الشاعر)، وكانت تبلغ على ما أتذكر (32) شريطاً، وما لم أجده في مدينة (منوف) اشتريتها من مدينة طنطا، وعكفت على تفرّيخها كاملة، انتقيت منها الأشعار المناسبة التي تتناول رحلة أبي زيد الهلالي إلى تونس الخضراء، ودوافعها من ظهور الجذب والمجاعة في نجد الأميرية، وبلاد الحجاز، وتوصية الملك سرحان لأبي زيد، بأن يعتني بأبنائه ومن معه من فرسان الهلالية.

* * * *

ملاحظات ونصائح الأصدقاء

تعودت على عرض المخطوطات النهائية للنصوص التي انتهيت من كتابتها على عدد من المحبين والموثوق بهم فنيّاً وأخلاقياً، الذين لا تحمل قلوبهم حقدًا ولا ضغينة، لقراءة المخطوطة وسماع ملاحظاتهم والأخذ أو عدم الأخذ بما أراه أو لا أراه مناسباً، وكان الغرض من هذه العملية هو الإشارة إلى تلك الأجزاء التي قد تسبب الملل لدى القارئ، وتلك الأخطاء المعلوماتية التي قد لا أنتبه إليها، بهدف تداركها، أو التخلص منها قبل الطباعة والنشر.

أذكر أن الصديق العزيز الروائي، صاحب رواية (خطوات على الأرض المحبوسة) المهندس محمد يونس، قد أبدى ملاحظة، كان لها تأثير جوهري على الشكل النهائي للنص، وكنت قد بدأت مطلع الفصول بمقاطع مطولة من أشعار السيرة الهلالية،

أتذكر أنني كنت مفتوناً بها، وخصوصاً لكونها
تعبر بصورة لافتة عن شخصية البطل وأزمته
هو ورفاق الحرب في رحلته إلى بلاد النفط والشقاء.

كانت ملاحظة الصديق الفنان المبدع محمد
يونس، تلخص في أن النصوص الشعرية طويلة،
كما أن القارئ لا يهتم بقراءتها ويتجاهلها، علماً بأن
هناك الكثيرين من القراءاء يعشقون السيرة
الهاليتية.

كان من غير الممكن تجاهل ملاحظة إنسان نبيل
وفنان ومثقف كبير وصديق من طراز رفيع، وبعد
تفكير عميق قررت القيام بأمرين:

الأول: اختزال القصائد بصورة لافتة.

الثاني: تحويل النص من نمطه الشعري إلى نمط
نثري، تم وضعه على عرش الفصل، استخدمت
عرضاً أقل للفقرة من عرض النص الرئيسي، و(فونط)
غامقاً مدوئاً ثقيلًا جميلاً.

كان حلٌّ مدهشٌ مذهلٌ، وكأنه في جزء
منه خداع للقارئ من أجل دفعه إلى قراءة أجزاء
السيرة الهاليتية.

الحقيقة، بسبب تلك الملاحظة الهامة، وبهذا
الحل الفني الرائع، تحولت أجزاء السيرة الهلالية
التي افتتحت بها الفصول إلى جزء أصيل وسرد
عضوي من بنيان الرواية، وهذا أمر شديد الروعة.

* * * *

(5 / 25)

ثمانية عشر عامًا لرؤية النور

بعد الانتهاء من كتابة المخطوطة الأولى 1975، جرى (لعدم قناعتني) وضعها جانبًا ثلاثًا عشر عامًا مضت قبل العودة إلى الكتابة في ألمانيا، فهل اقتصر الأمر على ذلك؟ مطلقًا... فبعد العودة من ألمانيا وكتابة المخطوطة على الكمبيوتر، لم يتوقف العمل، وتواصل تطوير النص ليظهر عام 1993 في صورته النهائية، وهو تاريخ نشر الرواية، أي ما يقارب أربع سنوات أخرى خلاف الثلاثة عشر عاما التي سبق وتوقفت عن الكتابة دون التوقف عن التفكير... هي إذن ثمانية عشر عامًا استغرقتها كتابة رواية (مراعي القتل) كي تخرج على الصورة التي فُتحت وأُعجبت بها كل من قرأها.

* * * *

(6 / 25)

غلاف الطبعة الأولى

في أثناء لقاءاتي مع الصديقة العزيزة والشخصية التي مثلت لي نموذجاً للإنسان مثالي لا يقبل التهادن، مع حياة تفتقد قيم الشرف، أو رفاق خانوا مبادئهم (أروى صالح)، التقيت بالفنانة التشكيلية والإنسانة الرائعة؛ فاطمة الطناني، والتي عرضت عليّ أن يقوم صديقها الفنان الكبير حلمي التوني بعمل الغلاف، وكان غلاماً رائعاً، شعرت بأن الفنان الكبير قرأ النص كاملًا، ورسمه على الغلاف. شكرًا جزيلاً للصديقة الفنانة الكبيرة؛ فاطمة الطناني، وكل الشكر والتقدير للفنان الكبير؛ حلمي التوني.

* * * *

الفصل السادس والعشرون

النشر.. طريق صعب ممتلئ بالعثرات

(1 / 26)

شريقيات/ سعد صمويل

في البداية توجّهت إلى دار شريقيات، وكان للدار صدى قوي في الواقع الثقافي، ولصاحبها الأستاذ حسني سليمان سمعت طيبة، وكان قد سبق له رفض نشر مجموعتي القصصية الأولى التي كتبتها عن الحياة في لندن، وقد أصبحت الآن أدراج الرياح، التقيت به، وكان شخصيته شديدة التهذيب. استقبلني بحفاوة، لكنه بعد أن قرأ المخطوطة تراجع عن النشر، وكان في اعتذاره رنة سخريّة، وسؤال، عن ما هذا المكتوب.

ثم جاءني اتصال من الصديق العزيز، الناشر سعد صمويل، وهو الصديق المقرب من الناقد الكبير إبراهيم فتحي؛ يعرض عليّ نشر الرواية، وكان سعيداً مهتماً بالعمل، وأخبرني أنه أرسله للمراجعة اللغوية، ثم ما لبث أن تراجع هو الآخر، بصمت ودون أن ينبئ عن موقف ما، لم أعرف السبب، ولم أهتم، كان لدي ثقة شديدة في النص

الروائي، سواء من حيث المحتوى الذي يروي هجرة
ملايين المصريين المتسللين عبر أسلاك الحدود عقب
حرب أكتوبر إلى ليبيا، سيراً على الأقدام عبر
الطريق الساحلي، وأغلبهم من الطبقات الفقيرة
الكادحة، رحلة تقاطعت فنيّاً مع السيرة
الهالكية، وذكريات جندي في سلاح الدفاع الجوي،
قاتل ببسالة على جبهة قناة السويس ضد شراسة
الطيران الإسرائيلي في حرب الاستنزاف.

كان لدي ثقة تامة في التغيّرات اللغوية
التي أجريتها على القواعد النحوية في الرواية، حيث
اللغة خليط بين العربية الفصحى والعامية؛ لغة
تنتمي إلى لغة شاعر الربابة التي تعزف داخلها ألحان
الشغف والحب والعشق والمغامرة والحرب والقتال
والشجاعة والموت، وكنت قد حاولت مسبقاً
صياغة النص على إجماله وكبر حجمه بتلك اللغة؛
لغة شاعر الربابة، ولكني لم أستمر لسبب بسيط،
وهو أنه يصعب وربما لا يمكن التخلّي عن
جماليات اللغة الفصحى، ولا شاعريّة وعاطفيّة
العامية المصرية.

* * * *

(2 / 26)

دار سعاد الصباح... فيض من المال الغزير

في الربع الأخير من عقد الثمانينيات، وفي أثناء جلوسي على مقهى زهرة البستان، سألني الأستاذ القاص (سعيد الكفراوي) إن كنت وجدت ناشراً للرواية؟ أجبت بالنفي، فطلب منّي ضاحكاً أن نذهب إلى دار الهلال، لمقابلة الأستاذ يوسف القعيد، وعلمت أنه أحد المسؤولين عن اختيار النصوص في دار نشر جديدة، ذاع صيتها في فضاء النخبة الثقافية، وكانت للأميرة الكويتية؛ الشاعرة سعاد الصباح.

وافقت من فوري، كانت فرصة ذهبية للنشر في الدار التي ظهرت بقوة في الساحة الثقافية المصرية، ولم يكن هناك بدائل كثيرة، وفي اليوم الذي وقّععت فيه على العقد، استلمت لأول ولآخر مرة (من دار نشر خاصة) شيكاً قيمته ثلاثة آلاف جنيه، نظير نشر رواية (مراعي القتل).

ومن أعجب الصدف، هو قدوم اتصال تليفوني (وكنت في مكتبي في غرفة مكتظة

بالمهندسين في المبنى القديم للهيئة القومية
للأنفاق)، من الروائي القدير صنع الله إبراهيم، وكان
قد أصبح مستشاراً لدار شرقيات يعرض عليّ²²
موافقة الدار على النشر، اعتذرت له، أخبرته أنني
وقد²² عت اليوم وللتو²² عقد²² مع دار سعاد الصباح،
مقابل 3000 جنيه، وعندما تساءلت عما يمكن لدار
شرقيات أن تدفع، قال ليس أكثر من 1000 جنيه،
شكرته للغاية، ولكني كالعادة كنت²² عدو²²
لنفسي، فعندما لاحظت في أثناء متابعتي للتصميم
الفني للنص، أن القائمين على جمع وكتابة الرواية
سوف يحولونها إلى ما لا يقل عن ألف صفحة دونما
أسباب منطقية، سوى الجشع والاستحلال
والرغبة في نهب أموال الأميرة الشاعرة، أخذتني
الحمية، أرسلت خطاب²² مطول²² إلى المسؤول عن
الدار في مصر، وكان الدكتور إبراهيم سعد الدين،
أوضحت رأيي في التصميم والإخراج الفني الداخلي
للرواية، والذي يزيد من حجم الرواية بصورة هائلة،
مما يؤثر على سعر الرواية، وأخبرته أن هذا غير
ممکن وغير مناسب، وأنه ينبغي أن يتم التعامل مع
(الفونط) والمسافة بين السطور بصورة فنية
مناسبة، حفاظ²² على السعر النهائي للكتاب، وأن

هذا أمر حاسم في وصول الرواية بسعر مناسب لأوسع قدر من جمهور القراء، وبالطبع لم أتلق ردّاً، ربما اعتبر هذا وقاحة وتدخلًا، حيث لا ينبغي التدخل.

لا جدال أنني كنت غبيّاً، وكثيراً ما كنت أبحث عن معارك خاسرة، وفي النهاية تم إلقاء الرواية في زاوية النسيان.

محاولة بائسة فاشلة

لإثبات وجهة نظري

لفرط اهتمامي بنشر الرواية في الحدود الفنية المناسبة، ولإثبات صحة وجهة نظري، توجهتُ هتّاً إلى مكاتب لديهم أجهزة من نظام (آبل)، وجلست أمام شاشة الكمبيوتر، أعيد كتابة الرواية على أجهزة (آبل ماكنتوش)، وعندما انتهيت قمتُ على طباعتها على أوراق (الكال) التي كانت تُستخدم إبّان ذلك الوقت في الطباعة، فلمْ انتهيت وبحرص شديد، حملت ملفاً يضم الرواية مطبوعة على ورق (الكال)، أي جاهزة للدخول المباشر للمطبعة، وذهبت إلى المسؤول الجديد لدار سعاد الصباح، (وكان أردنيّاً)، وأُشيع أنه كان يتولى تصفية الدار

في القاهرة ونقلها إلى مقر جديد قيل إنه سيكون في
العاصمة الأردنية عمان.

أخذ المسؤول الجديد الرواية مطبوعة على ورق
(الكلك)، ورحلت فارغ اليدين دونما الحصول على
شيء سوى خيبة أمل إضافية.

لم يمضِ وقت طويل، حتى انهار مشروع دار
سعاد الصباح بأكمله في القاهرة، بسبب السلوك
غير المسؤول والذي يفتقد الأمانة من قِبَل بعض
المثقفين والموظفين من دوائر النخبة تجاه استحلال
المال الذي كان من المأمول أن يساهم في تنمية الحياة
الثقافية المصرية، لصالح الإبداع وكبار وصغار
المبدعين، ويقال إنه في ذلك الوقت (عقد
التسعينيات)، تم إراقة الملايين من أموال الدار.

* * * *

(3 / 26)

وللرفض المتوالي ميزاتة

في كل مرة يتم رفض النشر من قِبَل ناشر ما،
كان عليّ أن أعيد كتابة الرواية على جهاز
الكمبيوتر، وهو أمر أفادني كثيرًا، نظرًا لطبيعتها
اللغوية التي اخترتها وهي (كما ذكرت)، مزيج من
الفصحى والعامية ولغته شاعر الربابة.

* * * *

العودة إلى المربع صفر

هكذا عدت إلى المربع صفر، وعليه قررت أن أتولى
عملية الطباعة والنشر بنفسني، وكنت قد وفرت
ثلاثة آلاف جنيه، توجهتُ إلى مطبعة الأمل التي
يملكها كل من الاستاذ خالد محيي الدين، ورفعت
السعيد.

وفي أثناء ذلك، جرى لقاء في فندق (سونستا) الواقع بمدينة نصر، التقيت خلاله بكل من الصديقين؛ عاطف الرملي، وفريد زهران.. في البداية اقترح فريد زهران أن يتم طبع عدد 500 نسخة من الرواية بنظام (الماستر)، وعلى أن يتولى الصديق عاطف الرملي دفع التكلفة، وأعتقد أن الصديق زهران لم يأت على ذكر القيمة المطلوبة؛ لأنني رفضت منذ اللحظة الأولى بشدة، لم أكن أستطيع قبول إعادة تجربة الطبعة الأولى لرواية (الغرس) 1980، والتي كانت رائعة من جهة دخولي عالم الإبداع، وسيئة من حيث مظهر الكتاب، ولهذا أصرت على أن يتم طباعة الرواية بنظام ألواح الزنك، وكنت قد قطعت شوطاً في الاتفاق مع مطبعة الأمل، وبكل لطف ومحبة أعلن الصديق العزيز والأخ الحبيب عاطف الرملي موافقته على وجهة نظري، ومن ثم المساهمة في التكلفة بمبلغ ثلاثة آلاف جنيه، جرى تسليمها للمطبعة.

وهكذا جرى تسليم الرواية مطبوعة على ورق (كـلـك) إلى مدير المطبعة؛ الصديق (فيروز) الضاحك المبتسم دائم.

* * * *

(4 / 26)

ظهور مفاجئ لمساهم محترم

في أثناء عمل التجهيزات التي تسبق عملية الطباعة، مثل عمل ألواح الزنك، ظهر فجأة للمرة الثانية، الصديق مصطفى الخولي، وهو يعرض أن يتولى نشر الرواية من قِبَل دار جديدة أُطلق عليها اسم (دار النهر)، وكانت تضم كوكبة واسعة من المؤسسين، جُلُّهم ينتمي إلى اليسار، ثم أُطلق مفاجأة من العيار الثقيل، بالقول بأن هناك شخصية لم يسبق لي أن تعرفت عليها، وهو أنه بعد قراءته لرواية (نهر السماء) قرَّر تخصيص مبلغ، وقدره عشرة آلاف جنيه، لأي عمل روائي يكتبه فتحي إمبابي، وكانت تلك الشخصية الرائعة هي الأستاذ عمرو حمودة، ومن ثم جرى إعادة خلط الأوراق، فقد تقرر على ما أذكر (وربما كنت مخطئاً) زيادة عدد النسخ من ألف إلى ثلاثة آلاف نسخة، وطبعاً لم يستعد عاطف الرملي نقوده، ولم آخذ نقودي، وتولى مصطفى الخولي باسم دار النهر إعادة

كتابة الرواية، وإعادة المراجعة اللغوية مع احترام التغييرات اللغوية التي أدخلتها على قواعد النحو، وهكذا كنت ممتناً؛ لأن هناك من قرأ رواية نهر السماء، ومن ثم وضع هذا المبلغ في حساب عمل آخر أتولى كتابته. فيما بعد، تعرفت على الصديق عمرو حمودة، والسيدة زوجته، وهي سيدة مثقفة رائعة ومميّزة، وتتسم بالنبل والأخلاق الرفيعة، وكانا يديران مركز الفسطاط.

لم أحاول أن أعرف بالضبط الإدارة المالية لنشر الرواية، ولا كيف تم إنفاق العشرة آلاف جنيه، وكى لا أبدو ساذجاً، أعتقد (والله أعلم) أن المبلغ استُخدم في نشر كتب أخرى للدار الجديدة، وأنا لم أهتم مطلقاً بالنواحي المالية، كان يكفي النشر، وخروج الرواية إلى النور، وتصبح بين يدي القارئ.

* * * *

(5 / 26)

السيد (ظُلْم)

مع كل إنجاز حققته، لا يفوت السيد (ظُلْم) أن يَظنُّ بوجهه القبيح، هكذا قامت الدار بنشر عدد من الكتب، ثم ما لبثت أن حدثت خلافات حادة بين الشركاء، قام أحدهم استيفاءً لحقوقه المادية في الدار، بوضع يده على حجم كبير من نسخ روايته (مراعي القتل)، واحتفظ بها لسنوات طويلة في مخازن تابعة له، ولم أحاول معرفة كيف تصرف فيها، ولمَّا بقي لديه بضع نسخ اتصل بي، كي يعطيني إياها، وكان بعضها مَهْلُهْلاً ومهترئاً، والبعض متسخ بشدة، مَن هو؟ لا ينبغي ذكر اسمه.

وهكذا يمكن أن ننزل الستار على الأجواء والظروف التي كتبت إبانها روايته (مراعي القتل) من حيث المحتوى والتصميم الداخلي، والصعوبات التي واجهت عملية الطباعة، وتعدد دور النشر، والظروف التي أحاطت بتمويلها.

* * * *

(6 / 26)

شكرًا السيد (ظُلْم)

في أثناء كتابة رواية مراعي القتل، أمضيتُ ثلاثة عشر عامًا أحاول الجمع بين ذاك الفلاح وذاك المثقف اليساري في سيرة ورحلته واحدة، لكنني اكتشفت أن هذا محض هراء وإسفاف لا يطابق الواقع، وعندما التقيت الفلاح الأزهري الذي حُرِّم من استكمال تعليمه، والجندي الذي قاتل ببسالة، وحرص رفاقه على الصمود ضد آلة الحرب الإسرائيلية الجهنمية، والذي يحمل في ذاكرته وفي وعيه وسلوكه اليومي، وثقافته الشعبية حكايات وبطولات (أبو زيد الهلالي) انقضى الأمر، وتمكنت من الالتزام باحترام المدرسة الواقعية، والتخلُّي عن الانحياز لمفاهيمي وثقافتي الأيديولوجية، لصالح ثقافة جماعة الفلاحين المصريين عندما يستلزم الأمر الكتابة عن حياة الفلاحين؛ ألامهم، وأحلامهم.

ولهذا وقبل إسدال الستار على رواية (مراعي القتل)، ينبغي عليّ التوجُّه بالشكر للسيد

(ظلم)، ونديمته السيدة (ألم) اللذين أتاحا لي من خلال وفاة والدي المبكرة أن أكتشف الدور الذي تلعبه الثقافة الشعبية الساحرة في حياة الفلاحين المصريين.

* * * *

(7 / 26)

جائزة الدولة التشجيعية 1994

في زمن عابر، يبدو أن السيد (ظلم) ونديمته السيدة (ألم) كانا مشغولين في قضاياهم الخاصة، مثل استنباط أدوات جديدة للتعذيب الجسدي، أو وسائل لم تكتشف بعد للتنكيل النفسي بالمبدعين من أصحاب الجدارة، ومنها وضع سياسة جديدة في مواجهة التصاعد الدرامي للإسلام السياسي، الذي تُوِّج باغتيال مَن أتاح له الخروج من القمقم؛ الرئيس المؤمن، وقد استقر الاختيار على الاستعانة بفلسفة التنوير التي خرجت من ثناياها الثورة الفرنسية عام 1878، والتي وضع خطوطها الرئيسية الدكتور أسامة الباز، وقام على تنفيذها الفرسان الأربعة؛ الدكتور جابر

عصفور، الذي تولى رئاسة المجلس الأعلى للثقافة،
الدكتور سمير سرحان، الذي تولى رئاسة الهيئة
العامة للكتاب، ومن ثم إدارة أهم مشروع ثقافي في
نهاية القرن العشرين، وهو مكتبة الأسرة، ومعهم
الدكتور نصر حامد أبو زيد، والدكتورة هدى ???

في ذلك الوقت، تقدمت برواية (مراعي القتل) لنيل
جائزة الدولة التشجيعية، وقد حصلت عليها
بإجماع لجنة التحكيم، وكانت تضم عمالقة من
أرقى الشخصيات الثقافية، على رأسهم الناقد
الكبير إبراهيم فتحي، الدكتورة فاطمة موسى،
الدكتورة رضوى عاشور، وآخرون لا أذكر أسماءهم
للأسف، ولهم اعتذاري الشديد، كانوا جميعاً
فخورين، وربما أكثر سعادة مني لمنحي الجائزة،
كانوا يعبون لي إذا ما التقيت بهم بمحض
الصدفة عن بالغ تقديرهم للرواية، وعن سعادتهم
بالأمر.

اثنان فقط؛ الدكتورة نهاد صليحة، كتبت في
جريدة الأهرام مستهجنة إعطاء الجائزة لرواية
كأثبت بمنهج أو نظرية لغوية تـخالف قواعد
اللغة العربية الكلاسيكية، وخاصة النحوية.

الثاني، كان الدكتور جابر عصفور، والذي استلم عمله كأمين عام للمجلس الأعلى للثقافة لتو^{٢٢}هـ، وكان هو من سل^{٢٢}مني مكافأة الجائزة، والتي بلغت (990.00) جم، وربما أقل قليلا، وكانت قيمة الجائزة المادية (1000.00) قبل خصم الضرائب.

* * * *

(8 / 26)

الشعور بالفخر

عقب نشر الرواية وحتى الآن، أشعر بفخر واعتزاز شديدين وإيمان وثقة في الذات لكوني سجلت في تاريخ الرواية العربية لحظتين في الحياة الاجتماعية العربية؛ الأولى هي ما حدث للعُمَمُ أَلِ المصريين على الحدود المصرية الليبية، سواء في رحلة التسلسل عبر الحدود، والسير مئات الكيلومترات على الأسفلت وتحت الأمطار المتواصلة، والتلاعب بهم وسرقة أموالهم من قِبَلِ القائمين على عمليات التهريب من الجانبين، أو في أثناء رحلة العودة والتي كثيرًا ما تنتهي بالاستيلاء على أموالهم وعلى ما يحملون من قِبَلِ عصابات من القبائل والتي إما أن تكتفي بسرقتهم أو ينتهي الأمر بالموت، وكثيرًا ما كنت أتمنى أن يقيم نصب تذكاري لهؤلاء الذين قُتِلُوا على الحدود المصرية الليبية، والذين استُشهِدُوا في سبيل البحث عن لقمة العيش؛ تمثال ضخمة ينتصب في قلب الصحراء شاهد على تلك الجريمة التي ارتكبت في حق هؤلاء البشر التَّعَسَّاء،

وأغلبهم ينتمون إلى الجيل الذي حارب دفاعاً عن مصر وعن فلسطين وعن العرب.

الديمقراطية

القضية الأخرى التي شعرت بالفخر في كتابتها، هي النكسات الحقيقية لمفهوم الوحدة العربية على أرض الواقع، حيث الصراع بين الجنسيات العربية على أشده، وبلا أي قدر من التعاطف أو الرحمة، وفي هذا الصدد أقول: إن إيماني بالوحدة العربية لا يزال على حاله، وإن كنت قد تخلصت من تلك الأوهام الرومانسية الرثة، ليحل محلها أن الأمور المتعلقة بمستقبل الوطن لا يمكن أن تحدث بسبب قدر من الحماس، وقدر من الشعارات والكلمات الجميلة، وإنما هناك سبيل واحد لتحقيق آمال وأحلام هذه الأمة، وهو الديمقراطية، وعدم القفز على الأوضاع أو المراحل التاريخية بطبيعتها، والتعلُّم من التجارب الأخرى التي تمكنت من بلوغ هدفها.

* * * *

(9 / 26)

أفضل مائة رواية في القرن العشرين

في نهاية عقد التسعينيات من القرن العشرين، جرى استفتاء بين أوساط المثقفين قامت به (على ما أذكر) إحدى الجرائد، تم اختيار روايتي (نهر السماء) و(مراعي القتل) بين أهم أو أفضل مائة رواية عربية في القرن العشرين.

وهكذا أنهيت القرن العشرين بنشر ثلاث روايات، وكانت روايتا (نهر السماء) و(مراعي القتل) من ضمن أهم النصوص التي صدرت في القرن العشرين، وكان من المستغرب حجب جائزة الدولة التشجيعية عن فرع الرواية عام 1990 وربما 1991، وكنت قد تقدّمت في ذلك العام، كما ذكرت قبلاً، برواية (نهر السماء) لنيل الجائزة.

* * * *

الفصل الأخير

عقيدة الرواية

الحرية والإنسانية والعدالة

مع الوقت، وفي ظل شغف لا ينقطع بفن الرواية، ارتقى انتمائي بأفكاري إلى مستوى أكثر رقيًا من التقولب داخل المعتقدات الأيديولوجية، إلى تلك السهوب والوديان الفسيحة والجبال الشاهقة والسموات المفتوحة التي لا تحدها تخوم.

تلك النفوس النبيلة التي تتجاوز أيديولوجية اليمين أو اليسار؛ اشتراكية، ليبرالية... نفوس جعلت من عقيدة الإنسانية وحرية وكرامة البشر مفهوماً وطريقاً في الحياة الإنسانية والعدالة... حق البشر في تحقيق حياة سعيدة.

بفضل الرواية، لم أعد أسير في الفلسفة المثالية أو المادية، وكيف وهناك (أوزوريس) الذي أعطى البسطاء حق دخول الجنة التي كانت مقصورة على الملوك الفراعنة، فبأي سعادة ساروا يشعرون؟.. (بروميثيوس) الذي سرق النار من الآلهة ووهبها إلى البشر، السيد المسيح الذي سحق الإمبراطورية

الرومانية التي كانت تضع قدميها فوق رؤوس شعوب البحر المتوسط بعقيدة المحبة التي تجعل كل الناس سواء... (أرنستو تشي جيفارا) الذي غادر مناصبه الحكومية إلى أنجولا وأحراش بوليفيا ليلقى موته الأسطوري هناك، دفاعاً عن الفقراء والفلاحين... والقائمة تطول.

الحرية والكرامة والعقيدة الإنسانية والعدالة أكثر رحابة من أي عقيدة فكرية، هي فلسفة الرواية، بلا منازع، تحلّق في فضاء العالم والتاريخ بجناحيها الذهبيين؛ الحرية، والعدالة.

* * * *

المعنى الكامن في فن الرواية

هكذا لم تكن الرواية منذ البدايات أو خلال حياتي بحثاً عن جاه أو سلطة أو نفوذ، وهو ما استخدمه البعض بنفعية أو ذاتية، وأحياناً بخسّة مفرطة، وخاصة أولئك الذين استغلوا مناصبهم في الإعلام والصحافة والمؤسسات الثقافية والأكاديمية، ونصبوا من أنفسهم شيئاً ذا قيمة...

لم تكن تواطؤًا مع سلطة سياسية أو ثقافية، أو
أيديولوجية ماركسية، ناصرية قومية، أو ليبرالية،
ولا كنز أموال، وإنما سلاح لمؤازرة كفاح الإنسان من
أجل الحياة الكريمة، والخير والجمال والحب
والسعادة.

* * * *

الرواية المعرفية

في هذا المضمار الجميل، تعلمت أن الرواية بجانب
أنواعها الأخرى، يمكن بل ينبغي أن تكون الطريق إلى
الارتقاء بالوعي الفردي والجمعي نحو عالم أفضل، أن
تساهم في شق الطريق نحو جنة المعرفة من أجل
سعادة وكرامة البشر.

تعلمت أن هناك نمطًا آخر من الرواية، وهي الرواية
المعرفية، المتعلقة بالارتقاء بالوعي الإنساني العام.

* * * *

نهاية الكتاب الأول

الكتاب الثاني

الثلاثة عقود الأولى من القرن الواحد والعشرين

حذفه: ١